تاريخ المصريين ١٩٣

# الإمام محمد عبده

## بين المنهج الدينى والمنهج الاجتماعى

د. عبد الله محمود شحاتة



الهيئة المصرية
العامة للكتاب

رئيس مجلس الإدارة :

د. سمير سرحان

رئيس التحرير :

د. عبد العظيم رمضان

مدير التحرير :

محمود الجزار

تصدر عن
الهيئة المصرية العامة للكتاب



# الإمام محمد عبده

## بين المنهج الديني والمنهج الاجتماعي

د. عبدالله محمود شحاتة



الهيئة المصرية العامة للكتاب
فرع الصحافة
٢٠٠٠

الاشراف الفنى :

---

**محمـود الجـزار**

# تقـــديم

يسرني أن أقـدم للقـارىء الكريم هـــذا الكتـــاب عن « الامـام محمـــد عبده بين المنهج الديني والمنهج الاجتمـاعي » ، الذي كتبه الدكتور عبد الله محمود شحاته . وهو في الأصل رسالة علميـة حصـل بها صاحبهـا على درجة المـاجستير من جامعـة الأزهر . وكان قد سبق نشره في عـام ١٩٨٤ عندما كان الدكتور عبد الله شحاته يرأس قسم الشريعـة بكلية دار العلوم بجامعـة القاهرة ، وقدم له الشيخ محمد ابو زهرة ورأينا اهميـة اعادة نشره في سلسلة تاريخ المصريين ، لاستكمال الدراسـات التي نشرتهـا هذه السلسلة عن الشيخ محمد عبده .

والكتاب يتحدث عن منهج الامام محمد عبده في تفسير القرآن الكريم ، الذي كان يتخذه أداة لمحاربة الأفكار الرجعيـة والتخلف في فهم الدين ، ويدعو فيه الى الرجوع بالدين الى منابعه الأولى .

وقد قسم الدكتور عبد الله شحاته كتابه الى ثلاثة أبواب : الباب الأول ، وقد تحدث فيه عن حيـاة الامام الشيخ محمد عبده ، فتناول نسبه ، ونشأته ، وأساتذته ، وتعرفه بالشيخ درويش خضر ، وعودتـه الى طنـطا ، ودراسـته في الجـامع الأزهر ، وتعرفـه بالأفغاني ، وتأثره به ، واهمية الامام .

أما الباب الثاني ، فقد تناول فيه منهج الشيخ محمد عبده في تفسير القرآن الكريم ، مقارنا بمناهج المفسرين السابقين . وقد

تحدث فيه عن أسس تسعة قام عليهـا منهج الامام محمد عبده ، وهي : اعتبـار السـورة وحـدة متناسـقة ، وعموميـة القرآن وشموله ، واعتبـار القرآن المصـدر الأول للتشريع ، ومحاربـة التقليد ، واستخدام المنهج العلمي ، وتحكيم العقل فى فهم القرآن ، وترك الأطناب فى الكلام عما ورد فى القرآن بصورة مبهمة ، والتحفظ فى الأخذ بما سمى بالتفسير المـأثور ، والتحذير من الاسرائيليات ، والاهتمام بتنظيم الحياة الاجتماعية على أسس هدى القرآن ٠

اما الباب الثالث ، فقد تحدث فيه عن تلامذة الامام محمد عبده فى التفسير ، وتناول بصفة خاصة تلميذه السيد رشـيد رضـا ، فتحدث عن خصـائص تفسير المنار للسيد رشيد رضـا ، وتأثر صاحب المنـار بابن كثير فى تفسـيره للقرآن من حيث الاهتمـام بالرواية والتوفيق بين النصـوص المتخالفة فى الظاهر ، والعناية بأحداث التاريخ المتعلقة بالقرآن ، وتأثر الاثنين بابن تيميـة ٠

كذلك تأثر صاحب المنار بالغزالى ، وهو ما يلاحظ فى نقله آراء الغزالى فى كثير من الموضوعات وفى جميع أجزاء المنار ٠

والكتاب على هذا النحو يقدم جانبا مهما من جوانب الشيخ محمد عبده ، ويرسم صورة قد لا يحيط بها المؤرخون ٠

وأملى أن ينتفع بهذا الكتـاب البـاحث المتخصص والمثقف العـادي ٠

والله الموفق ؟

رئيس التحرير

أ٠ د٠ عبد العظيم رمضان

# بسم الله الرحمن الرحيم

# تعـريف بالكتـاب

ظهر الشيخ محمد عبده مع الفجر ، وقاد الصحوة والنهضة ، وحصـل على الشهادة العالمية سنة ١٨٧٧ م واتجه الى الاصـلاح والتوجيه والتربية والتعليم بكل قوته .

وكان يتخذ من تفسير القرآن منبرا يدعو فيه الى التعمق فى فهم القرآن ، وروحـه العامة وهدايتـه ، وادراك سر البيـان والبلاغة ، والترابط اللغوى والفنى بين آياته وأفكاره .

وقد حارب التقليد والجمود ، ودعـا الى استخدام العقل والفكر والرأى .

كمـا حارب الرجعيـة والتخلف فى فهم الدين ، ودعـا الى العودة الى الروح العامـة للاسـلام ، والاعتمـاد على المراجـع الأصلية لفهم الاسـلام ، والاعتمـاد على القرآن الكريم والسنة الصحيحة ، وتاريخ التشريع واعمـال الصحابة ، وهدى السلف الصـالح .

ودعـا الى تعليم المرأة جميـع فنـون التعـليم ، واحترام انسانيتها وتربيتها وتهذيبها ، وتعليمها الحقوق والواجبات ، حتى

لتنشأ عزيزة كريمة ، فتكرم بكرامتها ، أبناءها وأحفادها ، وبذلك ترقى الأمة ، وتتماسك الأسرة ، وهذا الكتاب : ( الامام محمد عبده بين المنهج الديني والمنهج الاجتماعي ) رسالة علمية ، بذل فيها جهد شاق متتابع ، وطبعت منذ فترة بعيدة ، ثم نفدت طبعاتها ، واحسست بالحاجة الى نشرها ، وآمل أن يجد فيها المؤمن ما يقوى ايمانه ، وأن يجد فيها الباحث ما يساعده في بحثه ، وان يجد فيها المسلم نفحة روحية ، تعرفه بامام راسخ القدم ، له باع طويل في فهم الدين ، وتفسير القرآن الكريم ، والدعوة الى التسامي والقوة والتطور والتقدم ، واليقظة الفقهية ، فالفقه قانون الحياة ، والحياة متطورة متغيره ، ويجب أن يتطور الفقه بما يوافق شرع الله من جهة ، وما يناسب مصالح الناس من جهة أخرى ٠

لقد كان الامام محمد عبده ، قوة باهرة أيقظت الأمة ، وحركتها في فهم الدين والأدب ، والحياة الاجتماعية والتقدم العلمي والفكري ٠

وآمل أن نجد في هذا الكتاب ما ينفع ويفيد ان شاء الله ، وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين وصل اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ٠

١٩٩٩/٩/٢٠م.

د٠ عبد الله شحاتة

# تقـــديم

## بقلم الأســتاذ الشيخ محمد ابو زهرة

الحمد الله الذى انزل القرآن برهانا ونورا مبينا ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذى أرسل بشيرا ونذيرا وعلى آله وصحبه وسلم ٠

اما بعد ، فهذا كتاب فى بيان منهاج الامام محمد عبده فى تفسير القرآن الكريم وهو باكورة تأليف السيد عبد الله محمود شحاته ، وقد راى المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعيــة أن يتولى طبعه ونشره تشجيعا لكاتبه ، وليكون وراء هــذه الباكورة أنضج الثمرات واينعها واطيبها ان شاء الله تعالى ٠

١ ـ وقد ابتدأ الكاتب بذكر حياة الأستاذ الامام ناشــئا نشأته الأولى فى بيت ريفى ، لرب البيت فيه السلطة المطلقــة ، وقد بين هنا أثر ابيه فيه ، وكيف كان يهابه ويرهبه ويحبه معا ، ثم انتقل بصاحبنا الغلام الى الجامع الأحمدى ٠ حيث يطلب العلم ، مشيرا الى حال المتعلم والمعلم فيه ، وطريقــة الدرس ٠ وهنا تبدو من الغلام أول ثورة نفسية ، وذلك أنه لم يستطع ان يفهم مما يلقى عليه شيئا ٠ ودفعته هذه الثورة الى الاعراض ، ثم الى ترك الدرس بعد سنة ونصف ٠ واذا كان قد زهد فى العلم بعد أن رأى ما رأى فى السنة والنصف ، وبعد استغلاق مســائل العلم عليه ، فان الله

سبحانه وتعالى قد هيأ له ما يرغبه فى علم الاسلام • ذلك أنه قد قهره الأب المرهوب المحبوب على العود الى طلب العلم وهم بأن يفر هاربا ، ولكنه وجد المأوى والملاذ عند رجل صوفى ، له بأبيه قرابة خئولة ، فقد عرج عليه فى مهربه ، والرجل قد راض نفسه وسما بها ، وسبقت له تجارب أسفار ، وفيه قوة نفسية تؤثر وتجلب وتوجه ، فوجد فيه محمد عبده الثائر موجها مؤثرا ، فأخذ يقرأ عليه رسائل وكتبا فى التصوف الخالى من الشوائب ، وأخذ هذا يبث فيه النزوع الى المثل الانسانية والدينية العليا ، والتلميذ يتلقى ما يلقى عليه تلقى الصادى للماء العذب الفرات ، وتجاوبت النفسان ، والتقى القلبان • سأل التلميذ الشيخ : ما طريقتك ؟ فقال : الاسلام • وسأل التلميذ شيخه مرة أخرى : ما وردك ؟ فقال : لا ورد لى سوى القرآن تقرؤه مع الفهم والتدبر • فقال انى لى أن افهم القرآن ولم اتعلم شيئا ؟ فأخذ الشيخ الموجه بيد تلميذه لينقذه من حيرته ، فقال : أقرأ معك ، ويكفيك أن تفهم الجملة ، وببركتها يفيض الله عليك التفسير •

٢ — أخذ الشاب محمد عبده طريقه ، فكان أمامه الاسلام والقرآن وفهمه ، وعلم أن السبيل الى ذلك هو تعلم علوم الاسلام وعلوم القرآن ، فعاد الى الجامع الأحمدى رغبا لا رهبا ، ففتحت الرغبة مغاليق عقله ، ففهم ما تعصى عليه فهمه من قبل ، ونبغ بين الطلبة ••••

والجامع الأحمدى كان نهرا صغيرا من النهر الأعظم وهو الأزهر ، فتاقت نفسه لأن ينتقل اليه ، فشد رحاله الى القاهرة ، وفيها يلتقى بحكيم الشرق جمال الدين الأفغانى ، فوجد فيه الهدف الذى يقصده ، وجد فيه عقلا مشرقا نافذا ، واذا كان قد وجد فى الشيخ الصوفى توجيها سليما ، فقد وجد فى الشيخ الحكيم فكرا

مستقيما ، ونفسا متوثبة وارادة قوية خلاقة ، قد تعلو على كل من فى الوجود ، لتسجد لخالق الوجود ، وتفرده بحق المعبود ٠

كان جمال الدين يعلم الحكمة ، ويوعز بالتفكير الحر ، واستقلال الفكر مع غيرة على الاسلام وأهله ، ورغبة فى جمع أشتات المسلمين ، وعمل على ذلك بازالة الغمة عن العقول ، واثارة الهمة للعمل ، وقد التقى به مع الشاب محمد صفوة من نبغاء الأزهر ، فبث فيهم نزعته بالتدريس والتوجيه وحسن الصحبة ، وما أخرج من مصر الا بعد أن بدت بوادر الثورة ٠

٣ ـ تهيأ للشاب الأزهرى ان ينال شهادة العالمية ، فاخذ يكتب فى الصحف ، وقد بدات العقول تتفتح ، كما تتفتح اكمام الورد ، وتولى رياسة تحرير الوقائع ، فاتخذ منها منبرا للتوجيه ، والدعوة الى الهدى والى صراط مستقيم ، وانضم اليه من تلاميذه وصحبه من عاونوه فى رسالته ، وقد قبسوا من علم جمال الدين ما قبس ، وكان لبعضهم فى الوطنية والعلم مقام مشهود ٠

كل ذلك وبوادر الثورة السياسية قد ظهرت ، فخب فيها الامام محمد عبده ووضع ، ولما احتلت مصر بعد خيانة كبير حكامها كان الشيخ ممن أصابتهم عقوبتها ، فسجن ونفى ، ولكنه همة لا تفل ، وعزيمة لا تكل ، فالتقى بشيخه وصديقه جمال ، واخذا يعملان على جمع شمل المسلمين ٠ وبعد جهود مضنية من الرجلين ، رأى التلميذ ان اسلم طريق لايقاظ الأفهام تعليم المسلمين، ورأى الشيخ الأستاذ مع ذلك ضرورة ايقاظ الهمم ، فافترقا ، كل يعمل على منهاجه ٠

أخذ يلقى محمد عبده دروسه فى الشام ثم لما عاد من منفاه أخذ يلقى دروسه الباعثة الموقظة بين الأزهريين ، وقد عين فى

منصب من أعلى مناصب القضـاء عسى أن يصرف عن رسالته التى حملها ، وصار وحده الحـامل لها ، وخصوصا بعد وفاة صديقـه جمال الدين ، ولكنه لم يصرف عنها ، لأنها منبعثة من قلبه وايمانه ، لا من تكليف حاكم ، أو من تعيين فى منصب ، ورسالته هى التعليم ، فأنشأ الجمعية الخيرية الاسـلامية للتعليم ، وعقد الندوات العلمية وألقى الدروس ٠

٤ ـ وكان الدرس الذى يمكنه من أداء رسالته العلميـة هو تفسير القرآن ، فهو معجزة الاسـلام ، وفيه شريعته ، وهو حبل الله الذى يعتصـم به المسـلمون ، وهو برهـان الله ونوره المبـين **(( يهدى به الله من اتبع رضـوانه سبل السـلام ، ويخرجهم من الظلمـات الى النـور باذنـه ويهـديهم الى صراط مسـتقيم ))** المـائدة ١٦ ٠

لقد وجهـه شيخه الصـوفى الى القرآن وتدبره ، واسـلم منهاج لتفسيره ، وهو فهم جملته ، ثم التوجه من بعد ذلك بصفاء نفسى الى معانيه الساميـة ، فانه لابد من أن تسمو نفس طالب علم القرآن ، حتى يعلو الى ادراك سـموه ، وانك لترى الامـام محمد عبده يتجه فى تفسيره اتجاها لم يسلكه أحد من المفسرين ، فان المفسرين من قبله كانوا اما أن يعتمدوا على الأثر ، واما ان يعتمدوا على ما تؤديه الألفاظ من معان وما يشتمل عليه القرآن فى الفاظه وجمله واساليبه من بلاغة ، وقليل منهم من كان يغوص فى تدبر هذه المعانى ٠ واذا كانت معانى الألفاظ هى مفاتيح المعـانى كمـا قال الامام الغزالى ، فوراءها آفاق للتدبر والتأمل ، وقد حـاول الامام بالتزامه منهاج التدبر فى المعانى أن يوجه أذهان تلاميذه الى أسرار المعانى القرآنية ٠

وأنك تقرأ ما نقل من تفسيره ، وأحسب أن النقل كان مقربا لما قاله الامام وليس محققا لكل ما قال ، ولا مصورا لكل ما أراد ـ فتجد المحاولة الجدية لمعرفة ما فى آيات القرآن من مرام وغايات ، وتقرأ تفسير آيات كتبها بقلمه كتفسير قوله تعالى : (( **كان الناس أمة واحدة** )) فتجد فيها المحاولة بينة رائعة عظيمة ٠

٥ ـ والامام فى تفسيره كان حريصا على تنقية الاسلام وتفسير القرآن من الشوائب ، فان طائفة كبيرة من الاسرائيليات دخلت القرآن فكانت حجابا حاجزا عند بعض المفسرين دون التغلغل فى ادراك معانيه ، فكان من عمل الامام فى درسه أن ازال هذه الغواشى فيما نشر ، لتبدو صفحة القرآن متألقة ونورها مبينا ٠

وان تلك الغواشى كانت كثيفة الى درجة أن وقع بعض كبار المفسرين فى أغلاط بسببها ، واذا كان العابثون بالديانات السماوية قد حرفوا الكلم عن مواضعه فى بعضها ، فانهم قد عجزوا عن ذلك فى القرآن ، لأن الله حفظه ، ولأنه بأسلوبه فوق تحريف المحرفين ، وأى كلام يلحق به يبدو بادى الرأى مميزا ولم يحاول احد ذلك لعجزه ابتداء ، وقد حفظ متواترا فى الصدور لا فى السطور ، فلا سبيل لمحرف أن يصل اليه ، ولكن أولئك جاءوه من تلك الاسرائيليات ليشوهوا جماله ٠ ولكن كان فى كل عصر من أئمة الحق من يرد زيفهم ، وكان آخرهم الأستاذ الامام ٠

ولقد كان الامام يقرأ ما يقرأ حتى أنه كان يقرأ نحو خمسة وعشرين تفسيرا ، ما بين مطبوع ومخطوط ، ولكنه يستعين بمجموعها ، ليصل الى لباب المعنى ، لا لينقل ما فيها ، أو يتيه فيما يقرأ ٠

وكان يتخذ من منبر القرآن طريقا لبيان البدع والأوهام ، وما فرق أمر المسلمين بعد الاجتماع ، ويوضح الفرقة الفكرية

والسبيل الى تلافيها على مائدة القرآن ،والأخذ من ورده الصفى ؛ وعلمه النقى .

ولقد تكونت مدرسة من العلماء والمثقفين تطلب علم الامام وترويه وتنشره ، ومن أقوى هذه المدرسة تأثرا بالامام السيد رشيد رضا رحمه الله وعفا عنه ـ فهو راويه وناقل علمه الينا نحن الذين لم نستمع الى الامام وان استمعنا الى صحابته المخلصين له .

ولكن تفسير المنار قد اشتمل على أمرين لم يكونا فى تفسير الامام :

**أولهما** ـ العناية بدعم التفسير بالمأثور عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وذلك بلا ريب خير كله .

**وثانيهما** ـ النقل الكثير من المفسرين ، وان السبب فى ذلك أن الامام كان يلقى درسا ، فكان يلقى ما تمثل فى عقله وقلبه مما قرأ وتأمل وتدبر فى القرآن ، ولأن كل همة نفسه كانت متجهة الى لباب القرآن .

٦ ـ وقد نبه السيد رشيد الى بعض أخطاء للامام فى أدب ، ووفاء ، ولكن ذلك لا يعليه الى مرتبته ، ولا ينزل الامام الى طبقته ، فالناس منازل فى العلم ، وحسب امام الجيل انه فتح عين الطريق ، فاستقى منها كل وارد وكان أشد الناس منها تلميذه وصفيه السيد رشيد ، ولكل مقام معلوم .

وقد خاض السيد الكاتب خوضا شديدا نوافقه فى بعضه ونخالفه فى بعضه ، ولكنا فى الموافقة والمخالفة نقدر اجتهاده ، وهو فيه مجزى من الله تعالى .

والله ولى التوفيق ؟

**محمد أبو زهرة**

# مقـــدمة

تجتــاح الشرق العربى تيارات مختلفــة تحــاول أن تعصف بالمواريث والقيم التى ميزت هــذا الشرق فكان مهبط الرســالات ومبعث النبوات ٠

ويحاول الاستعمار أن يستعين بكل السبل للقضــاء على مجد العروبة والاسلام ٠

انه يرى فى الاســلام عملاقا ضخما وماردا جبارا ، أيقظ العرب وانتشر ففتح البــلاد ودانت له العبــاد واخضـــع الأكاسرة والقيــاصرة ٠

كما قال الشاعر محمود غنيم :

**يا من رأى عمرا تكسوه بردته والزيت أدم له والكوخ مأواه**

**يهتز كسرى على كرسيه فرقا من بطشه وملوك الروم تخشاه**

ولقد حمل الحقد الصليبى حملاته المتكررة على بلاد العروبة والاسلام طوال قرنين من الزمان ٠

**(( يريدون ليطفئــوا نــور الله بأفواههــم والله متم نــوره ولو كره الكافرون ))** الصف ٨ ٠

وكان من اتمام الله نوره اختياره صلاح الدين الذى أنقذ بيت المقدس من يد الصليبيين ، واراهم كيف تكون الهزيمة فى حطين ·

وفى هذه الأيام توجهت حملات تبشيرية من الشرق والغرب ·

وكلها تلتقى على الكيد والدس للاسلام والمسلمين (( **يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون الا أنفسهم وما يشعرون** )) · البقرة ٩ · ولقد كان السيد جمال الدين الأفغانى من أول من نبه لهذه الدسائس والمؤامرات فى النصف الأخير من القرن التاسع عشر ، فطاف بالبلاد الاسلامية يوقظها من سباتها ، ويحيى فيها روح الكفاح والدفاع · وينادى حكامها بالديمقراطية والحياة النيابية ويناضل الاستعمار الأوربى · ويشن حملاته على الاستعمار الانجليزى ، حتى ازعج السلطات البريطانية فى الهند ومصر وبلاد الأفغان ، وقضى السيد نحبه فى الآستانة وقد ترك اثرا حسنا وشعورا مهيأ وأرضا صالحة وغرسا يحتاج الى التعهد ·

فكان الشيخ محمد عبده خير من نهض بهذه الرسالة ·

وايقن الأستاذ الامام محمد عبده : أن التربية الحقيقية واصلاح شأن الأمة وتقويم اخلاقها وتعليم بنيها ومحاربة الفساد فيها ، كل ذلك كفيل بأن يهيىء البلاد لحالة اسلم واحسن متمثلا قوله تعالى : (( **ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن** )) النحل ١٢٥ · وانطلق الأستاذ الامام شعلة متقدة من النشاط المثمر والعمل النافع · فتراه يسهم فى نجدة المنكوبين واغاثة الملهوفين وينشىء الجمعيات الخيرية ، ويدعو الأغنياء الى البذل والعطاء ·

ويحيى اللغة العربية وينهض بالصحافة ، ويتخذ من (( الوقائع

الرسمية » منبرا لتوجيه الأمة والرقى بأخلاقها وتهذيب عاداتها وطباعها .

ويلهب نار الثورة العرابية ، ويجابه الحاكم ويحارب ظلمه وبطشه ، ويتحمل النفى فى اباء ، محاولا أن يزيح كابوس الاستعمار عن الشرق وأن يبعث همم الشرقيين ومجد المسلمين .

ويعود الامام من منفاه ويرضى عنه الخديو فلا يشغله ذلك عن هدفه ولا يمنعه من تربية الأمة وهو على منصة القضاء يدعوها الى التراحم والتكافل والبر والتعاون وينادى بتدعيم الأسرة . وصلة الرحم وتربية النشء والاهتمام بأوامر الدين .

ويتولى الافتاء فترى رجلا جديدا فى فتاويه ، يعرف آراء المعتزلة ، ويعجب بالامام أحمد ابن تيمية ، ويرى تقدم الغرب وتفوق أممه .

فيتهمه بعضهم بأنه يميل الى المعتزلة ويرجح آراءهم ، ويقول آخرون انه سنى سلفى وهابى . ويتهمه آخرون بالتفرنج وممالأة الانجليز والسعى فى بلادهم ومصادقة حكامهم والاتصال بفلاسفتهم والأخذ عن آرائهم . ويعترض الجميع قائلين :

« ما هذا الشيخ الذى يتكلم باللغة الفرنسية ، ويسيح فى بلاد الافرنج ، ويترجم مؤلفاتهم وينقل عن فلاسفتهم ويباحث علماءهم ، ويفتى بما لم يقل به أحد من المتقدمين ويشترك فى الجمعيات الخيرية ، ويجمع المال للفقراء والمنكوبين ؟ ان كان من أهل الدين ، فليقض حياته بين الجامع والبيت . وان كان من رجال الدنيا ، فانا نراه يعمل فيها وحده أكثر من جميع الناس » .

والحق ان الشيخ محمد عبده لم يكن معتزليا ولا سلفيا ولا افرنجيا ٠

لقد جمع محاسن هذه الأشياء وتخلص من مساويها ٠ وكون لنفسه رأيا خاصا ، وشخصية مستقلة تعتمد على القديم من تراثنا وتخرجه للناس فى ثوب مناسب للحضارة ، ملائم للحياة ، موافق لمصالح الناس ٠

ووجد الامام فى القرآن مصدر الهداية (( **ان هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم** )) ٠ رآه المدرسة التى تخرج فيها المسلمون الأولون أمثال أبى بكر وعمر وخالد وأبى عبيدة وزيد بن ثابت وغيرهم ، فشرع يفسر القرآن الكريم ٠ ويتخذ منه وسيلة للنهوض بالمجتمع واصلاح شأن الأمة الاسلامية ٠ فكان تفسيره للقرآن فتحا جديدا فى عالم التفسير ٠

لقد كان طالب التفسير يلتمسه فى التفاسير السابقة فيجد فيها كل شىء الا التفسير ٠ نجد بعضها يهتم بالقواعد والاعراب ، أو البلاغة والبيان ، وبعضها يهتم بآراء الفرق الاسلامية والتعصب لها أو الرد عليها ، وبعضها يهتم بالقراءات ، وبعضها يورد آراء الفقهاء ٠ حتى ظهر تفسير الأستاذ الامام فعاب ما فى هذه التفاسير من الشغل عن التفسير ٠

وقد فسر الامام سورة البقرة ، وسورة آل عمران ، وجزءا من سورة النساء حتى الآية ( ١٣٥) كما فسر جزء ( عم ) ٠ وكان تلميذه الوفى المخلص السيد رشيد رضا صاحب الفضل فى حفظ تراث الامام ، واكمال تفسير المنار حتى سورة يوسف ، وتوفى بعد أن فسر قوله تعالى : (( **رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تاويل الأحاديث فاطر السموات والأرض انت وليى فى الدنيا والآخرة توفنى مسلما والحقنى بالصالحين** )) يوسف ١٠١ ٠

وقرات تفسير الامام ، فرأيت رجلا يريد أن يبني أمة ويبعث مجدا ويثير حضـارة على أساس من كتاب الله وهدى قرآنه الكريم. فاستعنت بالله وطلبت منه ان يوفقني في تتبع ما كتبه الامام ومقارنته بما كتبه المفسرون السابقون ، وسميت الكتاب :

الامام محمد عبده بين المنهج الديني والمنهج الاجتماعي .

لقد رسـم الأسـتاذ الامام من القرآن منهجا تربويا للأمـة الاسلامية . يبعث مقوماتها ويثير امجادها وينادي بآداب القرآن من الشجاعة والكرامة والحفـاظ . ويطالب بالتعـاون والتواصي بالحق والجرأة بالرأي ومحاربة الظلم والتعاون على الحق كمـا تأمر آيات القرآن .

وحارب جمود الفقهاء وتقليدهم ، وتقديم المذاهب على القرآن فاعاد للقرآن والسنة مكانهما الأول من التشريع . ودعا المسلمين الى استخدام عقولهم وتفكيرهم حتى يحققوا أمر القرآن من جهة . وينهضوا بحياتهم ويستفيدوا من التقدم العلمي الذى أحرزه الغرب من جهـة أخرى .

وحارب الامام الخرافات التى شاعت بين العوام فى عصره عن كرامات الأولياء وشفاعة الأبدال والأنبيـاء وما يتعلق بأذهانهم من الجن والسحر وغيرها على نحو ما صنع الامام ابن تيمية وابن القيم وابن عبد الوهـاب فى محاربـة البدع والرجوع بالاسـلام الى اصـوله الأولى .

والتزم الامام فى تفسيره الطابع العلمى . فلم يلتمس تفسير القرآن فى القصص والاسرائيليات . بل قال ان خير ما فسر القرآن القرآن .

ورفض كل قصة أو اطناب فى وصف ليس له سند صحيح من القرآن أو السنة .

ودافع الامام عن العقائد والمثل الاسلامية وبين قيمتها وأهميتها التاريخية والعلمية . ودعا الى اعتبار القرآن جميعه وحدة متماسكة لا يصح الايمان ببعضه دون بعض ، وبين أن فهم بعضه متوقف على فهم جميعه .

وان فى كل سورة من سور القرآن روحا يسرى فى آياتها ويسيطر على مبادئها وأحكامها وتوجيهاتها واسلوبها .

واخيرا لقد كان هذا التراث الذى تركه الامام معينا لا ينضب . استقى منه اساتذة هذا الجيل ، وتاثر بالأستاذ الامام كل مفكر حر وكل عالم مجتهد فى النصف الأول من هذا القرن .

فما اجدرنا ونحن نبنى مصر الجديدة فى ثورتها ونهضتها أن نقدم من « حياة الأستاذ الامام ومنهجه فى تفسير القرآن الكريم » زادا لهذه النهضة ، يوضح أن عندنا رصيدا من القرآن والاسلام والتفسير يغنينا عن غيرها من المبادىء الهدامة والمذاهب الأرضية ، وشتان بين وحى السماء وعمل الأرض .

**« افحكم الجاهلية يبغون . ومن احسن من الله حكما لقوم يوقنون » .**

لقد كان هذا البحث تلبية لدواعى الوطنية والقومية العربية والنهضة الاسلامية .

واستجابة لقرارات مؤتمر الثقافة والفنون التى أذيعت ونشرت بجريدة الجمهورية فى ١٥ من شوال سنة ١٣٧٨ هـ ـ ٢٣ من ابريل ١٩٥٩ م .

وقد تضمنت هذه القرارات : أن القومية العربية حقيقة واقعة تربط الأمة العربيــة بروابط الدم واللغة والتراث الروحى والثقافى المشترك ٠ وأن اقامة المجتمع العربى على أساس من الاشتراكيــة الديمقراطية التعاونيــة امتداد لتاريخنا وتطور طبيعى لمجتمعنا ٠ وأن الاستعمار والصهيونية والتبعية والشيوعية على اختلاف صورها وشعاراتهــا دخيلة على هذا المجتمع ومناهضــة لمبادئه واهدافــه ومقدساته ٠ وتعبئة جميع قوانا الروحية والمــادية لدفع اية محاولة ترمى الى النيل من القومية العربيــة او المساس ببنــاء مجتمعنا الاشتراكى الديمقراطى التعاونى ٠

وعلى هدى هذه القرارات قررت اللجان الفرعية المتخصصة ما يلى :

لجنــة التراث الفنى : أن يستخلص من الكتب القديمــة والمراجع الدينية النصوص التى تحقق المعانى الروحية ٠ والعبارات وأثرها فى تربيــة الضمير الاجتمــاعى والكرامة الانسانية والعدالة الاجتماعية والتعاون الانسانى فى الأسرة والمجتمع ، والحرية والتكافل الاجتماعى وتكوين راى عام فاضــل يأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر ٠ وأن تعد تراجم لأعلام الحضــارة وأحاديث عن البطولة وعمل مجموعات من الصور عن آثارنا واصــدار كتيبات عنها ونشر القيم المــأخوذة من تراثنا القديم ٠

من أجل هذه المعانى شرعت فى وضع هذه الرسالة ٠

والله اســأل أن ينفع بهــا ،

وأن يجعلهــا خالصــة لوجهه ٠

وما توفيقى الا بالله عليه توكلت واليه أنيب ٠

عبدالله محمود سحاته

الباب الأول

# حياة الشيخ محمد عبده

نسبه ـ نشاته ـ اساتذته ـ تعرفه
بالشيخ درويش خضر ـ عودته الى طنطا ـ
دراسته فى الجامع الأزهر ـ تعرفه بالسيد
جمال الدين الأفغانى ـ تاثره بالسيد
جمال الدين ـ عظمة الامام •

# حيــاة الشــيخ محمــد عبده

**نســـبه :**

هو محمد بن عبده بن حسن خير الله .

ولد فى قرية محلة نصر مركز شبراخيت ، مديرية البحيرة ، تبعد عن دمنهور بنحو خمسة عشر كيلو مترا ، وهى واقعـة على ترعة تسمى الترعة الأنصارية .

ولم يكن أبوه من أهل الغنى والجـاه او الحسب والنسب ولكنه كان من اهل المروءة والنجدة والانسانيـة . ونحن نشـاهد أن كثيرا من الناس تغرهم أنسابهم وتقعدهم أحسابهم عن عمل الخير والتسابق الى المكرمات .

ولكن الاسلام لا يعتد بالحسب والنسب قدر ما يعتد بالعمل والسيرة الحسنة . وانا لنرى عبيدا أو موالى ارتفع قدرهم فى فجر الاسلام ، فبلال وصهيب وسلمان كان لهم شرف الصحبـة بالنبى عليه الصلاة والسـلام ومدحهم القرآن . بينما ذم أبا لهب الحسيب النسـيب .

وقال الشاعر :

**لعمرك ما الانسان الا ابن دينه**
**فلا تترك التقوى اتكالا على النسب**

**لقد رفع الاسلام سلمان فارس**
**كما وضع الشرك الحسيب ابا لهب**

والنبى عليه الصلاة والسلام كان ينادى قرابته فيحذرهم من الاعتماد على انسابهم ويقول لهم : (( **يا آل محمد لا يأتينى الناس بالأعمال وتأتونى بالأنساب** )) .

والله تعالى يقول : (( **فاذا نفخ فى الصور فلا انساب بينهم** )) المؤمنون ١٠١ .

العبرة اذن فى الشرف والسيادة هى كمال الفطرة وسلامة النفس وهمة المرء وسيرته الحسنة .

فاذا انضم الى ذلك شرف النسب كان زينا وكمالا . ولم يضر محمد عبده أنه من أسرة فقيرة من اعماق الريف ، فقد كانت أخلاقه أخلاق الملوك ، حتى قال له جمال الدين ذات مرة : (( أخبرنى ، ابن من من الملوك أنت ؟ )) .

ولم يكن جمال الدين الأفغانى ليعتز بنفسه وحسبه قدر ما يعتز بفكرته ودعوته للاصلاح ونهوض المسلمين .

واسرة جمال الدين على عراقتها فى الحسب والنسب لم تخرج غير جمال الدين ، واسرة محمد عبده على بساطتها لم تخرج غير محمد عبده . فالشرف ليس بالحسب أو الضعة ، وليس بالغنى او الفقر ، بل هو فضل الله يؤتيه من يشاء .

**وكم اب قد علا بابن ذرا شرف — كما علت برسول الله عدنان**

ورب شرف يلحق الأسرة من أبنائهـا فيعوضهـا عن شرف آبائهـا ٠

وكان عبده خير الله ، والد الشيخ محمد عبده ، من هـذا الصنف الذى تميز بأخلاقه وسيرته وانسانيته ٠ قال الامام ــ رحمه الله ــ فيما كتبه من تاريخ حياته :

« كنت أعتقد أن والدى أعظم رجل فى القرية وكل من فيهـا دونه ، وهو بذلك اعظم رجل فى الدنيـا ، فان الدنيا لم تكن اوسع عندى من محلة نصر ، وكان ينزل عنده بعض الحكام ولا ينزلون فى بيت العمدة ــ مع انه اغنى واكثر دورا وارضين ٠ ونشـأ فى الاعتقاد بأن الكرامة وعلو المنزلة لا يتعلقان بالثروة وكثرة المـال وكنت أعقل من صغرى ما كان عليه والدى من ثباته فى عزيمته وشدته فى المعاملة وقسوته على من يعاديه ٠ واخذت عنه ما عدا القسوة ٠

أما والدتى فكانت منزلتها بين نساء القرية لا تنزل عن مكانة والدى ٠ وكانت ترحم المساكين وتعطف على الفقراء ، وتعد ذلك مجدا وطاعة لله وحمدا »(١) ٠

**نشـأته :**

نشأ الأستاذ الامام فى جو ريفى ، بعيدا عن المدن ٠ والنشأة فى القرى البعيـدة أعون على خـلوص النظر من تصـنع البـلاد المتحضرة ٠

ولد الامام فى بيت يشتغل أهله بالزراعـة ، وجميع اخوتـه يساعدون أباهم فيها ، ولكن والده اختاره للقرآن وأخلصه للتعلم ، وقد يكون ذلك الاختيار بمحض الصدفة ٠

---

(١) تاريخ الاستاذ الامام جـ١ ص ١٤ ٠

ـ فانا نشاهد فى الريف كثيرا من الأسر المتوسـطة والفقيرة تختار بعض بنيها للعلم اذا صـادفت سنو نشأته بعض اليسر فى الأسرة ٠

واذا كان اختيار الامام للعلم صدفة ٠ فقد باركها الاستعداد الطيب عند الفتى ٠ فقد حفظ القرآن الكريم فى فترة وجيزة جعلت والده يأمل فيه الخير ٠

ويرى المرحوم الأسـتاذ مصطفى عبد الرازق أن والد الامام اختاره للتعلم دون سائر اخوته لمنزلته عند أبويه ٠

ـ ويدلل على هذه العناية بأن أباه علمه القرآن على معلم خاص ، وان امه لم تصبر طويلا على سفره الى الجـامع الأحمدى فذهبت لتراه بعد خمسة عشر يوما . وان أباه زوجه وهو صغير ٠

وربما كان ذلك كله راجعا الى طبيعة الوالدين من العنايـة بجميع الأبناء كل فى مهنته وحسب ظروفه من غير تفضـيل لواحد منهم على الآخر ، وهذا ما يسـمى فى التربيـة بتكافؤ الفرص لا تماثل الفرص ، وتكافؤ الفرص هو أن يهيأ أمام المواطن فرصـة تناسب مواهبه وميوله ٠ ولا يلزم أن تتماثل مع مواطن آخر يختلف عنه فى ذكائه واستعداده وميوله ٠

وقد صادفت نشأة الامام استقرارا فى الأسرة وبعض اليسر ٠ لأن والد الامام اضطر للهجرة من محلة نصر مع أولاده فرارا من قسوة الحكام وظلمهم ٠ وتزوج فى هذه الفترة من السيدة « جنينة » والدة الامام ٠ ثم عـاد الى وطنه محلة نصر واسترد بعض أملاكه ، وولد الامام فى فترة الاستقرار هذه عـام ١٢٦٦ هـ ـ ١٨٤٩ م ٠ والاستقرار المـالى فى الأسرة كفيل بأن يهيىء للابن الجديد فرص التعليم التى حرم منها اخوته الآخرون ٠

وعلى كل فما كان فى علم الأب أن ابنه سيكون اماما للاسلام والمسلمين ، فلعلها العناية الالهية هى التى دفعت الأب الى اخلاص ابنه للتعليم بتوفيق الله وارادته كما قال عليه الصلاة والسلام · (( ان الله تعالى يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة عام من يجدد لها دينها ))(١) ·

على أننا نرى الامام قد هرب من التعليم وفر من الجامع الأحمدى لأن أسلوب التعليم لم يوافقه ــ ولكن أباه أجبره على العودة اليه ، ولو كان أبوه يدلله لأبقاه بجواره ·

وقد كان والد على باشا مبارك يصر على بقاء ابنه على بجواره حبا له وايثارا لقربه على تعليمه · ولكن على مبارك فر من والده والتحق بالمدرسة(٢) · والامام يخبرنا أن والده كان قاسيا فى معاملته يأكل وحده ولا يأكل أحد معه · قال الامام :

«وقر فى نفسى احترام والدى ونظرت اليه أجل الناس فى عينى وسكن من هيبته فى قلبى ما لا أجده لأحد من الناس اليوم عندى · أما عوامل هذا الاحترام وذلك الاجلال فأتذكر منها قلة الكلام أمامى ، ووقارا كان فى الحركات والأعمال والهيئة ، والتنزه عن مخالطة الصغار من الناس ومشاهدتى أهل بلدتى يحترمونه ويبالغون فى توقيرهم اياه ، وانفراده بالطعام دون والدتى واخوتى ، فكان ذلك آية العظمة عندنا ، فان ما كان يواكل نساءه وأولاده فى تلك الأوقات الا الفقراء وأهل الطبقة السفلى من أهل القرية »(٣) ·

---

(١) رواه ابو داود والحاكم والبيهقى فى المعرفة عن ابى هريرة · وانظر تاريخ الأستاذ الامام جـ ١ : ص ٩٧٦ للتعليق على هذا الحديث ·
(٢) كتاب بناة النهضة العربية لجورجى زيدان ص ١٣٠ ·
(٣) تاريخ الاستاذ الامام جـ١ ص ١٣ ·

وهذه صفات تتوافر فعلا فى كبـار النفوس من أهل القرى ، ولكن لا تسمح لأصحابها بتفضيل بعض الأبناء على الآخرين .

وما قدمته رأى أراه بحكم نشأتى فى الريف لا حقيقة أثبتها . وقد يجتمع الرأيان لأن اختيار الانسـان للتعليم تتداخل فيه عوامل عدة ، منها الاستقرار فى المسكن واليسر فى المعيشـة وظهور الذكاء على التلميذ . وان كان بعض عظماء الرجال فى العالم لم يبد منهم اى ذكاء فى صغرهم . والذكاء نفسـه لا يظهر الا بالاحتكاك بمواقف الحياة . وقد احتك محمد عبده بهذه المواقف فى الجامع الأحمدى واخفق فيها واجتازها كثير غيره .

وسواء أكان اختيار الامام للتعليم بمحض الصدفة ، ام لتميزه على سائر اخوته ، فانه حفظ القرآن الكريم ، وذهب الى الجـامع الأحمـدى ليتعـلم تجويد القرآن . وفى الريف ينتشر قولهم : « لا علم الا أزهرى ، ولا قرآن الا أحمدى » .

ونجح الامام فى تعلم التجويد واتم فنونه فى سنتين على الوجه الأكمل . وفى سنة ( ١٢٨١ هـ ـ ١٨٦٤ م ) جلس فى دروس العلم فى المسجد الأحمـدى ، لكن منهج التعليم كان وعرا شاقا ، يتبع الطريقة التقليدية التى تعتمد على الحفظ وحشو الذهن بالمعلومات. وعلى أن المعرفة مقصودة لذاتها .

ـ قال الامام فى الترجمة التى كتبها لنفسه :

« وقضيت سنة ونصفا لا أفهم شيئا لرداءة طريقة التعليم فادركنى اليأس من النجـاح وهربت من الدرس ، واختفيت عند اخوالى مدة ثلاثة اشهر ، ثم عثر على أخى ، واخذنى الى المسجد الأحمدى واراد اكراهى على طلب العلم ، فأبيت وقلت له : قد ايقنت أن لا نجـاح لى فى طلب العلم ، ولم يبق على الا أن أعود

الى بلدى ، وأشتغل بملاحظة الزراعة كما يشتغل الكثرة من اقاربى ، وانتهى الجدل بتغلبى عليه • وأخذت ما كان لى من ثياب ومتاع ورجعت الى محلة نصر على نية !لا اعود الى طلب العلم ، وتزوجت فى سنة ( ١٢٨٢ هـ ـ ١٨٦٥ م ) على هذه النية »(١) •

وقد ترك الاخفاق فى طلب العلم أثرة السيىء فى نفس الشيخ محمد عبده وعبر عن هذا الأثر بقوله :

« فهذا أول أثر وجدته فى نفسى من طريقة التعليم فى طنطا وهى بعينها طريقته فى الأزهر • وهو الأثر الذى يجده خمسة وتسعون فى المائة ممن لا يساعدهم القدر بصحبة من لا يلتزمون هذه السبيل فى التعليم • غير أن الأغلب من الطلبة الذين لا يفهمون ، تغشهم أنفسهم ، فيظنون انهم فهموا شيئا فيستمرون على الطلب الى أن يبلغوا سن الرجال ، وهم فى أحلام الأطفال ، ثم يبلى بهم الناس وتصاب بهم العامة ، فتعظم بهم الرزية ، لأنهم يزيدون الجاهل جهالة • ويضللون من توجد عنده داعية الاسترشاد ويؤذون بدعاويهم من يكون على شيء من العلم ، ويحولون بينه وبين نفع الناس بعلمه »(٢) •

**اساتذته :**

هيأ الله للامام اساتذة من نوع ممتاز استطاعوا أن يكبحو جماح نفسه ويحببوا اليه العلم والمعرفة بعد أن يئس من الدراسة وتزوج واعتزم على فلاحة الأرض •

وقد تتلمذ الامام على عدد من الأساتذة تميز كل منهم باتجاه

---

(١) تاريخ الاستاذ الامام جا ص ٢٠ •

(٢) تاريخ الاستاذ الامام جـا ص ٢١ •

خاص · وتفاعلت فى الامــام عنــاصر التوجيــــه الروحى والأدبى والفلســفى ·

فكان أستاذه الروحى الشيخ درويش خضر · وكان استاذه فى الأدب الشيخ محمد البسيونى · وكان أستاذه فى الفلسفة الشيخ حسن الطويل وكان أستاذه فى الدعوة حكيم الاسلام جمال الدين الأفغــانى ·

**تعرفه بالشيخ درويش خضر :**

التقى الامام بهذا الشيخ عرضــا وبدون قصــد فقد أجبره والده على الرجوع الى طنطا لطلب العلم · ولمــا كان الامام يائسا من متابعة الدراســة فى الأزهر فقد هرب فى قرية « كنيسة اورين » وهى قرية من قرى شبراخيت غالب سكانها من خئولة أبيه ، وهناك اتصل بمعلمه الأول ومفتاح سعادته الشيخ درويش خضر أحد أخوال ابيه وهو رجل سبقت له أســفار الى صحراء ليبيا ووصــل الى طرابلس الغرب ، وجلس الى الســيد محمــد المدنى والد الشيخ ظافر ، وتعلم عنده شيئا من العلم وأخذ عنه الطريقة الشاذلية وكان يحفظ بعض كتب الحديث ويجيد حفظ القرآن وفهمــه · ثم رجع من أسفاره الى قريته ، واشتغل بالزراعة ·

وكان الشــيخ درويش من النوع الممتــاز من المربين ، يهتم بالتربية قبل ان يهتم بالتعليم وهى طريقة كبار الصــوفية الذين كانوا يغرســون فى نفوس اتباعهم الأذواق والمواجد لا عن طريق التلقين والتحفيظ ولكن عن طريق المشاهدة والقدوة الحسنة ·

كان الشيخ من الصوفية قدوة طيبــة لمريديه وأتباعه ـــ فى حاله وهيئته وصلاته ومناجاته لله ، وحسن فهمــه للدين · وكان

يجمع حوله مريديه ويربيهم ويؤثر فيهم بنفسه القوية الخبيرة بعلل النفوس وادوائهـا ·

وقد اسـتطاع الشيخ درويش خضر أن يكبح جمـاح الفتى الهارب · وان يحول بغضه للتعليم الى حب شديد ، وان يصرف نفسه عن اللهو والعبث الى حب للمعرفـة والدرس · وقد حكى الامام لنا هذه الطريقة التربوية فقال : « جاءنى هـذا الشيخ وبيده كتاب يحتوى على رسـائل كتبها السيد محمد المدنى الى بعض مريديه بالأطراف بخط مغربى دقيق ، وسألنى أن اقرأ له فيهـا شيئا لضعف بصره فدفعت طلبـه بشدة ولعنت القراءة ومن يشتغل بها ونفرت منه اشـد النفور ولمـا وضع الكتاب بين يدى رميته الى بعيد لكن الشيخ تبسم وتجلى فى ألطف مظـاهر الحلم ولم يزل بى حتى اخذت الكتاب وقرأت منه بضعة أسطر فاندفع يفسر لى معانى ما قرأت بعبـارة واضحة تغالب اعراضى فتغلبه وتسبق الى نفسى · وبعد قليل جاء الشبان يدعوننى الى ركوب الخيل واللعب بالسـلاح والسباحـة فى نهر قريب من القريـة فرميت الكتـاب وانصرفت اليهم · وبعد العصر جاءنى الشيخ بكتابه والح على فى قراءة شيء منه فقرأت وفسر ، ثم تركته الى اللعب ، وفعل فى اليوم الثانى كمـا فعل فى الأول ، أما اليوم الثالث فقد بقيت أقرأ له فيه وهو يشرح لى معـانى ما اقرأ نحو ثلاث ساعات لم أمل فيها ، فقال لى انه فى حاجة الى الذهاب الى المزرعة ليعمل بعض العمل فيها فطلبت منه ابقاء الكتـاب معى فتركه ، ومضيت اقرؤه وكلما مررت بعبارة لم افهمها وضعت عليها علامة لأسأله عنها الى أن جاء وقت الظهر ، وعصيت فى ذلك اليوم كل رغبـة فى اللعب وهـوى ينازعنى الى البطـالة ، وعصر ذلك اليوم سالته عما لم أفهمه فأبان معناه على عادته وظهر عليه الفرح بما تجدد عندى من الرغبـة فى المطالعة والميل الى الفهم » ·

« كانت هذه الرسـائل تحتوى على شيء من معارف الصوفية وكثير من كلامهم فى آداب النفس وترويضها على مكارم الأخـلاق وتطهيرها من دنس الرذائل وتزهيدها فى الباطل من مظـاهر هـذه الحيـاة الدنيا » .

« لم يات على اليوم الخامس الا وقد صـار أبغض شيء الى ما كنت أحبه من لعب ولهو ، وفخفخة وزهو وعـاد أحب شيء الى ما كنت ابغضـه من مطالعة وفهم ، وكرهت صور أولئك الشبان الذين كانوا يدعوننى الى ما كنت أحب ويزهدوننى فى عشرة الشيخ رحمه الله . فكنت لا أحتمل أن أرى واحدا منهم بل أفر من لقائهم جميعا كما يفر السليم من الأجرب » .

« فى اليوم السابع سألت الشيخ : ما هى طريقتكم ؟ فقال : طريقتنا الاسـلام ، فقلت : او ليس كل هؤلاء الناس مسلمين ؟ قال : لو كانوا مسلمين لمـا رايتهم يتنازعون على التافه من الأمر ولمـا سمعتهم يحلفون بالله كاذبين بسبب ، وبغير سبب » .

« هذه الكلمات كانت كانها نار أحرقت جميع ما كان عندى من المتاع القديم ــ متاع تلك الدعاوى الباطلة والمزاعم الفاسـدة ، متاع الغرور بأننا مسلمون ناجون ، وان كنـا فى غمرة ساهين . سالته : ما وردكم الذى يتلى فى الخلوات أو عقب الصـلوات ؟ فقال : لا ورد لنا سـوى القرآن نقرأ بعد كل صلاة اربعة أرباع مع الفهم والتدبر . فقلت له : انى لى أن افهم القرآن ولم أتعلم شيئا ؟ قال : اقرأ معك وبكفيك أن تفهم الجملة وببركتها يفيض الله عليك التفصيل ، واذا خلوت فاذكر الله ــ على طريقة بينها ــ وأخذت أعمل على ما قال من اليوم الثامن فلم تمض على بضعـة أيام الا وقد رأيتى اطير بنفسى فى عالم آخر غير الذى كنت اعهد ، واتسع لى ما كان ضيقا . وصغر عندى من الدنيـا ما كان كبيرا

وعظم عندى من أمر العرفان والنزوع بالنفس الى جانب القدس ما كان صغيرا ، وتفرقت عني جميع الهموم ولم يبق لى الا هم واحد وهو أن أكون كامل المعرفة كامل أدب النفس ، ولم اجد اماما يرشدنى الى ما وجهت اليه نفسى الا ذلك الشيخ الذى اخرجنى فى بضعة أيام من سجن الجهل الى فضاء المعرفة ، ومن قيود التقليد الى اطلاق التوحيد ـ هذا هو الأثر الذى وجدته فى نفسى من صحبة احد أقاربى وهو الشيخ درويش خضر من أهل ( كنيسة أورين ) من مديرية البحيرة ٠ وهو مفتاح سعادتى ان كان لى سعادة فى هذه الحياة الدنيا ، وهو الذى رد لى ما كان غاب من غريزتى ، وكشف لى ما كان خفى عنى مما أودع فى فطرتى »(١) ٠

**عودتـه الى طنطا :**

رجع الأستاذ الامام الى المسجد الأحمدى واقبل على المدرسين فى شغف وتلهف على المعرفة ٠ ففهم الدروس ثم تميز على زملائه فالتفوا حوله ليطالع لهم ٠

واستقرت فى ذهن الامام هذه النوازع الصوفية التى غرسها فيه الشيخ درويش خضر ٠ وساعد على استقرارها مظاهر الدراويش والأولياء فى مسجد سيدى أحمد البدوى ، ولكنه كان تصوفا سلبيا يميل الى المعرفة والانكماش وهضم النفس والاعتماد على الشطحات والاشارات وقد اعتمد الامام على اشارة أحد الدراويش له بالسفر الى القاهرة ٠

**قال الامام :**

« وفى يوم من شهر رجب من تلك السنة ( سنة ١٢٨٢ هـ )

---

(١) تاريخ الاستاذ الامام جـ١ ص ٢٣ ٠

كنت اطالع بين الطلبة واقرر لهم معانى شرح الزرقانى فرأيت أمامى شخصا يشبه ان يكون من اولئك الذين يسمونهم بالمجاذيب فلما رفعت راسى اليه قال ما معناه : ما أحلى حلواء مصر البيضاء ، فقلت له : واين الحلوى التى معك ؟ • فقال : سبحان الله من جد وجد » •

ثم انصرف ، فعددت ذلك القول الهاما ساقه الله لى ليحملنى على طلب العلم فى مصر دون طنطا •

**دراسته فى الجامع الأزهر :**

ذهب الأستاذ الامام الى الجامع الأزهر فى شوال سنة ١٢٨٢ هـ ـ فبراير سنة ١٨٦٦ م •

ولم تكن طريقة التعليم فيه تختلف كثيرا عن طريقة التعليم فى الجامع الأحمدى •

تلك الطريقة الجامدة العقيمة التى كانت تفرض على طلاب العلم مختصرات لا تفهم الا بشروح وحواشى وتقارير ، وانما تزحم ذاكرتهم بحشد مشوش من المعلومات النحوية المتشابكة والتدقيقات اللفظية التى ترهق الفكر وتعوقه عن النمو • ولا تنمى فى التلميذ الملاحظة والاستنتاج • وقد وصف هذه الطريقة بعض علماء الفرنجة فقال : « ولئن كانت انماط التعليم والبحث فى الأزهر تختلف عما هو مستعمل فى الغرب الآن اختلافا أساسيا ، فهى لا تختلف فى شيء عن الأنماط التى كانت عندنا قديما » •

ــ أثر العلوم النقلية فى قهر العقول الذى أخذ فى التلاشى عندنا منذ قرون ، لا يزال فى عنفوان سطوته فى الجامعات الاسلامية•

« ليس الغرض من العلم عند أهل الأزهر هو البحث للتحقيق والمقارنة والتمحيص • ولكنه النقل الصحيح لما ترك الأقدمون » •

« والمفروض أن الأجيال متراجعة الى الانحطاط ، والأجيال الحاضرة والمقبلة تتصل بعصر النبى صلى الله عليه وسلم من طريق هابط من أعلى الى أسفل ـ والأئمة المجتهدون بعداء فى عصور ذاهبة فى أعماق الماضى ، لا يستطيع الحاضر ان يدرك غبارها »(١) ٠

ضاق الامام بطريقة التدريس فى الأزهر ٠ ولكن الأقدار التى هيأت له الشيخ درويش خضر عند أزمته من الجامع الأحمدى قد هيأت له فى الأزهر أساتذة من نوع ممتاز استطاعوا أن يجذبوا انتباه الشيخ محمد عبده وان يحببوا اليه أنواعا من العلوم والمعارف التى لم تكن تدرس فى الأزهر ٠ منهم الشيخ حسن الطويل ، وهو رجل عشق الفلسفة يوم أن كانت تعد الفلسفة لونا من ألوان الالحاد ٠

كان الشيخ الطويل يدرس كتب ابن سينا ومنطق ارسطو ، وهى كتب لم تكن مألوفة فى الأزهر ، فتعرف عليها الشيخ محمد عبده عن طريق أستاذه هذا ، وضم بذلك فى تحصيل معرفته الى كتب الأزهر التقليدية هذه الكتب الفلسفية ٠

وكما هيأ له القدر أن يتتلمذ على الشيخ حسن الطويل وهو رجل يعالج الحكمة ٠ تتلمذ على الشيخ محمد البسيونى الأديب وهو شيخ عنى بمعالجة الأسلوب الأدبى ٠ وبالفصاحة والبيان العربى ٠ لا كما عنى صاحب شروح التخليص بذلك ، وانما على نحو آخر هو أن الأدب والبيان ذربة وملكة وذوق واحساس أكثر منها قواعد ومناهج ٠

---

(١) ترجمة الاستاذ الامام للمرحوم فضيلة الاستاذ مصطفى عبد الرازق كتاب الهلال العدد ٩٦ مارس ١٩٥٩ ٠

فلم ينشأ الشيخ محمد عبده باتجـاه واحد وانما تأثر بتصوف الشيخ درويش وفلسفـة الشيخ الطويل وأدب الشيخ البسيونى ومحافظة الشيخ عليش وزملائه من أساتذة الأزهر ٠

وكل هذه المؤثرات تفاعلت فى ذهنـه وساعـدت على تكوين شخصيته وتنمية مواهبه واستعداده الفطرى ٠

ذلك الذى أذكاه ونماه جمال الدين الأفغانى حكيم الاسلام ٠

**تعرفه بالسيد جمال الدين الأفغانى :**

السيد محمد جمـال الدين بن السيد صفتر ، ولد فى بيت شرف وعلم بقرية اسعد أباد من قرى كنر من اعمال كابل ببلاد الأفغان سـنة ١٢٥٤ هـ ـ ١٨٣٨ م ٠ ويتصـل نسـبه بالامام الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنه ٠

وقد نشأ جمال الدين فى بيت علم وفضل وكرامة وسيادة ، واشترك فى أمور الحكم فى بلاد الأفغان ثم رحل الى بلاد الهند وطاف بكثير من البلاد الشرقية والغربية ٠

ثم قدم الى مصر للمرة الثانيـة سنة ١٢٨٨ هـ ـ ١٨٧١ م ٠ فاتصل به الشيخ محمد عبده يحضر دروسـه ويلازم مجالسـه التى كانت مجالس حكمة وعلم ٠

واستطاع السيد الأفغانى أن ينزع الشيخ محمد عبده من التصـوف بمعنى الدروشـة ، والانصراف الى التحنث والرياضة الى معنى للتصـوف جديد هو التصـدى للاصـلاح والتجرد الكامل للدفاع عن الاسـلام ٠ والتسلح الفكرى والفلسفى لرد هجمات المستشرقين والمغرضين ٠

ولم يكن جمال الدين عالماً عاديا من علماء المسلمين . وليس عالماً أفق علمه ومعرفته وطن وبلد من بلاد العالم الاسلامى . ولم تكن معرفته مقصورة على المألوف فى وقته باسم الثقافة الاسلامية ولا كتبا ومقالات فحسب . بل ضم اليها مع ذلك تجارب شخصية كانت وليدة رحلاته ووقوفه على نفسية الشعوب الاسلامية من جانب . وعلى الدخلاء الأجانب من جانب آخر .

وقد قام جمال الدين بنشاطه الكبير فى كل بلد حل به . وكان يهدف الى نهضة البلاد الاسلامية وتقوية كل بلد فى ذاته وتقوية الروابط بين البلاد الاسلامية بعد ذلك لكى يتيسر لها التخلص من سيطرة الأجنبى . وقد كان يقول بهذا الصدد : « ان الدول الغربية تنتحل الأعذار فى هجومها وعدوانها على البلاد الاسلامية واذلالها واكراهها بقولها ان الممالك الاسلامية هذه انما هى من الانحطاط والهوان بحيث لا تستطيع ان تكون قوامة على شئون نفسها بنفسها ، فى حين أن تلك الدول عينها لا تكف عن التذرع بألوف الذرائع ، حتى بالحرب والحديد والنار للقضاء على كل حركة من حركات النهضة والاصلاح فى البلاد الاسلامية . ومن ثم يجب على العالم الاسلامى أن يتحد فى حلف دفاعى كبير - ليستطيع بذلك أن يصون نفسه من الفناء .

وللوصول الى هذه الغاية انما يجب عليه أن يأخذ بأسباب التقدم فى الغرب وأن يكتنه أسرار تفوقه وقدرته(١) .

ومن الانصاف أن نذكر أن جمال الدين لم يكن يعنى بذلك احلال قومية الدين محل قومية القطر ، وانما كان يرغب فى أن تتحد جميع الأقطار الاسلامية . مع استقلال كل منهما عن الآخر الى هدف

---

(١) عثمان امين ـ رائد الفكر المصرى ص ٢٣ .

واحد هو التحرر السياسى ، ومن أجل النهوض بالوطن المصرى او التركى أو الفارسى كان يعمل على نهضة الاسلام الذى يتغلغل فى الحياة السياسية والاجتماعية للأقطار الاسلامية المختلفة « على أن عبء النهوض بمهمة الاصلاح الدينى سيقع فى صميمه على عاتق تلميذه الغيور محمد عبده الذى سيكون لوثر الشرق حقا »(١)٠

والنظرة السطحية تجعل بعض الناس يقول ان جمال الدين كان ثائرا سياسيا ٠ بينما كان تلميذه الشيخ محمد عبده مصلحا اجتماعيا ٠ واذا امعنا النظر وجدنا ان الدين كان أساسا أوليا عندهما ٠ وفى الوقت نفسه كان هدفا أخيرا وغاية مطلوبة ٠

فحركة جمال الدين فى مظهرها حركة سياسة ، وفى جوهرها حركة اسلامية ٠ يتحدث عن « وحدة المسلمين »مرة وعن حكومات اسلامية مستقلة يرتبط بعضها ببعض فى شبه اتحاد مرة أخرى٠ ومع ذلك فالشىء الذى لم يتغير عنده هو الأخذ بتعاليم الاسلام ٠ سواء فى قيام الحكومة الواحدة او فى ارتباط الحكومات المختلفة ٠

يتحدث عن الأخذ بما عند الغرب من حضارة ومدنية وعلم ، ولكن على أساس أن يكون ذلك فى تلاؤم مع الاسلام ، أو لأن الاسلام يدعو اليه ٠

يتحدث عن مقاومة الاستعمار الغربى ـ وبالأخص مقاومة الاستعمار الانجليزى ـ ولكن فى حديثه يتكىء على الاسلام ، ويطلب تحقيق تعاليمه ٠

ينتقد سلطان الآستانة ، وشاه ايران ، وخديو مصر ، لأن

---

(١) محمد صبرى : الامبراطورية المصرية فى عهد اسماعيل ص ٢٠٠ ( فى الهامش ) ٠

أى واحد من هؤلاء لا يرغب فى اعطـاء الشعب حريتـه فى الرأى والقول والمشورة ٠

لا يرغب فى اعطاء الشعب دستورا يحدد العلاقة بين الحـاكم والمحكومين ، ونقده لمصلحة الشعب ، فتبدو عليـه مسحة العمل السـياسى ٠

ولكن هذا النقد أسس على الاسلام وعلى مبادئه التى تصون هذه المقدسات : حرية الشعب ، وسيادته ، ووضع الحـاكم منه وضع المنفذ لمشيئته ٠ لا وضـع السيد صاحب السـيادة المطلقة عليـه ٠

يدعو الى الترابط الوثيق بين المسـلمين وغير المسـلمين فى الأوطان الاسلامية والى عدم التمييز بين مسلم وغير مسلم ، فتبدو دعوته هذه فى مظهر « الشرقية » أو « الوطنية » تبدو سياسية ، ويميل لذلك بعض المؤرخين لجمال الدين ان يسمى حركته هـذه بالحركة الشرقيـة ٠ ولكنه هو فى دعوته هذه مسلم ، وعمله عمل اسلامى ٠ لأنه يستند الى الاسلام فى تاريخ الفتح ، وفى تعاليمه فى الصـلة بين المسـلم وغيره سـواء فى مكان واحد ، أو مكانين مختلفـين ٠

يدعو الى نبذ الخصـومة بين الشيعـة والسـنة ليؤلف بين سلطتين فى رقعة العالم الاسلامى اذ ذاك ، بين سلطة ايران وسلطة القسطنطينية ٠ بعد ذهاب دولة الهند الاسلاميـة ، فيبدو لذلك سياسيا ، او وسيطا فى مجال السياسة ، ولكنه هو يدعو بدعوة الاسلام فى ذلك ٠

ـ يحارب المذهب الطبيعى ( الدهرى ) الذى انتشر فى الهند سنة ٨٧٩ م والذى قـال فيه : انه سيفرق المسلمين هنـاك الى

طائفتين : طائفة القديم وطائفة الجديد . طائفة أصحاب الطاعة والولاء للحاكم المستعمر والطائفة الأخرى المنازعة المقاومة لنفوذه وولايته ، كما سيفرق بين مسلمي الهند من جانب ، والخلافة العثمانيـة من جانب آخر .

فيظهر مرة اخرى فى دعوته هذه بمظهر الرجل الذى يريد أن يحافظ على وحدة الامبراطورية الاسلامية الجغرافية ولكنه فى الرد يقاوم الالحـاد الدينى بصفة عامة ويوضح ضرورة الدين للمجتمع الانسانى ، أى دين ، ثم يذكر مزايا الاسـلام التى تكفل للانسان متعة فى هذه الحياة أرفع بكثير من تلك المتعة التى يهيئها له اعتناق المذهب الطبيعى ( المـادى أو الدهرى ) فهو فى هـذا مسلم وعمله اسلامى كذلك(١) .

وقد كان جمال الدين قوة مشعة مؤثرة ، لا ينزل بلدا الا ترك فيه أثرا . قال عنه الفيلسوف ( رنان ) :

« كنت أتحدث اليه فكان يخيل الى من حرية فكره ونبالة طبعه واخلاص قلبه ، أننى أرى وجها لوجه أحد معارف القدماء ، وأنى أشهد ابن سـينا أو ابن رشـد أو أحدا من أولئك الأحرار العظـام الذين مثلوا خـلال خمسـة قرون تقاليـد الفـكر الانسـانى »(٢) .

وقد مات جمال الدين فى سنة ١٨٩٧ م ، بعد صراع عنيف مع الاستعمار الغربى استمر قرابة ثلاثين عاما ، ولكن ما ان توفى عليه رحمة الله حتى انتشر كفاحه واتجاهه فى التفكير فى جميع انحـاء العالم الاسلامى ، وخاصـة تلك الأنحاء التى تسلط فيها الأجنبى

---

(١) مجموعة العروة الوثقى ص ٤٧١ ـ ٤٧٧ .
(٢) عثمان امين ـ رائد الفكر المصرى ص ٢٢ .

وعبث بمقدسات المسلمين ، وبكراماتهم واقتصادياتهم ، ومواردهم في الثروة الطبيعية ·

مات جمال الدين في استانبول وظهر أثره في مصر ، في محمد عبده ومدرسته ( السلفية ) وفي الجزائر في جمعية علماء الجزائر ( لمؤسسها المرحوم عبد الحميد بن باديس المتوفى سنة ١٩٤٠ ) وفي اندونيسيا في حركة تجديد « المنار » ، وفي الهند في جماعة أهل الحديث ، وفي ندرة العلماء ( لمؤسسها محمد شبل النعماني المتوفى سنة ١٩٤١ ) وفي أزهر الهند ، في مدرسة دار العلوم في « ديوبند » التي نقلت بعد التقسيم الى « اكورى » بشاور في الباكستان ·

وفي كل هذه الحركات تجد هدفا واحدا : هو تحرير الوطن الاسلامي من الاستعمار الغربي ومحاربة الاتجاه الاستعماري في التفكير ، ثم مع هذا الهدف الوسائل لتحقيقه ·

اما تحرير الوطن الاسلامي من الاستعمار الغربي فيعتمد في كل هذه الحركات على استرجاع قوة المسلمين في تكتلهم وتآخيهم ، واسترجاع هذه القوة يعتمد بالتالي على طرح ما طرأ على الاسلام من عادات في السلوك · وأفهام سقيمة في تخريج نصوصه وشرح تعاليمه · ثم الرجوع الى موقف المسلمين الأول من القرآن في استلهامهم التوجيه منه مباشرة لطبع تصرفاتهم بالطابع الاسلامي في من جهة ، ولوصولهم الى الغاية التي ينشدونها في أمان وسرعة من جهة أخرى ·

واما محاربة الاتجاه الاستعماري في التفكير · فبالوقوف في وجه الشبه التي تثار والتخريجات المغرضة لنصوص مصدري الاسلام : القرآن والسنة الصحيحة ، وبيان زيفها بالأسلوب العلمي والتاريخي · وتصحب ذلك محاولة تقريب مبادىء الاسلام من

العقلية الاسلامية الحديثة . وتوضيح أن هذه المبادىء هي لتوجيه الانسان توجيها سليما سـواء في عصر الابل ، أو في عصر الحضارة الاسلامية القديمة ، الهندية والفارسية والاغريقية أو في عصر البخار والآلة ، أو في عصر الذرة والانسان الآلي .

ولهذا الشبه في الهـدف والوسيلة بين هـذه الحركات التي ترجمت كفاح جمال الدين الأفغاني من جديد ، نجد ما ينسب الى الشيخ محمد عبده في مصر من حركة اصلاحية ودعوة الى تحديد المفاهيم الاسلامية تحت تأثير الحيـاة الحديثة وما فيها من حضارات لم تكن مألوفة ، وطاقات لسيطرة الانسـان على الحيـاة لم يكن للمسلمين من قبل الف بها ، هو ما نجده كذلك عند زعماء تلك الحركات « التحريرية » والاختلاف بينها في سعة الحركة الاصلاحية أو ضيق نطاقها أو في قوة الدعوة أو تواضعها .

وما ينسب للشـيخ محمد عبده من منهـاج تربوى لتنشئة المسلم الصغير ، وتقويم العامي وتخريج الدعاة والباحثين وتثقيف المرأة ـ وما نجـده عنده من منهـاج للتعليم « الوطني » نجـده أساسا من أسس تلك الحركات ، مع ما قد يكون من فارق في النوع أو الكميـة :

التعبئة العامة للشعوب الاسـلامية على أسـاس من دينها . لا على أساس من مذاهب الطوائف فيها . ومن أجل هذا الدين ، هي مجمل هذه الحركات .

الدين لسيادة المؤمنين به ، وعلى المؤمنين أن يحـافظوا عليه ويتمسكوا به ويدافعوا عنه لتبقى لهم السيادة . هـذا هو شـعار تلك الحركات(١) .

(١) الدكتور محمد البهي ، الفكر الاسلامي الحديث ص ٨١ .

وقد كان تأثير جمال الدين الأفغاني في مصر أوضح كثيرا من تأثيره في غيرها . اقام في مصر ثماني سنين كانت كلهـا خيرا وبركة لمصر والمصريين : فهو من أوائل العاملين على تطور الروح الوطني في هـذه البـلاد . وقد نسب اليـه بحق الدور التاريخي « لأبي القومية » ، استطاع الرجل بخطبه الملتهبة أن ينفث في النفوس نزوعا الى الحرية ورغبة في العدالة . خطب مرة في الاسكندريـة قبل خلع الخديوي اسماعيل فقال :

« أنت أيها الفـلاح المسـكين تشق قلب الأرض لتستنبت ما تسد به الرمق وتقوم بأود العيال . فلماذا لا تشق قلب ظالمك ؟ لماذا لا تشق قلب الذين يأكلون ثمرة أتعابك ؟ »(١) بهذه الجرأة كان جمال الدين يخطب ويتكلم ، وكان لكلامه أثر عميق في ايقاظ الناس ، وتنبيه المحكومين الى حقوقهم قبل الحاكمين ، فاتجه الناس الى نقد تصرفات أصحاب السـلطان ، وأخـذت تتضـاءل عقيدة سيادة الحاكم وحقه المطلق في التصرف في شئون الرعية ، وليس هناك شك في أن لجمال الدين يدا في الحركة العرابيـة . ومن المحقق أن المبدأ الوطني الذي سيطر على تلك الحركة من غرسـه كما قال شكيب أرسلان : « وان كان هب على ذلك الزرع من سموم الجهـل ونقصـان التربية السياسـية ولفحة الدسـائس الأجنبية ، ما صوح نضرته . شأن تلك الدسائس على كل نهضـة في الشرق ، أو حركة اصـلاح تشفق من ورائها الدول أن تتمزق حجب الغباوة التي هي أصدق عوامل الاستعمار »(٢) .

---

(١) أحمد شفيق باشا ـ حوليات مصر السياسية ص ٢٢ .

(٢) تعليقات شكيب ارسلان على كتاب « حاضر العالم الاسلامي » . تاليف لو ثروب ستودارد ، الترجمة العربية . القاهرة سنة ١٩٣٣ المجلد الثاني ص ٢٨٩ ـ ٣٠٣ .

ومن أحسن الآثار التى تركها لمصر تلميذه النابه الوفى الشيخ محمد عبده . فلما قضى على جمال الدين بالابعاد عن مصر بأمر توفيق باشا . قال يوم وداعه لبعض خاصته : « قد تركت لكم الشيخ محمد عبده ، وكفى به لمصر عالما » .

**تأثره بالسيد جمال الدين :**

سمع الشيخ محمد عبده بقدوم جمال الدين الى مصر سنة ١٨٨٧ م فذهب اليه . ولازم مجالسه .

« وكان الامام يومئذ فتى متأثرة كل عواطف قلبه الفتى بمنازع التصوف ورياضته ومواجده . وكان يتلقى علوم الأزهر على أنماطها المعروفة متشوقا فى نفس الوقت الى علوم أخرى حدثه عنها الشيخ درويش خضر ، وكان السيد الأفغانى وحده قادرا على تخليص محمد عبده من خموله الصوفى ودفعه الى الحياة العاملة ودراسة العلوم المختلفة كالفلسفة والرياضيات والكلام والأخلاق والسياسة وغيرها مما لم يكن له مكان فى مناهج الأزهر »(١) .

وبعد سنتين من صحبة الشيخ محمد عبده للسيد جمال الدين ظهر لنا ذلك الشاب المتصوف الذى كان ينطلق فى القول على وجل ، اذا سأله العامة عن شىء من أمر دينهم فى تلك المجامع التى كان يقوده اليها خال أبيه الشيخ درويش ، مؤلفا جريئا يكتب فى رسالة الواردات سنة ١٢٩٠ هـ ــ ١٨٧٣ م ، من المذاهب الفلسفية والصوفية ما قد تكون بعض أوساطنا العلمية لم تستعد بعد لسماعه ، وقد مضى خمسون عاما(٢) . هذه الرسالة هى أول ما وصل الينا من آثار أستاذنا لا تخلو فى أسلوبها من نفحة الأدب

---

(١) السيد رشيد رضا ــ تاريخ الامام جـ١ ص ٢٦ .

(٢) مصطفى عبد الرازق ــ الاستاذ الامام ص ٢ .

العتيق ، أدب السجع والتكلف ، الذى كان عالقا بالمؤلف لقرب عهده به ، ولكنهـا فى تأليفها ذات نظام حسن ، وطريقة فى سوق البراهين معقولة ، هى رسـالة صغيرة فى العقائد على منزع يغلب تصـوفه ما فيه من فلسفة(١) .

وفى سنة ( ١٢٩٢ هـ ـ ١٨٧٥ م ) ألف الشيخ محمد عبده حاشيته على « شرح الجلال الدوانى للعقائد العضدية » .

وهذه الحاشـية ، ترينـا الشيخ محمد عبده فى السادسـة والعشرين من عمره محيطا بمذاهب المتكلمين والفلاسفة والمتصـوفة احاطة فهم ونقد ، يكاد يجهر بآرائه فى تلك الموضـوعات الخطيرة ، ويكاد يكظم صوته الفتى القوى شبح عصـا الشيخ عليش ، قائما على رأس مجاور ، بينه وبين التقدم لامتحان العالمية سـنتان ، وفى هذه الحاشية توضيح للمذاهب فى الالهيات والنبوات ومقارنة بينها ، ونقد متين .

وكان من أثر جمال الدين اتجـاه المجاور الشيخ محمد عبده الى الاصلاح ، فشرع يكتب فى جريدة « الأهرام » فصـولا متتابعة ، سامية المنزع مشتملة على أصـول الدعوة الاصلاحية التى صرف حياته فى سبيلها .

وقد استرعت تلك الفصول نظر الناس الى ذلك الفتى الناهض الى السابعة والعشرين من عمره نهضـة المصلحين الكبـار عاقـلا جريئا . وصـل صـدى تلك المقالات الى أسـماع الجامدين من الشيوخ ، والتقى فيها بحديث ملازمة كاتبها للسيد جمال الدين واشتغاله بالفلسفة وترجيحه لبعض مذاهب المعتزلة . ونهيه عن

---

(١) نفس المرجـع .

التقليد ، ودعوته الى الاشتغال بالعلوم الحديثة وتحبيذه لعلوم الفرنجة واطالة شعره أيضا .

دخل الشيخ محمد عبده مجلس الامتحان سنة ( ١٢٩٤ هـ ـ ١٨٧٧ م ) وكل ذلك ينتظره فى صدور أعضائه ما عدا الرجل المنصف الشيخ محمد المهدى العباسي شيخ الأزهر لذلك العهد ، ورئيس لجنة الامتحان .

ولولا قوة الشيخ محمد عبده فى علمه وفى نفسه قوة باهرة ، وترفع الشيخ المهدى عن الظلم لقضى مجلس الامتحان المؤلف من كبار الشيوخ ، بأن ذلك المجاور المضطهد ، لا يستحق نجاحا .

نال الشيخ محمد عبده شهادة العالمية من الدرجة الثانية ، وهو ابن ثمان وعشرين سنة ، فشعر لأول مرة بأنه انتصر على خصومه الجامدين أعداء الاصلاح برغم جاههم وكثرتهم ، وزاده ذلك نشاطا فجمع كل ما فى نفسه من قوة الشباب وقوة العلم وقوة الرغبة فى الاصلاح ، ووجه جميع ذلك الى العمل فى الأزهر ، لاعتقاده أن صلاح الأزهر صلاح للبلاد ، وأهلها وللمسلمين فى أقطار الأرض .

اخذ يدرس كتب المنطق والكلام المشوب بالفلسفة فى الجامع الأزهر ، ويدرس فى داره لبعض المجاورين كتاب تهذيب الأخلاق لابن مسكويه . وكتاب التحفة الأدبية فى تاريخ تمدن الممالك الأوروبية ، تأليف الوزير فرانسوا جيزو ، وتعريب الخواجة نعمة الله خورى .

وفى أواخر سنة ( ١٢٩٥ هـ ـ ١٨٧٨ م ) عين مدرسا للتاريخ فى مدرسة دار العلوم ومدرسا للعلوم العربية فى مدرسة الادارة والألسن الخديوية . فكان يدرس فيهما مع الاستمرار على التدريس

فى الجامع الأزهر . « بدأ دروسه فى دار العلوم بقراءة مقدمة ابن خلدون بأنها مقدمة للتاريخ وانما كان غرضه بث أفكاره السياسية والاجتماعية فى أذهان التلاميذ ، فكان يطبق ما فيها من الكلام على نهوض الدول وسقوطها وشئون العمران وأصوله على امته ويبين أسباب ضعفها ، والوسائل التى تذهب به وتعيد اليها ما فقدت من عزها ومجدها . وكان يكلف التلاميذ كتابة المقالات والفصول فى ذلك ، فكان كل واحد يشعر بروح جديد يدب فى هيكله ، ويرى نفسه مخلوقا لخدمة بلاده واعلاء شأن امته لأن هذه الأفكار لم تكن معهودة فى هذه البلاد ، فلا تذكر فى المدارس ولا فى المجالس ؛ والمقرر فى أذهان جميع الناس وقلوبهم أنهم عبيد للحكام لا حقوق لهم عليهم ، وقد كتب الشيخ محمد عبده فى ذلك العهد كتابا حافلا فى علم الاجتماع وفلسفة التاريخ انتقد فيه بعض ما قاله ابن خلدون ، واستدرك عليه ما نسخته طبيعة الاجتماع فى هذا العصر من أحكام العمران فى العصور الغابرة »(١) .

« وفى سنة ( ١٢٩٦ هـ ـ ١٨٧٩ م ) نفى من مصر بمساعى الانجليز السيد جمال الدين الأفغانى الذى كان عمله شجى فى حلق ممثل انجلترا بمقدار ما كان تجديده لدروس الفلسفيات غيظا للجامدين من أهل الأزهر »(٢) .

وأقيل الشيخ محمد عبده من مدرسة دار العلوم ومدرسة الألسن وامر بأن يقيم فى قريته ( محلة نصر ) وذلك فى الرابع والعشرين من أغسطس عام ١٨٧٩ م أواسط رمضان ١٢٩٦ هـ .

---

(١) تاريخ الاستاذ الامام جـ١ ص ١٣٦ .
(٢) مصطفى عبد الرازق : الاستاذ الامام محمد عبده .

## عظمـة الامـام :

الرجل العظيم يكون عظيمـا فى كل ما يقوم به . والمصلح والمربى لا ينتظر قدوم الناس اليه حتى يرشـدهم ، بل هو يسعى الى اصلاحهم كأن له مصلحة فى ذلك .

وقد كان الامام مربيا فى دار العلوم ، ومحررا للعقول والأفكار وحين نفى الى بلده لم يهن ولم يضعف . حتى اذا عفا عنه الخديو توفيق واسند اليه رياض باشا تحرير الوقائع فى سنة ١٢٩٧ هـ ـ ١٨٨٠ م . انطلق للاصلاح بكل ما تملك يداه .

وقد كانت الوقائع المصرية جريدة رسمية أسسها محمد على سنة ١٢٨٨ هـ وكانت مقصـورة على الأوامر الرسمية والدعايـة الحكومية حتى تولى الامام تحريرها . فنهض بها نهضـة عظيمـة واسـتعان على تحريرها بنخبـة من المحررين . من خيرة تلاميذ جمال الدين الأفغاني أمثال سعد زغلول ، والهلباوى ، والشيخ سـيد وفـا . ثم ماذا كان من شأنه ؟ كان ما لم يخطر على قلب بشر ، وهو ان رئيس التحرير للجريدة الرسمية صار مهيمنا على الحكومة والأمة ، ينتقد الأعمال والأقوال وينتقل بالناس من حال الى حـال .

وضع لائحـة لقلم المطبوعات أو للجريدة الرسمية أجازهـا وانفذها رياض باشا ، فكان من أحكامها أن جميع ادارات الحـكومة ومصالحها فى العاصمة وغيرها مكلفة ان تكتب الى ادارة الجريدة مخبرة بما عملت فأتمت وما شرعت فيه فلم تتمه ، وكذلك المحاكم ترسل اليها نتائج احكامها ، وان لادارة الجريدة الحق فى انتقاد كل ما تراه منتقدا من الأعمال ومن المكتوبات الرسمية . وأن لها حق المراقبة على الجرائد الوطنيـة والأجنبيـة التى تصـدر فى القطر

المصرى ، وأن تبحث عن حقيقة ما تقوله فى رجال الحكومة وأعمالها ، وعلى الحكومة مساعدتها فى ذلك بمعنى أنه اذا نشر فى بعض الجرائد ما ترتاب ادارة المطبوعات فيه فان لها ان تسأل المصلحة او الادارة التى يسند اليها ذلك عن الحقيقة بواسطة نظارة الداخلية ان لم يكن ما نشر مسندا الى النظارة . والا سألتها هى مباشرة فان كان حقا ما نشر فى الجريدة وجب على الحكومة مؤاخذة من نسب اليه الذنب ، وذكر ذلك فى الجريدة الرسمية وان كان كذبا طولب مدير الجريدة باثباته والا أنذر – وكان من احكام قانون المطبوعات أنه اذا تكرر انذار جريدة ثلاث مرات يمنع اصدارها البتة أو الى الأجل الذى تراه الادارة . وكان من حق هذه الادارة أن تفصل فى كل نزاع يقع بين جريدتين عربيتين فصلا لا تجوز المناقشة فيه ، وكان من حق رئيس تحرير الجريدة الرسمية ان يجعل فيها قسما غير رسمى ينشر فيه لنفسه ولغيره ما يراه نافعا من المقالات الأدبية والاجتماعية والاقتصادية وما أشبه ذلك .

فكم كان عجيبا أن ترى صاحب عمامة ازهرية يدخل فى حكومة مطلقة بعيدة فى أعمالها عن رجال العلم والدين ، فيشرف من نافذة غرفة تحرير الجريدة الرسمية على نظارات الحكومة ومجالسها ومحاكمها ومصالحها فيصلح لعمالها ما يكتبون ، ويرشدهم الى اصلاح العمل فيما يعملون ثم يشرف من نافذة أخرى لها على الأمة فيقوم من أخلاقها ويصلح ما فسد من عاداتها ، بالوعظ الصحيح والارشاد القويم ، ويطل من نافذة ثالثة فيها على الجرائد العربية فيعلمها حسن التحرير ويربيها على الصدق فى القول ويجعل للصادق منها سلطانا نصيرا ، وتأثيرا مأثورا(١) .

---

(١) تاريخ الاستاذ الامام جـ١ ص ١٢٨ – ١٢٩ .

ثم هبت أعاصير الثورة العرابيـة والشيخ محمد عبده رئيس لتحرير الجريدة الرسمية له يد عاملة فى حرية الأفكار ٠ ولم يكن الامام فى بداية الأمر مشايعـا لعرابى : فقد كان يعتبره ناطقـا بافكار عسكرية بحتة ٠ وكان محمد عبده يعلن انه يفضـل قيام نظام للحكم مصحوب باصلاح داخلى تقدمي وسيلته الرئيسية ــ فى نظره ــ هى نشر الثقافة وبث التربية الأخلاقية والسياسية الصحيحة التى تناسب قيام دستور حر ٠ وكان يقول فى هذا الصـدد لعرابى نفسه : « ان الأمة لو كانت مستعدة لأن تشارك الحكومة فى ادارة شئونها لما كان لطلب ذلك بالقوة العسكرية معنى ٠ فما يطلبه رؤسـاء الجند غير مشروع : لأنه لو تحقق ونالت البـلاد مجلس شورى لما كان ذلك تصـويرا لاستعداد الأمة ولا تحقيقا لمطالبها ، فلا يلبث أن يتهدم ويزول ، وأخشى أن يجر هذا على البلاد احتلالا أجنبيا »(١) ٠ ولكن ازاء تدفق الحوادث لم يستطع المصرى الغيور الا ان يسارع بشد أزر العرابيين الثائرين حتى غدا أحد الرؤوس المديرة لشئون الحكومة الوطنية ٠

وبعد اخفـاق عرابى ــ اتهم محمد عبده بالتآمر مع رجـال الثورة وحكم عليه بالسجن ، ثم بالنفى ثلاث سنوات فاختار سوريا ورحل اليها سنة ١٨٨٣ ٠ واقام نحو سنة ثم سافر الى أوربا على موعد بينه وبين استـاذه جمال الدين ٠ فاقام فيها عشرة اشـهر معظمها فى باريس وهناك أصدرا معا جريدة « العروة الوثقى » وكان هدف الجريدة الدعوة الى الجامعة الاسـلامية والذود عن الشرقيين ومكافحة التسلط الأجنبى والطغيـان الداخلى وتخليص مصر من الاحتلال الانجليزى بوجه خاص ٠ وكانت ( العروة ) أول صحيفة

---

(١) تاريخ الاستاذ الامام جـ١ ص ١٢٧ ــ ١٧٥ ــ ٢١٧ ٠

عربية ظهرت فى أوروبا · نهضت بمثل هذه المهمة الشاقة وذادت عنها فى حماسة وبلاغة(١) ·

وفى بداية صيف ١٨٨٤ م رحل محمد عبده الى انجلترا مندوبا عن « العروة الوثقى » فى لندن ، وقد استقبل الشيخ المصرى صديقه « ولفرد بلنت » الكاتب الانجليزى مؤلف كتاب « التاريخ السرى للاحتلال الانجليزى لمصر » وقد أمد « بلنت » صديقه المصرى بمعونته القيمة ابلاغ صـوته عن طريق الصحافة الى الراى العام الانجليزى، ودعوته الى الاهتمام بالقضية المصرية · كذلك يسر للشيخ المصرى سبيل مقـابلات مع بعض رجـال السياسـة وأعضـاء البرلـان الانجليزى ومن أولئك « راندولف تشرشل » والد رئيس الوزارة الانجليزية السابق(٢) ·

وبعد اقامة قصيرة فى لندن عـاد محمد عبده الى باريس ، ليستأنف عمله فى المجلة ، ولكن السياسـة الانجليزية حالت دون وصول « العروة الوثقى » الى البلاد الاسلامية فاحتجبت المجلة · ومع هذا فقد كان لها فى العـالم الاسلامى نفوذ عظيم فى نمو القومية والجامعة الاسلامية معا ·

« وقد غادر الشيخ محمـد عبده باريس وعـاد الى بيروت سنة ١٨٨٥ مركز الثقافة العربيـة اذ ذاك · وقد عهد اليه التدريس فى المدرسة السلطانية لاحيـاء اللغـة والدين ، وكان يشتغل مع التدريس بالتاليف والكتابة وقد الف « رسالة التوحيد » هناك ، ونقل الى العربيـة رسالة « الرد على الدهرين » ، التى كتبهـا

---

(١) رشيد رضا : تاريخ الامام ـ جا ص ٢٩٢ ·
(٢) عثمان امين : محمد عبده ـ ص ٨٢ ـ ٩٢ ·

السيد جمال الدين باللغة الفارسية . وشرح كتاب نهج البلاغة ومقامات بديع الزمان الهمذاني »(١) .

« ولم تقتصر جهوده على التعليم والتأليف . فقد اسس بمعونة اشخاص آخرين جمعية دينية سرية من اهدافها التقريب بين الأديان الثلاثة الكبرى : اليهودية والمسيحية والاسلامية ، وكان القس « اسحق تيلر » راعى الكنيسة الانجليزية احد الأعضاء العاملين فى تلك الجمعية ، وهو الذى حاول ــ فيما يبدو ــ نشر أفكارها فى انجلترا ، ويقال انه قد جرت بين هذا القس وبين الشيخ محمد عبده مراسلات كان من آثارها أن تحدث القس عن الاسلام حديثا وديا ، ونشر بهذا المعنى مقالات فى صحف لندن ، ولكن يبدو أن نشاط الشيخ محمد عبده فى هذه الجمعية قد فسر ــ فى تركيا ــ تفسيرا سياسيا يناقض مصالح الخلافة العثمانية . مما حدا بالسلطان عبد الحميد الى السعى لدى الحكومة الانجليزية لاصدار العفو عن الشيخ محمد عبده ودعوته الى مغادرة سوريا فى أقرب وقت ممكن »(٢) .

وعاد الشيخ محمد عبده ودعوته الى مصر سنة ١٨٨٨ . وكانت له رغبة فى الاشتغال بالتدريس والتربية ــ رغم أن وظيفة التدريس محدودة الترقية ، فقد كان الامام يفضلها على القضاء ، ولكن الخديو توفيق لم يرض بتعيينه معلما خوفا من أن يربى له تلاميذ على أفكاره ومنازعه ، فعين قاضيا بمحكمة بنها الأهلية ، ومنها انتقل الى محكمة الزقازيق فمحكمة عابدين . وفى سنة ( ١٣٠٨ هـ ــ ١٨٩٠ م ) عين مستشارا بمحكمة الاستئناف الأهلية.

---

(١) مصطفى عبد الرازق : الاستاذ الامام ، كتاب الهلال : دروس من القرآن للشيخ محمد عبده .

(٢) رشيد رضا : ــ جا ص ٨٢٢ .

وعرف الشيخ محمد عبده فى القضـاء بالاستقلال فى الفكر والتحرر من الرسوم والشكليات ، وكان يتوخى فى أحكامه تربيـة الجمهور وايقاظ ضميره ، واصلاح ذات البين بين الأسر · وفى سنة١٣١٢ هـ جعلته الحكومة المصرية عضـوا فى مجلس ادارة الأزهر ، وهو اول مجلس أسس بسعيه عند الخديو عبـاس ليكون رسول الاصلاح ·

ولست بقين من المحرم سنة ١٣١٧هـ ـ ٣ يونيو سنة ١٨٩٩م صدر الأمر بتعيينه مفتيا للديار المصرية ·

فأضفى على المنصب سناء وبهاء ، ولم يقتصر على الافتـاء فيما كان يحال اليه من مسائل بل وسع اختصاصه وزاد من نفوذ المنصب الكبير ·

وامتازت فتاوى الأستاذ الامام بالميل الى التسامح ، واستقلال الراى والبعد عن التقليد والملاءمة بين روح الاسلام ومطالب المدنية الحديثة · وأشهر الفتـاوى التى أصـدرها ثلاث : الأولى تبيح للمسلمين ادخار أموالهم ، وأخذ الفوائد والأرباح عليها · والثانيـة تبيح لهم أن يأكلوا من ذبائح غير المسلمين عند الضرورة ، والثالثة تبيح لهم أن يتزينوا بزى غير زيهم التقليدى ، تيسيرا لهم فى أمور معاشهم · وقد سببت هذه الفتاوى كثيرا من المجادلات ، وأثارت سخط الشيوخ المتزمتين · وجلبت على المفتى ضروبا من القدح والتشهير لم تكن الدوافع اليها دينية خالصة فى كثير من الأحيان ·

وفى ٢٥ يونيو سنة ١٨٩٩ م عين محمد عبده عضـوا فى مجلس شورى القوانين فسار على سياسـة ترمى الى تربية الرأى العـام فى مصر وتعويد الأمة دقة النقد والتمحيص والسمو عن الأشخاص والأغراض الخاصـة ، واستهداف المصالح القومية الكبرى ·

وقد عمل الشيخ محمد عبده عن طريق « الجمعيـــة الخيرية الاسلامية » التى كان من أوائل مؤسسيها على تحقيق اصلاح أخلاقى اجتماعى ، يذكى فى الناس روح الاعتماد على النفس والتعاون بين الأفراد واشـعار قلوب الأغنيـاء عاطفـة الرحمـــة والاحســان الى الفقراء ٠

« وكان صوته اول صوت ارتفع فى مصر الحديثة مناديا بنشر مبادئ العدالة الاجتماعية حتى يستتب السلام بين الطبقات ٠

والى الأستاذ الامام يرجع الفضل فى انشاء مدرسة القضــاء الشرعى والعمل على اصلاح المحــاكم الشرعية كما اسس « جمعية احياء الكتب العربية القديمة »(١) ٠

وفى سنة ١٩٠٥ م اخذ الامام يدعو الى انشاء جامعة مصرية الى جانب الجامعة الأزهرية ٠ ولم يقنع بالتفكير ، بل خرج بالمشروع الى التنفيذ فاقنع « أحمد المنشاوى باشا » بأن يوقف لبناء الجامعة قطعة ارض فى احدى ضــواحى القاهرة ٠ ولكن بموت المنشاوى باشا وقف المشروع ٠

وفى ١١ يوليو سنة ١٩٠٥ م توفى الشيخ محمد عبده ، وهو فى أوج نشاطه ، وكانت وفاته حدادا عاما للبلاد العربية والاسلامية جميعــا ٠

---

(١) دائرة معارف الشعب ص ٤٠ ٠

الباب الثانى

# منهج الشيخ محمد عبده في تفسير القرآن الكريم

## مقارنا بمناهج المفسرين السابقين

# منهج الشيخ محمد عبده
# فى تفسير القرآن الكريم

## مقارنا بمناهج المفسرين السابقين

يقوم منهج الامام محمد عبده فى تفسير القرآن الكريم على تسعة أسس هى :

**الأساس الأول :**

اعتبار السورة وحدة متناسقة ·

**الأساس الثانى :**

عموم القرآن وشموله ·

**الأساس الثالث :**

القرآن هو المصدر الأول للتشريع ·

**الأساس الرابع :**

محاربة التقليد ·

**الأســاس الخامس :**

اعمال النظر والفكر واستخدام المنهج العلمى ٠

**الأســاس السادس :**

تحكيم العقل والاعتماد عليه فى فهم القرآن ٠

**الأســاس الســابع :**

ترك الاطناب فى الكلام عما ورد فى القرآن بصورة مبهمة ٠

**الأســاس الثــامن :**

التحفظ فى الأخذ بما سمى بالتفسير المــأثور والتحذير من الاسرائيليــات ٠

**الأســاس التاســع :**

اهتمامه بتنظيم الحيــاة الاجتماعيــة على اســاس من هدى القــرآن ٠

## الأســاس الأول

# اعتبار الســورة وحدة متناســقة

١ ــ كانت فكرة التناسق بين الآيات المتجاورة تسيطر عليه فى تفسيره • وفى ترجيح بعض آراء سابقيه على بعض •

بل ربما روى آراء السابقين فى الموضــوع ثم رفضها جميعها لأنها لا تحقق التناسق بين الآيات •

فنراه يستهل تفسيره لسورة الفجر قائلا : « كثر(١) خــلاف المفسرين والرواة فى معنى كل من الفجر وليــال عشر ، الى آخر ما أقسم به ، وقد يفسر الواحد منهم الفجر بمعنى ، ثم يأتى فى الليالى العشر بما لا يلائمه وغــالب ذلك يجرى على خــلاف ما عودنــا الله فى نسق كتابه الكريم • وقد جرت سنة الكتــاب بأنه اذا أريد تعيين يوم او وقت ذكره بعينــه كيوم القيامة فى (( **لا اقسم بيوم القيامة** )) ، واليوم الموعود فى سورة (( **والسماء ذات البروج** )) وكليلة القدر فى سورتها ، فاذا أطلق الزمن ولم يقيد كان المراد ما يعمه معنى الاسم كمــا سبق فى قوله : (( **والليل اذا عسعس والصبح اذا تنفس** )) • والفجر هنا على هــذا هو جنس ذلك الوقت المعروف

---

(١) تفسير جزء عم طبعة الجمعية الخيرية الاسلامية ، الطبعة الثانيــة ص ٧٧ •

الذى يظهر فيه بياض النهار فى جلد الليل الأسود وينبعث الضياء لمطاردة الظلام ، وهو وقت تنفس الصبح وهو معهود فى كل يوم . فصح ان يعرف بالألف واللام . والمراد والله أعلم من « ليال عشر » ليال تتشابه فى حالها مع حال الفجر ، وهى ما يكون ضـوء القمر فيها مطاردا لظـلام الليل الى أن تغلبه الظلمة فكأنه وضع التناسب على شىء من التقابل ، فضـوءالصبح يهزم ظلمة الليل ثم يسطع النهار ولايزال الضـوء الى الليل وضوء الأهلة فى عشر ليال من أول كل شهر يشق الظلام ثم لايزال الظلام يغالبه الى أن يغلبـه فيسدل على الكون حجبه » .

٢ ـ والشيخ محمد عبده باتباعه هـذا المنهج واحتكامه الى تناسق الآيات وتجانس معانيها المتجاورة يقضى على طريقة تفسـير آيات القرآن منفصلة بعضها عن بعض تلك الطرق التى سلكهـا كثير من المفسرين فقضت على جوانب بلاغة القرآن وتناسق اسلوبه وترتيب أفكاره مما جعل بعض المستشرقين يقول ان القرآن خليط متنافر وجمع غير مؤتلف ليس فيه وحدة للموضوع ، ولا يتبع منهج التأليف العلمى أو الفنى : من عرض الموضـوع ومناقشته وتدوين الملاحظات واستنتاج الحقائق . بل نجد السورة تدخل فى أكثر من موضوع وتعرض الجميع عرضـا مبتسرا سريعا ، ولا تراعى مناسبة بين محتوياتها ، فهى أشبه بقولهم عسل خمر لبن .

٣ ـ وللشيخ محمد عبده يرجع الفضل فى رسم فكرة عامـة عن السورة وعرض المواضيع التى تعالجها والمبادىء والحقائق التى تسجلها واقتفى أثره فى ذلك تلميذه السيد رشيد رضـا فى اكمال تفسير المنار الى سورة يوسف .

وظهرت وحدة السورة جيدا فى الفهرس العام الذى كان يضعه لها ، وفى عرض الموضوعات التى تحدثت عنها . واقتدى بالأستاذ الامام طليعة العلمـاء فى هذا القرن وقادة التفكير الاسلامى مثل :

فضيلة الأستاذ الكبير المرحوم محمد مصطفى المراغى .

فضيلة الأستاذ الكبير الشيخ محمود شلتوت .

وفضيلة الأستاذ الكبير المرحوم الدكتور محمد عبد الله دراز .
وان تميز كل واحد منهم بميزة خاصة .

٤ ـ والوحدة فى منهج السورة القرآنية لا تتقيد بمبدا الوحدة الفنية فى التأليف الأدبى أو الفنى . فالقصة الأدبية مثلا لها قواعد فنية يجب مراعاتها مثل العقدة والمأزق والصراع والحل . ولكن القرآن الكريم كتاب هداية كان يذكر من القصة أو الحادثة ما يحقق هذه الهداية واحيانا يبسط الموضوع ، وأحيانا يوجزه حسب مقتضى الحال . واحيانا يترك الموضوع ويتكلم عن شيء مناسب أو مجانس ، ثم يرجع الى الموضوع الأول أو ينتقل الى غيره ، وهذا طريق لو اتبعه بشر لكان تاليفه تافها او ساقطا . ولكن القرآن كتاب الله وهو على كل شيء قدير . ومن قدرته انه يؤلف بين الأجناس المختلفة . فترى بينها نهاية التضام والالتحام . وكل امرىء يستطيع أن يجرب نفسه حين يطول به الوقوف أمام منظر واحد جميل . هل يجد لديه من هزة الاستحسان فى هذا الاستمرار ما يجده لو اعترض سلسلة من المناظر الرائعة قد صفت فيها ضروب الفوائد والمتع ثم جعلت تمر به فى أبدع تنسيق وأحسن تقويم ؟ اللهم لا ، فذلك كذلك »(١) .

٥ ـ يشعر الأستاذ الامام أن فكرة السورة يجب ان تكون اساسا فى فهم آياتها . والموضوع يجب أن يكون أساسا فى فهم الآيات التى نزلت فيه . وكان هذا من اسباب رفضه كل تفسير لا يحقق وحدة الهدف والتناسق بين اجزاء السورة . فمثلا نراه

---

(١) كتاب النبأ العظيم ، للدكتور محمد عبد الله دراز ص ١٦٢ حاشية .

عند الكلام على تفسير الرزق فى قوله تعـالى : (( **كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا** )) يقول : (( قـالوا(١) كان يجد عندها فاكهة الصيف فى الشتاء وفاكهة الشتاء فى الصيف . والله لم يقل ذلك ، ولا قاله رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) ، ولا هو مما يعرف بالرأى ، والتاريخ المعتد به لم يثبته . والروايات عن مفسرى السلف متعارضـة )) .. ويستمر فى تفسير الرزق فى الجملة التاليـة (( **ان الله يرزق من يشـاء بغير حساب** )) فيقول : وأنت ترى(٢) انه لا دليل فى الآية على أن الرزق كان من خوارق العادات واسناد المؤمنين الأمر الى الله فى مثل هذا المقـام معهود فى القديم والحـديث )) .

ويبسط السيد رشيد رضـا الفكرة ويشرحها حين يقول : قال الأستاذ الامام ما مثاله مبسوطا : (( ان القرآن نزل سائغا يسهل على كل أحد فهمه من من غير حاجة الى عناء ولا ذهاب فى الدفاع عن شيء خلاف الظاهر . فعلينا ألا نخرج عن سنته ولا نضيف اليه حكايات اسرائيليـة أو غير اسرائيليـة لجعل القصـة من خوارق العادات . والبحث عن الرزق ما هو ومن اين جاء فضـول لا يحتاج اليه لفهم المعنى ولا لمزيد العبرة . ولو علم الله أن فى بيانه خيرا لنا لبينه . أما ما سيقت القصـة لأجله وهو الذى يجب أن نبحث فيه ونستخرج العبرة من قوادمـه وخوافيـه ، فهو تقرير نبوة النبى صلى الله عليه وسلم ودحض شبهة أهل الكتـاب الذين احتكروا فضل الله وجعلوه خاصا بشعب اسرائيل ، وشبهة المشركين الذين كانوا ينكرون نبوته لأنه بشر .

---

(١) تفسير المنار ـ الجزء الثالث ص ٢٩٣ .
(٢) نفس المرجع .

وبيان ذلك أن المقصد الأول من مقاصد الوحي هو تقرير عقيدة الألوهية واهم مسائلها الوحدانية ، وتقرير عقيدة البعث والجزاء ، وعقيدة الوحي والأنبياء · وقد افتتحت السورة بذكر التوحيد وانزال الكتاب · ثم كانت الآيات من اولها الى هذه القصة أو قبيل هذه القصة فى الألوهية والجزاء بعد البعث بالتفصيل وازالة الشبهات والأوهام فى ذلك · ثم بين أن الايمان بالله وادعاء حبه ورجاء النجاة فى الآخرة والفوز بالسعادة فيها انما يكون باتباع رسوله ، وقفى على ذلك بهذه القصة التى تزيل شبهة المشركين واهل الكتاب فى رسالته وتردها على وجوههم ·

رد عليهم بما يعرفونه من ان آدم ابو البشر ، وأن الله اصطفاه بجعله أفضل من كل أنواع الحيوان وتمكينه هو وذريته من تسخيرها ، وهذا متفق عليه بين المشركين وأهل الكتاب · ومن اصطفاء نوح وجعله أبا البشر الثانى وجعل ذريته هم الباقين · ومن اصطفاه ابراهيم وآله على البشر ، فان العرب وأهل الكتاب كانوا يعرفون ذلك ، فالأولون يفخرون بأنهم من ولد اسماعيل وعلى ملة ابراهيم ، كما يفخر الآخرون باصطفاء آل عمران من بنى اسرائيل حفيد ابراهيم · فالله سبحانه وتعالى يرشد هؤلاء وأولئك وجميع البشر الى أنه هو الذى اصطفى هؤلاء بغير مزية سبقت منهم تقتضى ذلك وتوجبه عليه · فاذا كان الأمر له فى اصطفاء من يشاء من عباده ، وبذلك اصطفى هؤلاء على عالمى زمانهم ، فما المانع له من اصطفاء محمد صلى الله عليه وسلم بعد ذلك على العالمين كما اصطفى أولئك ؟ لا مانع من ذلك عند من يعقل ، وهذا بيان لوجه اتصال القصة بما قبلها من اول السورة ·

ومن هذا المثل قصة مريم ، فان أمها اذا كانت قد ولدتها وهي عاقر على خلاف المعهود كما نقل • او يقال اذا كان قبول الأنثى محررة لخدمة بيت الله على خلاف المعهود عندهم وقد تقبله الله ، فلماذا لا يجوز أن يرسل الله محمدا من غير بنى اسرائيل على خلاف المعهود عندهم ؟ • ومثل هذا يقال فى قصة زكريا عليه السلام الآتية ، ومن ذلك كله يعلم ان أعماله تعالى لا تأتى دائما على ما يعهد الناس ويألفون •

## المدرسة التى تاثرت بالشيخ محمد عبده فى مبدأ الوحدة فى السورة القرآنية

**اولا** ــ تلميذه النجيب فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت :

تناول فضيلته تفسير القرآن الكريم بطريقة لم يسبق اليها ، وقد حازت الرضا والاستحسان بين جميع الأوساط المهتمة بالدراسات القرآنية •

وهذا نموذج من تفسيره لسورة البقرة فى مجلة رسالة الاسلام :

قال فضيلته : « ان السورة وحدة كاملة عنيت بأمرين اقتضتهما حالة المسلمين فى المدينة : الأمر الأول : توجيه الدعوة الى بنى اسرائيل ويبدأ من قوله تعالى : « **يا بنى اسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم** » •

الأمر الثانى : ما يجب على المسلمين ان يتخذوه أساسا فى البر بأنفسهم وأمتهم ومجتمعهم ويبدأ بقوله تعالى : « **ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى**

**واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم اذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون »** ٠ البقرة/١٧٧ ٠

وشبه السورة بعقد توسطت جانبيه آية البر السابقة ٠

فالجانب الأول تناول أهل الكتاب وتذكير الله لهم بنعمته واغراقه فرعون ٠ وتذكيرهم بألوان العناد التي عملوها مثل اعتدائهم فى السبت ٠ وموقفهم من موسى فى ذبح البقرة وتحريفهم آيات الله ٠ وبيان خطئهم فى زعمهم أن الدار الآخرة خالصة لهم من دون الناس ٠

٢ ـ الجانب الآخر من حبات العقد تصوره آية البر وما بعدها وهو الجانب الذى اقتضاه تكوين المسلمين جماعة متميزة عن غيرها فى عبادتها ومعاملاتها ٠

فتحدث هذا الجانب عن التشريع الاسلامى الذى ينظم حياة المسلمين فى المدينة مثل نظام الأسرة والصيام والحج والقصاص والقتال والعناية باليتامى والتحذير من الربا وكتابة الدين ٠

وقد مهدت السورة أمام هذين الغرضين بأمور ثلاثة :

( أ ) بيان طوائف الناس أمام القرآن ٠

( ب ) بيان اصول الدين عند الله ٠

( جـ ) قصة الخلق وآدم عليه السلام ٠

وختمت السورة موضوعيها ببيان الدعوة المحمدية فى قوله تعالى : **« آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا واطعنا غفرانك ربنا واليك المصير »** ٠

ويعلق فضيلته على توضيحه هدفى السورة بقوله : « هـذه حبات جانبى العقد الذى ينتظم موضوعات سورة البقرة التى جاءت آية البر واسطة لها نسردها على هذا النحو بين يدى تفسيرنا لهذه الآية التى اخترناها لهذا العدد من « رسالة الاسلام » وقد سلكنا بهذا الصنيع سبيلا غير التى ألفها الناس فى التفسير لنضع بين يدى القارىء الموضوعات التى عرضت لها السورة فيما قبل هذه الآية · والموضوعات التى عرضت لها فيما بعدها فى سلك واحد يجمع حبات كل جانب ، ويعطى الناظر اليه صورة كاملة لجميع ما احتوت عليه تلك السورة الكريمة وتعينه على الرجوع بكل مسألة فيها الى نوعها وغرضها التى ترتبط فيه مع زميلاتها ·

**ثانيا** ـ فضيلة الأستاذ الكبير المرحوم الدكتور محمد عبد الله دراز :

كان فضيلته ـ رحمة الله عليه ـ مؤمنا بالوحدة المعنوية لكل سورة من سور القرآن · برغم أن السورة كانت تنزل منجمة مقسطة · وفى أوضاع تأليفية عجلى ومشتتة وبين أجزائها عناصر معنوية مختلفة ·

« ومع هذا سبكتها واحكمت صنعتها يد الله السميع البصير ، فانظر الآن هل استطاعت هذه الأسباب على تضافرها ان تنال شيئا من استقامة النظم فى السورة المؤلفة على هذا النهج ؟

« أما العرب الذين تحداهم القرآن بسورة منه فلقد علمت لو أنهم وجدوا فى نظم سورة منه مطمعا لطامع ، بل مغمزا لغامز ، لكان لهم معه شأن غير شأنهم وهم هم · وأما البلغاء من بعدهم فمازلنا نسمعهم يضربون الأمثال فى جودة السبك واحكام السرد بهذا القرآن حين ينتقل من فن الى فن ·

« وأما انت فاقبل بنفسك على تدبر هذا النظم الكريم لتعرف بأى يد وضع بنيانه ؟ وعلى أى عين صنع نظامه ؟ حتى كان كما وصفه الله « **قرآنا عربيا غير ذى عوج** »(١) اعمد الى سورة من تلك السور التى تتناول اكثر من معنى واحد وما أكثرها فى القرآن، فهى جمهرته ، وتنقل بفكرتك معها مرحلة مرحلة ، ثم ارجع البصر كرتين : كيف بدئت ، وكيف ختمت ؟ وكيف تقابلت أوضاعها وتعادلت ؟ وكيف تلاقت أركانها وتعانقت ؟ وكيف ازدوجت مقدماتها بنتائجها ووطأت اولاها لأخراها ؟

وانا لك زعيم بأنك لن تجد البته فى نظام معانيها او مبانيها ما تعرف به اكانت هذه السورة قد نزلت فى نجم واحد أم فى نجوم شتى .

ولسوف تحسب أن السبع الطوال من سور القرآن قد نزلت كل واحدة منها دفعة ، حتى يحدثك التاريخ أنها كلها أو جلها نزلت نجوما »(٢) .

ثم يضرب مثلا لذلك باطول سورة فى القرآن وهى سورة البقرة ليبين أنها وحدة معنوية مرتبط بعضها ببعض فيقول :

« نظام عقد المعانى فى سورة البقرة » .

« اعلم أن هذه السورة على طولها تتألف وحدتها من مقدمة واربعة مقاصد وخاتمة على هذا الترتيب :

( المقدمة ) فى التعريف بشأن هذا القرآن وبيان أن ما فيه

---

(١) الآية ٢٨ من سورة الزمر .
(٢) النبأ العظيم ـ للمرحوم الدكتور محمد عبد الله دراز ص ١٧٣ ـ ١٧٤ .

من الهداية قد بلغ حدا من الوضوح لا يتردد فيه ذو قلب سليم · انما يعرض عنه من لا قلب له ، او من كان فى قلبه مرض ·

( المقصد الأول ) فى دعوة الناس كافة الى اعتناق الاسلام ·

( المقصد الثانى ) فى دعوة أهل الكتاب دعوة خاصـة الى ترك باطلهم والدخول فى هذا الدين الحق ·

( المقصد الثالث ) فى عرض شرائع هذا الدين تفصيلا ·

( المقصد الرابع ) ذكر الوازع والنازع الدينى الذى يبعث على ملازمة تلك الشرائع ويعصم عن مخالفتها ·

( الخاتمة ) فى التعريف بالذين استجابوا لهذه الدعوة الشاملة لتلك المقاصد ، وبيان ما يرجى لهم فى آجلهم وعاجلهم »(١) ·

**ثالثـا** ـ فضيلة الأستاذ الكبير الشيخ محمد محمد المدنى ·

يرى فضيلته « أن لكل سورة روحا يسرى فى آياتها ويسيطر على مبادئها واحكامها وتوجيهاتها واسلوبها »(٢) ·

ونرى من عرضه الاجمالى لسورة النساء أن لها هدفا ترمى الى تحقيقه وهو « توضيح معالم المجتمع الاسلامى وتبيين الخطوط المكونة لصـورته والمميزة لملامحـه وقسماتـه على الوجـه الذى يسعده ويرد عنه غوائل الشر وعوامل الفساد »(٣) ·

وفى نهاية عرضه الاجمالى للسورة الذى يتبين منه وحدتهـا وتناسقها برغم ما يتخلل ذلك من استطراد مناسب يقول : « هذا

---

(١) النبأ العظيم ـ المرحوم الدكتور محمد عبد الله دراز ص ١٨٥ ·
(٢) المجتمع الاسلامى كما تنظمه سورة النساء ـ ص ٥ ·
(٣) المرجع السابق ص ٣٠ ·

عرض اجمالى لما تضمنته سورة النساء من الأحكام والمبادىء والوصايا ، وكلها ذات صلة وثيقة بشأن المجتمع ، ووضع الأسس التى يجب أن يقوم عليها ·

ويمكننا أن نرد ذلك ـ اذا أردنا ايجاز اكبر ـ الى الأمور الآتيـة :

١ ـ اعلان مبدا المساواة بين الناس تمهيدا لاقامة المجتمع على أساسـه ·

٢ ـ حقوق النساء ، واليتامى ، والسفهاء ·

٣ ـ احـكام المواريث ·

٤ ـ أحكام الزوجية وما يتصل بها ·

٥ ـ التضامن الاجتماعى فى ظل التوحيد والخلق الكريم ·

٦ ـ اساس الحكومة الاسـلامية ·

٧ ـ التحذير من اهل النفاق والكفر ، ومن الأعداء الذين يتربصـون الدوائر بالمؤمنين ويحاربونهم حروبا مادية ومعنويـة ·

٨ ـ ارسـال الرسـل شأن الهى . وليس محمد بدعا من الرسـل ·

٩ ـ اقامة الحجة على من يزعمون التثليث ، واثبات ان الله واحد . وأن المسيح ما هو الا عبد الله ·

١٠ـ الرسـالة المحمدية رسـالة عامة موجهـة الى النـاس أجمعـين »(١) ·

---

(١) المجتمع الاسلامى كما تنظمه سورة النساء ـ ص ٤٢ ·

ومن هذا العرض يتبين لنا أن الأستاذ الامام محمد عبده ، كان رائدا من رواد النهضـــة الاسلامية ، وقائد مدرســـة اهتمت بالقرآن الكريم كمصـــدر اســـاسى للتوجيـــه والمعرفة · ورأت أن الوحدة فى السورة لا تقل اهميـــة عن جمع المصحف فى كتاب واحد ، فهذه حفظته من الضياع ، وتلك حمته من هجمات الأدعياء ، وبينت أن للســـورة منه روحا عامة تسيطر عليها وترمى من ورائهـــا الى احياء روح المجتمع الاســـلامى واحكام بنائه · كيف لا والقرآن روح من عند الله ، قـــال سبحانه : (( **وكذلك اوحينا اليك روحـــا من امرنا** )) الشورى/٥٢ ·

## الأســـاس الثـــانى

# عمــوم القــرآن وشــموله

١ ـ « معانى القرآن عامة وشاملة وارشاده مستمر الى يوم القيامة فلا يحمل وعظــه ووعده ووعيده على أشــخاص بعينهم . وانما نيط وعده ووعيــده وتبشيره وانذاره بالعقــائد والأخــلاق والعادات والأعمال التى توجد فى الأمم والشعوب »(١) . وهــذه ميزة واضحة اختص بها القرآن الكريم من بين الكتب السماوية . فكل كتاب نزل الى قوم بعينهم ، ولزمن معين ، وشــمل التغيير والتبديل كثيرا من هذه الكتب .

أما القرآن الكريم فهو كتاب الاسلام . وهو دعوة عامة للناس جميعا « **وما أرسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا** » وهو دستور باق ، وتشريع مستمر باستمرار حاجة الناس الى التشريع . وقد تكفل بحفظه السميع البصير فقال سبحانه « **انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحــافظون** » الحجر/٩ .

وكثيرا ما كان يتوسع الأستاذ الامام فى معنى الآيات او يحمل النظير على النظير ليطبق القرآن على ما هو واقع بين الناس . فهو

---

(١) تفسير المنار جـ١ ص ١٧٩ ـ ١٨٠ .

اذ يفسر الآيات الواردة فى صفات المنافقين من أول سورة البقرة يطبق هذه الصفات على المنافقين فى عصرنا وفى كل عصر « فلا يغترن أحد بقول بعض المفسرين ان هذه الآيات نزلت فى المنافقين الذين كانوا فى عصر النبى ( صلى الله عليه وسلم ) فيتوهم أنها لا تتناوله وان كانت منطبقة عليــه ، لأنه لم يتخذ القرآن اماما وهاديا . ولم يستعمل عقله ومشــاعره فيما خلقت له بل اكتفى عن ذلك بتقليد آبائه ومعاصريه فى كل ما هم فيه » .

٢ ـ والأستاذ الامام بهذا يريد أن يجعل من القرآن دروســا يحتذيها المسلمون وآدابا يترجمونها فى أفعالهم واحوالهم ، فهو يقول فى تفسير ســورة الشرح عند آية (( **ان مع العسر يسرا** )) . « وكأن هذه الآية عبرة لهذه الأمة وكأن عليهــا ان تعرف أن مع العسر يسرا وأن وعد الله فى هــذه الآية حق وان تقتدى بنبيهــا فى طلب الوسائل للخلاص مما هى وعندها كتاب الله وحده هداية للمهتدى وقدوة للمقتدى ، ولمــا كانت القضية موضعــا للريب خصوصــا عند من اخذ الضيق بخناقه آكدت ب « ان » . ولمــا كان الشــك يزداد بل قد ينتهى الى الانكار فى بعض أنواع العسر ، اســتأنف القضية نفسها واعادها بلفظها فقال (( **ان مع العسر يسرا** )) ولكن على أن يكون معناها أعم من معنى سابقتها .

ولا يفوت الأستاذ الامام أن يدفع شبهة من اذهــان بعض من يسمع هذا الكلام ، فيقول : « قد تقع أمم أو أشخاص فى ضرب من ضروب العسر من نوع ما سبق ، ثم يجدون الضعف من هممهم عن الخلاص مما أطبق عليهم منه فيدوم لهم العسر وقد يموتون وتنشأ فيه أعقــابهم . فأين اليسر الذى يصحب العسر عند هؤلاء ؟ . ومن ضروب العسر ما يختلف نوعه عن المعهود كالمرض الطويل المفضى الى الموت ، وكالزمانــة التى تصحب الزمن من أول حياتــه الى

مماته . فأى يسر جاء مع عسرها ؟ فجاءت هذه الآية المستأنفة لرفع هذا الاشتباه فى عموم السنة الالهيــة ، وذلك ان أولئك الذين استعملوا ما وهبهم الله من القوى للخــلاص مما ينزل بهم اذا كان مما يمكن كشفه . لا ريب فى كشف العسر عنهم بنوع من انواع اليسر كما وقع للنبى (صلى الله عليه وسلم) واصحابه . اما الآخرون الذين لا بصيرة عندهم فى تصريف تلك المواهب الالهية بل يطلبون أن ينتهوا الى الغايات بغير بدايات ، وان يصــلوا الى المقصــد بغير وسيلة فلا يستعملون عقولهم ولا عزائمهم فى دفع ما يحــل بهم . وليس لهم ثقة بربهم فيعملوا معتمدين عليــه ــ هؤلاء يحســون بالألم حينا ثم تخنس نفوسهم وتقبع فى حجر الاستكانة وتستقر فيها طمانينة الرضــا بما غمرها من الضر فتسلب الاحســاس به ، ثم اذا طال بها الزمن تحول فيه الألم الى لذة بالمعتــاد ، ولا عجب من تحول الألم الى لذة فانك تراه فى شارب الدخــان ، مثلا يألم لأول مرة بل قد يأخذه الدوار وأشــد آلام الصــداع ثم ما يلبث أن يكون عادة مرغوبة يألم أشــد الألم لتركها . ومن هذا نجد الأمم التى تعودت على عسر الاستبداد والظلم قد الفت ذلك حتى صــار يصعب عليهــا ان تحتمل غيره ، ولاتزال تحن اليه . وكلما طلب ابعادها عنه اندفعت بالاقبــال عليه فهذا نوع من اليسر ، وان كان اشــأم من العسر ، ولكن أليست النفس راضية له مطمئنــة اليه ؟ أما المرض الطويل الممتد الى الموت والزمانة مما لا يمــكن كشفه فلك أن تقول انه لا يدخل فى أنواع العسر التى شملها استغراق العهد فان الاستغراق للعسر والضــيق المعهودين ، وهمــا ما يمر بالخاطر اذا وقع الحديث على العسر أو الضيق وذلك هو الأنواع التى ذكرناها فى تفسير الآيــة السابقــة (( **فان مع العسر يسرا** )) وبالجملة فالعسر الداخل فى الاستغراق هو كل ما تجد النفس ألم الوقوع فيه وتنزع الى طلب الخــلاص منه بالوســائل التى سنها

الله لذلك الخلاص ، ولا ريب فى أن كل عسر من هذا القبيل معه يسر يسوقه الله الى العامل الآمل العاقل ، جزاء عمله لتحقيق امله ، واستعماله لموهبة عقله ، أما مثل الزمانة والمرض الطويل فيدخلان فى نحو قوله : (( **فاذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون** )) وكذلك يقال فى عارض يعرض للأمة اذا حم هلاكها كزلزال ونحوه والله اعلم ، وتنكير اليسر لأن الذى يأتى بعد العسر أى نوع من أنواعه لا يختص بيسر معين ، والتعبير بالمعية لتوثيق الأمل بأنه لابد منه كأنه معه • اذا علمت أن مع العسر يسرا فاعلم أن مع التعب فى العمل النافع راحة (( **فاذا فرغت** )) من عمل من اعمالك النافعة لك ولأمتك (( **فانصب** )) أى خذ فى عمل آخر واتعب فيه فانك تجد لذة الراحة عقب النصب بما تجنيه من ثمرة العمل (( **والى ربك فارغب** )) أى لا ترغب الى احد فى استثمار أعمالك الا الى الله وحده ))(١) •

٣ ـ والأستاذ الامام يطبق فى تفسيره القاعدة المشهورة (( العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب )) كلما وجد الى ذلك سبيلا ، ففى تفسيره لقوله تعالى : (( **فأنذرتكم نارا تلظى لا يصلاها الا الأشقى الذى كذب وتولى ، وسيجنبها الأتقى الذى يؤتى ماله يتزكى** )) •

يرى ان الاشقى جنس عام يشمل كل مذنب احاطت به خطيئته ، وكل مؤمن ضعف ايمانه فارتكب المعاصى التى لا يرتكبها وهو مؤمن • وكذلك يتوسع فى معنى الأتقى ليشمل كل أفراده المستقيمين فعلا • أو الراجعين الى الله بعد ذنوب اقلعوا عنها وندموا عليها واستقاموا فعلا على جادة الحق • وبتفسير الأتقى والأشقى

---

(١) تفسير جزء عم ص ١٠٧ •

على النحو الذى سمعته تبطل تلك الاشـكالات التي أوردها المفسرون فى الحصر ـ وما أشـكل عليهم الا تقيدهم بالعـادة فى استعمال ألفـاظ (( **كذب وتولى** )) . وتحكيمهم عـاداتهم واصطلاحاتهم التى وضعوها من عند انفسهم لأنفسهم فى كتـاب الله تعـالى وسـنة رسوله . ثم انهم يوردون هنا اسبابا للنزول ون الآيات نزلت فى سيدنا أبي بكر رضى الله عنه لأنه اشترى من ارقاء المسلمين ضعفاء وأعتقهم من ماله لا يبتغى فى ذلك الا وجه الله . ورووا غير ذلك وقالوا ان (( **الأشقى** )) هو أمية بن خلف ، وقيل غير ذلك ومتى وجد شيء من ذلك فى الصحيح لم يمنعنا من التصـديق به مانع ولكن معنى الآيات لايزال عاما كما رأيت والله أعلم ))(١) .

والأستاذ الامام بسلوكه هذا المسلك فى تفسير القرآن يؤكد معنى العموم والشمول لآيات الله الحكيم . وأنه كتـاب البشرية الخالد ومصباح الهداية ومنار الاسترشاد وفيه عـلاج المجتمع ، وشفاء ورحمة للمؤمنين ، من قال به صـدق ومن حكم به عدل ، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله . لم تسمعه الجن حتى قالت : (( **انا سمعنا قرآنا عجبـا يهدى الى الرشـد فآمنا به ولن نشرك بربنـا أحدا** ))(٢) .

---

(١) تفسير جزء عم ص ١٠٧ .
(٢) سورة الجن آية (١) و (٢) .

## الأســاس الثــالث

# القــرآن الكــريم
# هو المصــدر الأول للتشريــع

ينهج الأستاذ الامام فى تفسيره على اعتبار القرآن الكريم الأصل الأول من اصــول التشريع . والاعتماد عليه أولا عند تقنين اى حكم من الأحكام .

وهو يتبع بذلك خطة النبى صلى الله عليه وسلم حين أرسل معاذا الى اليمن . وسأله الرسول صلى الله عليــه وسلم « ماذا تصنع ان عرض لك قضــاء . قال أنظر حكمه فى كتاب الله . فــال فان لم تجد ؟ قال : أنظر فى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال : فان لم تجد ؟ قــال : أجتهد رايى ولا آلو . فقــال النبى صلى الله عليه وسلم : الحمد لله الذى وفق رســول رســول الله لمــا يرضى الله ورسوله »(١) .

والأستاذ الامامبهذا يرد للقرآن وضعه الطبيعى فى التشريع وينبه المقلدين الى غفلتهم عن مصــادر التشريع الأولى وغرقهم فى

---

(١) رواه ابو داود والترمذى والدرامى .

حماة التقليد ـ حتى كتب أحد شراح الحديث يقول فى شرحه : هذا الحديث ليس على مذهب الشافعيـة · مع أن الشافعى رضى الله عنه يقول : « اذا صح الحديث فهو مذهبى واضربوا بقولى عرض الحـائط » ·

ويرى الأستاذ الامام ان الأئمة المجتهدين مأجورون فى اجتهادهم ولكن هـذا لا يبيح لنا أن نقدم رأيهم على القرآن الكريم · ولذلك نراه يسـخر من بعض المفسرين الذين يعتبرون بعض آيـات من القرآن مشكلة لأنها لم توافق آراء المذاهب ·

وقد اعتمد ـ رحمه الله ـ على القرآن وحده فى اباحة التيمم للمسافر مع قدرته على استعمال المـاء · مخالفـا فى ذلك جميـع المذاهب · واعتمد على قوله تعالى : (( **يايها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وانتم سـكارى حتى تعلموا ما تقولون ، ولا جنبـا الا عابرى سبيل حتى تغتسلوا وان كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النسـاء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبـا فامسحوا بوجوهكم وايديكم ان الله كان عفوا غفورا** ))(١) ·

قال الأستاذ الامام ـ مؤكدا جواز التيمم للمسـافر ـ عند تعليقه على تفسيره هذه الآية : « المعنى أن حكم المريض والمسـافر اذا أراد الصـلاة حكم المحدث حدثا أصغر او ملامس النسـاء ولم يجد المـاء فعلى كل هؤلاء التيمم فقط · هذا ما يفهمه القارىء من الآية نفسها اذا لم يكلف نفسه حملها على مذهب من وراء القرآن يجعلها بالتكلف حجة له منطبقة عليه » · وقد طالعت فى تفسيرها خمسة وعشرين تفسيرا فلم أجد فيها غناء · ولا رايت قولا يسـلم من التكلف ، ثم رجعت الى المصحف وحده فوجدت المعنى واضحـا

(١) سورة النساء آية ٥٧ ·

جليا ، فالقرآن أفصح الكلام وأبلغه واظهره وهو لا يحتاج عند من يعرف العربية مفرداتها واساليبها الى تكلفات فنون النحو وغيره من فنون اللغة عند حافظي أحكامها من الكتب مع عدم تحصيل ملكة البلاغة الى آخر ما اطال به في الأنكار على المفسرين الذين عدوا الآية مشكلة لأنها لم تنطبق على مذاهبهم انطباقا ظاهرا سالما من الركاكة »(١) ٠

وقد شايعه في طريقته تلميذه السيد الأستاذ رشيد رضا ، فقال معلقا على كلام استاذه « واذا كان رحمه الله قد راجع خمسة وعشرين تفسيرا رجاء أن يجد فيها قولا لا تكلف فيه ، فأنا لم أراجع عند كتابة تفسيرها الا روح المعاني وهو آخر التفاسير المتداولة تأليفا وصاحبه واسع الاطلاع » فاذا به يقول : « الآية من معضلات القرآن » ووالله ان الآية ليست معضلة ولا مشكلة ، وليس في القرآن معضلات الا عند المفتونين بالروايات والاصطلاحات وعند من اتخذوا المذاهب المحدثة بعد القرآن اصولا للدين يعرضون القرآن عليها عرضا ، فاذا وافقها بغير تكلف أو بتكلف قليل فرحوا ، والا عدوها من المشكلات والمعضلات ، على أن القاعدة القطعية المعروفة عمن أنزل عليه القرآن صلى الله عليه وسلم وعن خلفائه الراشدين رضى الله عنهم أن القرآن هو الأصل الأول لهذا الدين وأن حكم الله يلتمس فيه أولا فان وجد فيه يؤخذ وعليه يعول ولا يحتاج معه الى مأخذ آخر ، وان لم يوجد التمس من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم على هذا أقر النبي صلى الله عليه وسلم معاذا حين ارسله الى اليمن ، وبهذا كان يتواصى الخلفاء والأئمة من الصحابة والتابعين ، وقد رأى القارىء أن معنى الآية واضح في نفسه ولا تكلف فيه ولا اشكال ولله الحمد ٠

---

(١) تفسير المنار ـ جـ٥ ـ ص ١١٩ ٠

سيقول أدعياء العلم من المقلدين : نعم ان الآية واضحة المعنى كاملة البلاغة على الوجه الذى قررتم ، ولكنها تقتضى ان التيمم فى السفر جائز ولو مع وجود الماء وهذا مخالف للمذاهب المعروفة عندنا · فكيف يعقل أن يخفى معناها هذا على أولئك الفقهاء المحققين ويعقل أن يخالفونا من غير معارض لظاهرها أرجعوها اليه · ولنا ان نقول لمثل هؤلاء ـ وان كان المقلد لا يحاج لأنه لا علم له ـ وكيف يعقل أن يكون ابلغ الكلام وأسلمه من التكلف والضعف معضلا مشكلا ؟ وأى الأمرين أولى بالترجيح : الطعن ببلاغة القرآن وبيانه لحمله على كلام الفقهاء أم تجويز الخطأ على الفقهاء · لأنهم لم يأخذوا بما دل عليه ظاهر الآية من غير تكلف وهو الموافق الملتئم مع غيره من رخص السفر التى منها قصر الصلاة وجمعها واباحة الفطر فى رمضان · فهل يستنكر مع هذا أن يرخص للمسافر فى ترك الغسل والوضوء وهما دون الصلاة والصيام فى نظر الدين ؟ ·

أليس من المجرب أن الوضوء والغسل يشقان على المسافر الواجد للماء فى هذا الزمان الذى سهلت فيه أسباب السفر فى قطارات السكك الحديدية والبواخر ؟ افلا يتصور المنصف أن المشقة فيها أشد على المسافرين على ظهور الابل فى مفاوز الحجاز وجبالها ؟ هل يقول منصف ان صلاة الظهر أو العصر أربعا فى السفر أسهل من الغسل أو الضوء فيه ؟ السفر مظنة المشقة يشق فيه غالبا كل ما يؤتى فى الحضر بسهولة ، واشق ما يشق فيه الغسل والوضوء وان كان الماء حاضرا مستغنى عنه »(١) ·

من هذا العرض يتبين لنا أن الأستاذ الامام يرى أن القرآن

---

(١) تفسير المنار ـ الجزء الخامس ص ١٢١ ·

الكريم أصل التشريع ويليه السنة المطهرة ، وعليهما المعول ان اختلفت الآراء أو تعددت المذاهب .

قال تعالى : (( **يايها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فان تنازعتم فى شيء فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تاويلا** ))(١) .

وطاعة الله تكون بتحكيم كتابه ، وطاعة الرسول بالتزام سنته ، وأولو الأمر هم أصحاب الرأى من العلماء والأئمة المجتهدين .

فان وقع خلاف فلن يكون فى أمر الله ولا فى أمر رسول الله انما يكون الخلاف فى آراء الفقهاء وأقوال العلماء . واذا وقع الخلاف فلنرده الى الأصلين الثابتين وهما : كتاب الله وسنة رسول الله . وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم اذ يقول : (( **تركت فيكم ما ان تمسكتم بهما لن تضلوا كتاب الله وسنتى** )) .

ومما ينبغى مراعاته فى هذا المقام أن الفقه الاسلامى قد مر بمراحل يمر بها الكائن الحى وهى عصر النشأة . وعصر الشباب . وعصر النضوج والكمال . وأخيرا عصر التقليد .

وفى عصر التقليد التزم الفقهاء مذاهب أئمتهم وتعصبوا لها . بل حملوا القرآن عليها . فحمل صاحب المنار ومن قبله الأستاذ الامام على التفاسير السابقة التى تقدم آراء المذاهب على كتاب الله ، وتريد ان تؤول القرآن بما يوافق آراء شيوخهم وأصحاب مذاهبهم .

وبينا أن القرآن امام غير مأموم ، وحاكم غير محكوم وصدق الله العظيم : (( **ومن أصدق من الله قيلا** )) .

---

(١) سورة النساء الآية ٩٥ .

## الأســـاس الرابـــع

# محـــاربة التقليـــد

يذم الأسـتاذ الامام التقليد فى تفـكير المسلم المتأخر ويوجب الرجوع الى فهم المسلمين الأولين للقرآن ٠

١ ـ فلا يترك الأستاذ الامام آية من آيات القرآن تذم اتباع الآباء السابقين من غير تفكير ٠ مثل قوله تعالى : (( **واذا قيل لهم اتبعوا ما انزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ٠ أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون** )) البقرة/١٧٠ الا ويلحق بهـذا النوع من التقليد العلماء الذين يصرحون بأنهم مقلدون لا يلزمهم النظر فى الكتاب والسنة ، بل يعتمدون على ما كتب غيرهم فى الفقه ويدينون لكتب المقدمين على تعارضها وتناقضها ، ويكتفون بقولهم وكلهم من رسول الله ملتمس ٠

وفى تفسيره لقوله تعالى : (( **وقالوا لن يدخل الجنة الا من كان هودا أو نصارى تلك امانيهم قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين** )) البقرة/١١١ ٠

نراه يستدل بآخر هذه الآية على ان « القرآن علم اهله أن يطالبوا الناس بالحجة لأنه أقامهم على سواء المحجة ٠ وجدير بصاحب اليقين أن يطـالب خصمه به ويدعوه اليه ٠ وعلى هـذا درج سلف هذه الأمة الصـالح ٠ « قالوا بالدليل ٠ وطالبوا بالدليل ونهوا

عن الأخذ بشيء من غير دليل ، ثم جاء الخلف الطـالح فحكم بالتقليد وأمر بالتقليد ، ونهى عن الاستدلال على غير صحة التقليد · حتى كأن الاســلام خرج عن حده ، او انقلب الى ضــده ، وصار الذين يعلمون أن الاســلام امتـاز عن ســائر الأديان بابطـال التقليد ، وبالمطالبة بالبرهان والدليل ، وعلم النـاس استقلال الفكر ، مع المشاورة فى الأمر · يطالبون المسلمين بالرجوع الى الدليل ويعيبون عليهم الأخذ بقـال وقيل · وياليته كان الأخذ بقول الله ، وقيـل فيما يروى عن رسول الله ، ولكنه الأخذ بقال فلان وقيل عن علان(١) ٥٣ : ٢٣ « **ان هى الا اسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان** »(٢) النجم/٢٣ ·

٢ ـ وقد كان الأستاذ الامام متأثرا فى ذلك بحالة المسلمين الراهنة وما أصابهم من ضعف سـياسى وضعف فى الثقافة الاسلامية الموروثة التى لصق بها من عوامل الضعف والتقليد ما جعلها عاجزة عن أن تواجه تيار الحيـاة المتجدد · وعاجزة عن ان تواجه الحياة الحديثة فى اسـلوبها وأن تلائم بين أحداثها وتعـاليم الاســلام · بينما كان لطوافه فى اوربا واطلاعه على نهضـة القوم وايجابيتهم فى الحيـاة واتباعهم المنهج العلمى الحـديث فى البحث والمقارنـة والاستنتاج أثره فى دعوته المسلمين فى كل مناسبة الى ترك التقليد واحترام عقولهم والاعتماد عليهـا فى الفهم والاستنتاج والاستنباط·

وهو لذلك يدعو العلمـاء الى الاعتمـــاد على كتب القرون المتوسطة كالقرن الثالث والرابع الهجرى ·

وعدم الاعتماد على كتب القرون المتأخرة التى الفت فى عهد الضعف الســياسى والفكرى ويضرب مثلا فيقول : « هذا الشوكانى

---

(١) المنار الجزء الاول ص ٢٢٤ ·
(٢) هذه الآية فى المنار جـ٦ ص ٩٥٢ ·

لما كسر قيود التقليد الأعمى · حيث كان وهابيا معتدلا صار عالما وفقيها ·· ان حالة الفقهاء هى التى ضيعت الدين · ان الناس تعرض لهم باختلاف الزمان أمور ووقائع لم ينص عليها فى الكتب فهل يوقف سير العالم لأجل كتبهم » ؟

هذا لا يستطاع ولذلك اضطر العوام والحكام الى ترك الأحكام الشرعية ولجئوا الى غيرها · ان أهل بخارى جوزوا الربا لضرورة الوقت عندهم · والمصريون قد ابتلوا بهذا فشدد الفقهاء على أغنياء البلاد فصاروا يرون أن الدين ناقص فاضطر الناس الى الاستدانة من الأجانب بأرباح فاحشة استنزفت ثروة البلاد وحولتها للأجانب · والفقهاء هم المسئولون عند الله عن هذا وعن كل ما عليه الناس من مخالفة للشريعة ، لأنه كان يجب أن يعرفوا حالة العصر والزمان ويطبقوا عليه الأحكام بصورة يمكن للناس اتباعها ( أى كالأحكام الضروريات ) لا أنهم يقتصرون على المحافظة على نقوش هذه الكتب ورسومها ويجعلونها كل شيء ويتركون لأجلها كل شيء ·

يقرأون الأصول ولا يخطر ببال احد منهم ان يرجع فرعا من هذه الكتب الى أصله أو يبحث عن دليله · بل لم يخجلوا أن يقولوا نحن مقلدون لا يلزمنا النظر فى الكتاب والسنة(١) ·

٣ ـ وقد كان تفسير الأستاذ الامام للقرآن الكريم محاولة موفقة لاظهار هذا التراث الاسلامى مسايرا للتطور موافقا لحاجات الناس فى كل زمان ومكان ·

فالاسلام قد تميز عن الأديان السابقة بأن كل دين كان خاصا بفئة من الناس ، ولمدة من الزمن ، أما الاسلام فهو رسالة البشرية

---

(١) تاريخ الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده ـ الجزء الاول الطبعة الاولى ـ فى مطبعة المنار ـ ص ٩٤٤ و ٩٤٥ ·

كافة « **وما ارسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا** » « **وما أرسلناك الا رحمة للعالمين** » .

وهو رسالة خالدة باقية قال تعالى : « **انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون** » وحفظ الكتاب لا يكون حفظ رسمه وآياته . بل من الحفظ أن يحفظ معانيه وأوامره لتناسب حال الناس . ولا يكون ذلك الا بحسن الفهم له بما يناسب أوامر الله ومصالح المسلمين .

وقد كرر دعوته الى الاجتهاد . ومحاربة التقليد فى غير مرة بل بمناسبة وبغير مناسبة فنراه فى تفسير آخر سورة « عبس وتولى » رغم أنه ليس فيها مناسبة لذم التقليد ـ فقد تحدثت السورة عن صنفين من الناس فى يوم القيامة قال تعالى : « **وجوه يومئذ مسفرة ضاحكة مستبشرة ، ووجوه يومئذ عليها غبرة ترهقها قترة** » يقول الأستاذ الامام معلقا على تفسير هذه الآية :

« فمن كان فى هذه الحياة الدنيا طالبا للحق ناظرا فى الدليل لا تحجبه عن الاعتبار غفلة ولا تأخذه عن الحق اذا ذكر به أنفة ولا تنفره منه عادة ، ولا تباعده عنه ألفة ، فهو لا يعقد لنفسه عقيدة ، الا بعد تقريرها على المقدمات الصحيحة المستمدة من حكم البديهة ، ليس رأى فلان ، أو قيل سابق فى زمان . الا قول رسول كريم قامت على عصمته براهين يقبلها العقل السليم ، ويؤيدها الذكر الحكيم . ثم أخذ نفسه بالعمل على ما يطابق عقيدته ، فهو كما يعتقد بالحق يعمل للحق من كان هذا شأنه فى حياته هذه فما الذى يلاقيه اذا جاءت الصاخة .. ان وجهه يتهلل ويسفر ويضحك ويستبشر .

وأما من احتقر عقله ، ورضي جهله وصرفه عن الدليل ما أخذه عن آبائه ، وتلقاه عن سلفه ورؤسائه ·· فانه يوم القيامة تعلو وجهه الغبرة وتغشاه الفترة لأنه من الكفرة الفجرة »(١) ·

٤ ـ وقد حارب الأستاذ الامام هذه الفكرة التي شاعت بين الناس والوهم الذى انتشر بينهم · من أن باب الاجتهاد قد أغلق من قرون واقتصر اجتهاد الفقهاء على ترجيح بعض أقوال السابقين على بعض فهو اجتهاد مقفل داخل مذهب معين وتفكير معين ·

حمل الأستاذ الامام على هذا الوهم حملات متعددة بددت خيالقه وأضعفت قيمته · وبين أن باب الاجتهاد مفتوح الى يوم القيامة بشرط أن يتوفر فى المجتهد أو المستنبط الشروط التى نص عليها فى كتب الأصول « وآمن الامام بأن للانسان وجودا ذاتيا وكيانا مستقلا فى هذا العالم ويستتبع ايمانه بوجوده الذاتى ، اقرار إمكانه على فهم الكتاب المنزل والتفقه على أساس منه »(٢) · ومن أسباب ثورة الأستاذ الامام على التقليد وندائه بضرورة الاجتهاد « أن الحياة الانسانية للمجتمع الانسانى حياة متطورة ويجد فيها من الأحداث والمعاملات اليوم ما لا يعرفه أمس هذه الجماعة · والاجتهاد هو الوسيلة المشروعة للملاءمة بين أحداث الحياة المتجددة وتعاليم الاسلام · ولو وقف الأمر بتعاليم الاسلام عند حد تفقه الأئمة السابقين لسارت الحياة الانسانية فى الجماعة الاسلامية فى عزلة عن التوجيه الاسلامى · وبقيت أحداث هذه الحياة فى بعد عن تجديد الاسلام اياها · وهذا الوضع يحرج المسلمين فى اسلامهم كما يحرجهم فى حياتهم »(٣) ·

---

(١) تفسير جزء عم ص ٢٤ ·
(٢) الفكر الاسلامى الحديث : للدكتور محمد البهى ص ١٣٧ ·
(٣) المصدر السابق ص ١٣٧ ·

٥ ـ على أن الحرب التى شنها الأستاذ الامام على التقليد وترك الاجتهاد لم يكن مبتدعا لها بل كان مسبوقا فيها بأئمة مجددين ودعاة مصلحين هالهم حال العالم الاسلامى وعملوا على النهوض به وتحرير عقول اهله من خرافة قفل باب الاجتهاد ٠

وكان من هؤلاء ابن تيمية ، وابن قيم الجوزيه ، اللذان حملا على المذاهب الفقهية حملة شعواء لأنها تدور حول باب مقفل وبينوا أن الاستنباط يجب أن يؤخذ من الكتاب والسنة وما عدا ذلك « فهم رجال ونحن رجال » ٠

وقد سار على نهجه فى حرب التقليد تلميذه المخلص وحامل فكرته من بعده السيد الأستاذ رشيد رضا ٠ فدعا الى الاجتهاد وحارب التقليد فى كثير من مواضع تفسيره العظيم ٠ وشبه المقلدين من المسلمين لشيوخهم بالمقلدين من أهل الكتاب لأئمتهم واتباعهم فيما يحلون ويحرمون ٠

فعند تفسير الجزء الأخير من قوله تعالى : **« قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم الا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا اربابا من دون الله »** آل عمران/٦٤ ٠

يقول فى تفسيره :

« فالرب هو السيد المربى الذى يطاع فيما يأمر وينهى : والمراد من له حق التشريع والتحليل والتحريم كما ورد فى حديث عدى بن حاتم قال : « أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ٠ وفى عنقى صليب من ذهب فقال يا عدى اطرح عنك هذا الوثن وسمعته يقرأ سورة براءة ( ٨ : ٣١ ) **« اتخذوا أحبارهم ورهبانهم اربابا من دون الله »** : « فقلت : يا رسول لم يكونوا يعبدونهم ، فقال : أليس يحرمون ما أحل الله فيحرمون ؟ ويحلون ما حرم الله

فيحلون ؟ فقلت : بلى » · وسئل حذيفة رضى الله عنه عن الآية فاجاب بمثل ذلك ·

« قال الأستاذ الامام : كان اليهود موحدين ولكن كان عندهم شيء هو منبع شقائهم فى كل حين وهو اتباع رؤساء الدين فيما يقررونه وجعله بمنزلة الأحكام المنزلة من الله تعالى ، وجرى النصارى على ذلك وزادوا مسالة الغفران وهى مسالة تفاقم امرها فى بعض الأزمان حتى ابتلعت بها الكنائس اكثر أملاك الناس ، ومن الغلو فيها ولدت مسألة البروتستانت اذ قاموا فقالوا هلم بنا نترك هؤلاء الأرباب من دون الله ونأخذ الدين من كتابه لا نشرك معه فى ذلك قول أحد ·

« قال الفخر الرازى بعد ما نقل حديث عدى فى تفسير الآية :

« قال شيخنا ومولانا خاتمة المحققين والمجتهدين رضى الله عنه قد شاهدت جماعة من مقلدة الفقهاء قرات عليهم آيات كثيرة من كتاب الله تعالى فى بعض المسائل وكانت مذاهبهم بخلاف تلك الآيات فلم يقبلوا تلك الآيات ولم يلتفتوا اليها وبقوا ينظرون الى كالمتعجب ، يعنى كيف يمكن العمل بظواهر هذه الآيات مع أن الرواية عن سلفنا وردت على خلافها · ولو تأملت حق التأمل وجدت هذا الداء ساريا فى عروق الأكثرين من أهل الدنيا » ·

قال السيد رشيد رضا · معلقا عن كلام الفخر الرازى :

« ان شيخه رحمه الله كان مجتهدا بحق ، اما هو فعلى توسعه فى فن الاستدلال يؤمن بالمذهب تارة بالتأويل والجدل ويستقل بالاستدلال أخرى · وقد جاء بعد شيخه كثير من المجتهدين مثله · ولكن كثرة المقلدين وتأييد الحكام لهم قد نصر باطلهم على حق أولئك الأئمة ، ولولا الحكام الجاهلون والأوقاف التى وقفت على فقه

المذاهب لم يتفرق المسلمون فى دينهم شيعا حتى صدق عليهم ماورد فى أهل الكتاب قبلهم الا من هداه الله ووفقه لايثار كتاب الله وسنة رسوله على كل شيء »(١) ٠

وانت ترى ان الأستاذ الامام جعل من تفسيره للقرآن الكريم منبرا يدعو فيه أحرار العلماء الى اعمال عقولهم والتفكير فيما يصلح أهل زمانهم ومحاربة التقليد الذى يؤدى بالمسلم الى أن يكون شخصا سلبيا فى الحياة يقوم علمه على ترديد آراء السابقين وينتهى مجهوده الى نقل كلام المتقدمين مع أن العلم ليس وقفا على متقدم ، ولا حبسا على السابقين بل ربما أتى الأواخر بما لم يتهيأ مثله للأوائل ٠

والقرآن الكريم دستور المسلمين ، وحياتهم متجددة . وتطرأ فى أزمانهم احداث لم تكن عند السابقين « وذلك يوجب على العلماء ان تكون لهم جمعيات يتدارسون فيها أمور الدين ويعللون أحكامه ٠ واذا كان بعض الأحكام قد رجع لظروف خاصة فيجب أن يذكروا ذلك »(٢) ٠

وفى منظومة فنية تدرس فى الأزهر تقرأ هذا البيت :

**اذ كل من قلد فى التوحيد ايمانه لم يخل من ترديد**

٦ ـ وقد كان الامام مصلحا ومجتهدا ٠ فراعى المصلحة العامة فى تفسيره للقرآن الكريم وفى فتاويه العامة وطالب الحكام وأولى الأمر والفقهاء برعاية مصالح الناس فى أحكامهم وفتاويهم ٠

وبين لهم أن المصلحة العامة اصل فى الأحكام السياسية والمدنية يرجع اليه فى غير تحليل المحرمات أو ابطال الواجبات ٠

---

(١) المنار جـ٨ ص ٩١٦ ٠
(٢) تاريخ الاستاذ الامام ص ٩٤٥ ٠

وطالب القضاة بأن تكون أحكامهم على وفق المصالح والمنافع الوجوديـة ٠

وقد كان الامام مفتيـا للديار المصريـة ، ولكنه لم يقبل أن يعيش بين المحابر والدفاتر فجاب البـلاد المصرية ولمس علل الناس ووصف الداء ، وشخص الدواء ٠

وطاف الامام بالمحاكم الشرعية ووضع تقريرا عنها نبه فيه الحكام والقضــاة الى تاليف لجنة من العلماء لاستخراج كتـاب فى احكام المعاملات الشرعية ينطبق على مصـالح الناس فى هذا العصر٠ ولاسيما الأحكام التى هى من خصـائص المحاكم الشرعية « ولا يعدل فيه عن مذهب الحنفية الا فى الأحكام التى لا تنطبق على مصلحـة الناس فى هذا العصر اذا حكم فيهـا بمذهبهم ، وهذه حالة ضرورة او حاجة تنزل منزلة الضرورة ، وبهذا الاعتبـار يكون من مذهبهم لأن الحكم الذى تمس اليه الحاجـة او يضطر اليه يصير متفقـا عليـه »(١) ٠

فالشريعة الاســلامية عامة باقيـة الى آخر الزمان ، ومن لوازم ذلك أنها تنطبق على مصالح الخلق فى كل زمان ومكان ، مهما تغيرت أساليب العمران ، وشريعـة هذا شأنها لا تنحصر جزئيات أحكامها لأنها تتعلق بأحوال البشر ما وجدوا ، ولا يحيط بذلك علما الا عالم الغيب والشهادة ، وهو الذى جعل أساسـها حفظ الدين والنفس والعقل والعرض والمـال ، اذ مصالح البشر فى كل آن مبنية على هذه الأشـياء التى فيها السـعادة فى المعاش والمعـاد ٠ وقد استخرج الأئمة والفقهاء رضى الله عنهم القواعد الكلية والأحـكام

---

(١) وقد جرت الحكومة المصرية بعد ذلك على هذا الرأى ٠ انظر تاريخ الاستاذ الامام ١ ص ٦١٧ ٠

الجزئية ، وبنوها على أساس هذه الأصول الخمسة ، ومن القواعد المتفق عليها بينهم أن العبرة بالمعـاني لا بالألفاظ ، كما مر آنفا . وأن الضرورات تبيح المحظورات ، وأن المشقة تجلب التيسير ، وأن الأمر اذا ضاق اتسع ، وان الضرر الخـاص يتحمل لدفع الضرر العام . والضرر الأشـد يزال بالأخف وان الحاجـة تنزل منزل الضرورة عامة أو خاصة ، وأن الأحكام تتغير بتغير الأزمان ، وأن التعيين بالعرف كالتعيين بالنص ، ومن فهم كلام ائمة الفقـه حق فهمه الفاه لا يتعدى هذه القواعد »(١) .

والقرآن الكريم يذكر فى كثير من نصوصه أن اساس التشريع رفع الحرج واليسر بالناس قال تعالى :

**« يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم » .**

**« والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما » .**

**« يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الانسان ضعيفا »**(٢) .

**« ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج » « وما جعل عليكم فى الدين من حرج » « يريد الله بكم اليسر ولا يريـد بكم العسر » « فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا اثم عليه » .**

وبينت الأحاديث الشريفة الأساس العام لرعاية المصلحة ومن ذلك قوله صلى الله عليـه وسلم : **« لا ضرر ولا ضرار » « يسروا ولا تعسروا » « ان الله يحب أن تؤتى رخصـة كما يحب أن تؤتى عزائمـه »** .

---

(١) تاريخ الاستاذ الامام جا ص ٣١٤ .

(٢) سورة النساء : الايات ٢٦ و ٢٧ و ٢٨ .

« والسلف من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم جروا على مراعاة المصالح فيما لا يحصى من المسائل .

« ومن ذلك ان ابا بكر رضى الله عنه استخلف عمر مع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يستخلف . وجمع صحف القران المتفرقة ولم يجمعها رسول الله صلى الله عليه وسلم وحارب ما نعى الزكاة ، ولم يكن لشرب الخمر حد مقدر فجعله اربعين . وعمر رضى الله عنه لم يستخلف كما استخلف ابو بكر وأسقط سهم المؤلفة قلوبهم فى الصدقات ، وهو ثابت بالنص . واسقط حد السرقة عام المجاعة وهو منصوص . وكان يشاطر من يتهمه من الولاة فى ماله لاختلاط أموالهم الخاصة بأموال استفادوها بسلطان الولاية . وقتل الجماعة بالواحد حين اشتركوا فى قتله ، وأوقع الطلاق الثلاث بلفظ واحد ثلاثا حين تتابع الناس فيه وكان يحسب واحدة قبله . وأفتى بتطليق زوجة المفقود بعد أربع سنين من فقده وانقطاع خبره . ومنع بيع أمهات الأولاد وترك التغريب فى الزنا حين لحق احد المغربين بالروم وتنصر ، ونفى ابن حجاج — وكان شابا جميلا — حين سمع بعض النساء يشبب بما يغريه .

« وعثمان رضى الله عنه جمع المسلمين على مصحف واحد وأحرق ما عداه ، وورث زوجة المطلق الفار منه وتتابع الناس فى شرب الخمر فى زمنه فاستشار الصحابة فى حد الشرب فقال : « من سكر هذى ومن هذى . افترى . فأرى عليه حد المفترين » فاتفقوا على جعله ثمانين .

« واتفق الخلفاء على تضمين الصناع لتهاونهم فيما بأيديهم وحاجة الناس اليهم ، وقال على : « لا يصلح الناس الا ذاك » ، وغير ذلك كثير »(١) .

---

(١) اصول التشريع الاسلامى للاستاذ على حسب الله ص ٨٥ .

وبين الامام أن واجب الحكام النظر فى أحوال الناس واستنباط الأحكام التى تناسب حياتهم .

فان لم يفعلوا ذلك قام العلماء بجمع هذه الأحكام وتقديمها للحكام .

ويقول الامام : « كان ينبغي ان يكون للفقهاء جمعيات يتذاكرون فيها ويتفقون على الراجح الذى ينبغي ان يكون عليه العمل ، واذا كان بعض المسائل رجح لأسباب خاصة بمكان او زمان ينبغى لهم لتنبيه على ذلك ، وأن هذا الحكم ليس عاما وانما سببه كذا ، لا أنهم يجعلون كل ما قيل عن فقيه واجب الاتباع فى كل زمان ومكان »(١) .

وقد أكد رأى الامام فى رعاية المصلحة العامة تلميذه السيد رشيد رضا فذكر رعاية المصلحة فى مواضع كثيرة من تفسير المنار .

يوجز الكلام عنها حينا ويبسط الكلام احيانا وينقل كلام السابقين فى المصالح المرسلة وينقده وينظمه ويعلق عليه .

كتب عند تفسير قوله تعالى : (( **يايها الذين آمنوا لا تسالوا عن اشياء ان تبد لكم تسؤكم وان تسالوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم عفا الله عنها والله غفور حليم**))(٢) .

كتب معلقا على هذه الآية بحثا مستفيضا عن القياس والمصالح المرسلة استغرق ثلاثة وسبعين صفحة(٣) وهو يدل على كثرة

---

(١) تاريخ الاستاذ الامام جـ١ ص ٦٤٥ .

(٢) المائدة آية ١٠٥ .

(٣) من ص ١٣٠ ــ ٢٠٢ جـ٧ : ومن المالوف ان نرى فى تفسير المنار مباحث قيمة متنوعة تناهز المائة صفحة . وتكاد تكون مستقلة عن التفسير .

المعلومات واستقصاء نقاط البحث والدقة التامة فى مواضـع معينة والاحاطة بآراء السابقين وافكارهم ومدى تأثير بعضهم فى بعض ٠

وفى نهاية البحث نقل صاحب المنار كلام الشاطبى فقال تحت عنوان : « ما حرره الشاطبى فى مسالة المصالح »(١) :

« واما الشاطبى فانه جعل الباب الثامن من كتابه الاعتصـام فى التفرقـة بين البدع والمصـالح المرسلة والاستحسان ـ فامـا الاستحسان فاذا لم يرجع الى قياس صحيح أو الى رعاية المصلحة فليس بشىء ٠ واما المصالح المرسلة فقد وافق الشاطبى الأصوليين على عدها مما يسمونه المعنى المناسب ووضحها بعشرة امثلة منها :

١ ـ اتفاق الصحابـة على كتابـة القرآن فى الصحف التى سمى مجموعها المصحف ٠

٢ ـ اتفاقهم على جلد شارب الخمر ثمانين جلدة ـ كذا قال ٠

٣ ـ قضاء الخلفاء الراشـدين بتضمين الصناع ٠ وقولة على رضى الله عنه فى ذلك : لا يصلح الناس الا ذاك ٠

٤ ـ ما ذهب اليه بعض العلماء من الضرب فى التهم ، وما ذهب اليه مالك من السجن فى التهم ، مع أن السجن نوع من العذاب ٠

٥ ـ ما قرره ونقل مثله عن الغزالى وابن العربى من جواز وضع الامام العـادل ضرائب واعانات مؤقتـة عند الضرورة لتكثير الجنود لسـد الثغور وحماية الملك ، اذا لم يوجد فى بيت المـال ما يفى بذلك ٠

٦ ـ اختـلاف العلمـاء فى العقـاب على بعض الجنايات بأخذ المـال ٠

---

(٢) تفسير المنار : جـ٧ ص ١٩٥ ٠

٧ ـ الزيادة على سد الرمق اذا توالت ضرورة الأكل من المحرم كالميتة فى المجاعات ، أو عم الحرام بلدا أو قطرا فى جميع الأموال ، فحينئذ لا ينظر الى أصل المال . بل يؤخذ من الوجه الشرعي كما لو كان أصله حلالا . هذا ملخص معنى ما ذكره وعزى القول به الى ابن العربى وأحال فى بسطه على الغزالى فى الأحياء اى فى كتاب الحلال والحرام من الجزء الثانى منه .

٨ ـ قتل الجماعة بالواحد . قال : والمستند فيه المصلحة المرسلة ، اذ لا نص على عين المسألة ولكنه منقول عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه وهو مذهب مالك والشافعى .

٩ ـ اقامة امام للمسلمين ( خليفة ) غير مجتهد فى الشرع اذا فقد المجتهد على أن العلماء اتفقوا على أن الامامة الكبرى لا تنعقد الا لمن نال رتبة الاجتهاد والفتوى فى علم الشرع ، كما أنهم اتفقوا أو كادوا يتفقون على ان القضاء بين الناس لا يحصل الا لمن رقى فى رتبة الاجتهاد . وهذا صحيح على الجملة . « ولكن اذا فرض خلو الزمان عن مجتهد يظهر بين الناس وافتقروا الى امام يقدمونه لجريان الأحكام وتسكين ثورة الثائرين والحياطة على دماء المسلمين وأموالهم ـ فلابد من اقامة الأمثل ممن ليس بمجتهد » .

ثم بين وجه ذلك وصرح بأنه لا يتجه الا على فرض خلو الزمان عن مجتهد ، وهذه مسألة فيها بحث ، وقد صرح المحققون بأنه لايجوز خلو الزمان عن مجتهد . وليس هذا محل بيان المسألة بل هو لا يتسع لتحقيق مسألة المثال المفروضة أيضا .

١٠ ـ بيعة من لم تتوفر فيه شروط الامامة ابتداء أو استدامتها بعد وجود الكفؤ لها كالقرشى المجتهد الخ خوفا من الفتنة وتفرق الكلمة . وقد ذكر من الشواهد على هذا المثال

مبايعة ابن عمر ليزيد ولعبد الملك بن مروان على كونهما من ائمة الجور واخذهما الملك بالسيف لا باختيار الأمة ، ونهى مالك عن الخروج على أبي جعفر المنصور • وفى هذه المسالة ابحاث من وجوه كثيرة فلا تؤخذ على اطلاقها ، وقدسبق فى تفسير آية المحاربين ( البغاة ) قول وجيزفيها ، واشارة الى بعض مسائلها ، منه أن تحريرها لايمكن الا بمصنف خاص ، ومنه أن الرأى الغالب على الأمم فى هذا العصر أن المصلحة فى الخروج على الملوك المستبدين الجائرين كما فعلت الأمة العثمانية اذ كونت قوة خرجت بها على سلطانها عبد الحميد فسلبت السلطة منه وخلعته بفتوى من شيخ الاسلام فيها •

« ومن دقق النظر فى الأمثلة التى أوردها الشاطبى لمسألة المصالح المرسلة تبين له أن بعضها تدل عليه النصوص أو السنة العملية ، ومنها ما يدل عليه القياس • فمن الأول كتابة القرآن فى مصحف يجمعه كله • فان تسمية الله تعالى اياه كتابا يدل على وجوب كتابته ، واتخاذ النبى صلى الله عليه وسلم الكتاب له يكتبون بأمره كل ما نزل فى وقته يدل على ذلك • وسبب عدم جمع النبى صلى الله عليه وسلم له فى المصحف ظاهر لا يحتاج الى اطالة الفكرة وهو احتمال المزيد فى كل سورة مادام حيا • ولايمكن أن يتصور احد ولا ان يجد شبهة على كون كتابته فى صحف متفرقة هو مطلوب الشارع وانما تلبث أبو بكر رضى الله عنه فى الأمر أولا على عادة اهل الرواية فى الأمور العظيمة •

وناهيك باوائل الأعمال التى تعرض على أصحاب المناصب العليا فى مناصبهم • ومن الثانى حد السكر قيل انه قياس على القذف ، وقيل انه تعزير لا يجب التزام العدد فيه •

« والحق الجلى الظاهر هو أن مسائل المعاملات التى يرجع فيها الى الحكام من قضائية وسياسية وحربية ترجع كلها الى الأصل الذى بينه حديث « **لا ضرر ولا ضرار** » أى رفع الضرر الفردي والمشترك ، ومنه أخذت قاعدة دفع المفاسد وحفظ المصالح ، مع مراعاة ما علم من نصوص الشارع ومقاصده ، وأمثلة هذا فى أعمال الخلفاء الراشدين المالية والادارية والحربية كثيرة جدا ، على أن جماهير الفقهاء يصرحون دائما بارجاع جميع الأحكام الى القاعدة المذكورة آنفا ، فقواعد العز بن عبد السلام الشافعى المشهود له بالاجتهاد المطلق أكثرها يدل على هذه القاعدة .

« وانما فر أكثر علماء الأمة من تقرير هذا الأصل تقريرا صريحا مع اعتبارهم كلهم له ــ كما قال القرافى ــ خوفا من اتخاذ أئمة الجور اياه حجة لاتباع أهوائهم وارضاء استبدادهم فى أموال الناس ودمائهم ، فرأوا أن يتقوا ذلك بارجاع جميع الأحكام الى النصوص ولو بضرب من الأقيسة الخفية . فجعلوا مسألة المصالح المرسلة من أدق مسالك العلة فى القياس ، ولم ينوطوها باجتهاد الأمراء والحكام . وهذا الخوف فى محله ولكنه لم يق الأمة من أهواء الحكام كما ينبغى ، اذ كان يوجد فى عهد كل ظالم من علماء السوء من يمهد له الطريق ولو لبعض ما يريد من اتباع الهوى .

والطريقة المثلى لحفظ الحق واقامة ميزان العدل ، هى رفع قواعد الحكم على الأساس الذى شرعه الله تعالى للمسلمين بقوله « **وامرهم شورى بينهم** » وقوله « **اطيعوا الله واطيعوا الرسول واولى الأمر منكم** » لا بانكار أصل المصالح ، ولا بالتضييق فى تفريع الأحكام عليها . فاذا نيط ذلك باولى الأمر ( أى أهل الحل والعقد ) الذين ينصبون الامام ( الخليفة ) لا يخشى من جعل مراعاة المصالح ذريعة للمفاسد ما يخشى منه فى حال اقرار كل متغلب على

الحكم مع التضييق فى مسالك استنباط الأحكام ، الذى جرى عليه جماهير الفقهاء ، وانما مثار المفاسد كلها أن يوسد الأمر غير أهله ، وأن يقر على الملك كل متغلب ويرضى بتقليده كل جائر جاهل ، فهذا هو الذى أضاع على المسلمين دينهم ودنياهم ٠

## نتيجة ما تقدم :

علم مما تقدم أن المسائل الدينية المحضة وهي العقائد والعبادات تؤخذ من نصوص القرآن وبيان السنة لها بالقول او العمل ٠ على الوجه الذى كان عليه الصدر الأول من الصحابة ، فما اجمعوا عليه فلا عذر لأحد فى مخالفته ، وما اختلفوا فيه ينظر فى دلائله ويرجح بعضه على بعض ولا يلتفت الى الشذوذ ، ولا يجوز بحال من الأحوال احداث عبادة جديدة أو الاتيان بعبادة مأثورة على غير الوجه الذى كان عليه النبى صلى الله عليه وسلم وجمهور أصحابه رضى الله عنهم لا بقياس ، ولا بدعوى اجماع لمن بعدهم ، ولا لمصلحة ، ولا بغير ذلك من العلل والنظريات ، لأن الله تعالى قد اكمل الدين اصوله وفروعه بكتابه وبيان رسوله صلى الله عليه وسلم وأخذنا أن ما سكت عنه فهو عفو منه سبحانه ، فمن زاد من ذلك شيئا كان مراغما لنص القرآن أو طاعنا فى بيان الرسول صلى الله عليه وسلم أو زاعما أنه أكمل منه علما وعملا بالدين ٠

وأما الأمور الدنيوية من حلال وحرام وسياسة وقضاء وآداب فهى تنقسم بحسب الأدلة الى ستة اقسام :

**أولا** ــ ما فيه نص صريح فى الحكم وارد مورد التكليف الشرعى العام ، فالواجب أن يعمل بذلك النص ما لم يعارضه ما هو أرجح منه من النصوص الخاصة بموضوعه او العامة كنفى الحرج ونفى الضرر والضرار ، وكون الضرورات تبيح المحظورات بنص قوله

تعالى : (( الا ما اضطررتم اليه )) وفى هذه الحال يجب على أئمة المسلمين تنفيذه ومؤاخذة من تركه ·

**ثانيا** ــ ما يدل عليه نص صحيح بعمومه أو تعليله أو مفهومه دلالة واضحة أجمع عليها أهل الصدر الأول او عمل بها جمهورهم، وعرف شذوذ من خالف منهم · فالواجب فى هذا عين الواجب فيما قبله ·

**ثالثا** ــ ما ورد فيه نص تكليفى غير صريح · أو حديث غير واه ولا صحيح فاختلفت فيه الصحابة او غيرهم من علماء السلف وائمة الفقه ان كان مما وقع فى زمنهم ــ فمثل هذا يعمل فيه كل مكلف باجتهاد نفسه ويعذر كل من خالفه فيما ظهر له انه الحق فلا يعيبه ولا ينتقده ، كما اختلف السلف فى بعض أحكام الطهارة والنجاسة ولم يعب أحدهم مخالفه فيه ولم يمتنع من الصلاة معه لا اماما ولا مقتديا ، وكما فهم بعض الصحابة من آية البقرة فى الخمر تحريمها وبعضهم عدم تحريمها فعمل كل بما ظهر له ولم يعترض على غيره ·

ومثله ما يستنبطه بعض العلماء من الكتاب والسنة فى كل زمان فمن ظهر له أن ذلك من الدين وأن كلام الله تعالى او سنة رسوله صلى الله عليه وسلم دالة عليه عمل به ومن لم يظهر له ذلك فلا يكلفه تقليدا لمن استنبطه ، وقد نقل عن أشهر المجتهدين من الفقهاء أنه لا يجوز لأحد أن يقلدهم وان يأخذ بشىء من أقوالهم الا اذا عرف مأخذه وظهر له صحة دليله ، وعند ذلك يكون متبعا لما أنزل الله لا لآراء الناس ، فلا يكون مخالفا لقوله تعالى : **(( اتبعوا ما أنزل اليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه اولياء ))** ·

واما ما يتعلق بالأمور العامة من هذا القسم كالأحكام القضائية والسياسية فينبغى أن ينظر اولو الأمر ويتشاوروا فيه من

حيث تصحيح النقل ، ومن حيث طريق الدلالة على الحكم ، فاذا ظهر لهم ما يقتضي الحاقه بأحد الأقسام السابقة ألحقوه به فكان له حكمه ، والا كان كالمسكوت عنه .

**رابعا** – ما ورد فيه نص من الكتاب أو السنة وارد مورد التكليف كالأحاديث المتعلقة بالعادات من الأكل والشرب والطب ونحو ذلك ، فالأولى والأفضل للمسلم ان يعمل بها ما لم يمنع من ذلك مانع من الشرع أو المصلحة والمنفعة العامة أو الخاصة .

**خامسا** – ما سكت عنه الشارع فلم يرد فيه عنه ما يقتضي فعلا ولا تركا فهو الذى عفا الله تعالى عنه رحمة منه وتخفيفا على عباده . « فليس لأحد من عباد الله تعالى ان يكلف عبدا من عبيده تعالى فعل شيء أو ترك شيء بغير اذن منه سبحانه ، وان ما أمرنا الله تعالى به من طاعة اولى الأمر منا خاص بأمور الدنيا ومصالحها ومشروط فيه ألا يكون فى معصية الله تعالى كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم فيما رواه الشيخان فى الصحيحين وأبو داود والنسائى من حديث على كرم الله وجهه : « لا طاعة لأحد فى معصية الله انما الطاعة فى المعروف » واما أمر الدين فقد تم وكمل ، وهو تعالى شارع الدين كما قال : **« شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى اوحينا اليك »** .

وكما قال : **« ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها »** والرسول صلى الله عليه وسلم هو مبلغ الدين كما قال تعالى : **« ان عليك الا البلاغ »** ومبينه كما قال : **« وانزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم »**(١) .

---

(١) تفسير المنار جـ٧ ص ٢٠١ .

## الأســـاس الخـــامس

# اعمـــال النظر واستخدام المنهـــج

## العلمـــى فى البحث والاســـتنباط

هذا المبدأ مرتبط بالمبدأ الســـابق • فلئن كان ترك التقليد مبدأ سلبيا • فان البحث وضم المقدمات اليقينية واستنتاج المجهول منها مبدأ ايجـــابى •

١ ــ وهذا المبدأ يزعم الغربيون أن الفضل فى العمل به يرجع الى العلامة بيكون الفيلسوف الانجليزى ، الذى دعـــا الى المنهج الحديث الذى يقوم على المشاهدة والتفكير المنظم •

ولكن الأستاذ الامام بين فى آكثر من موضـــع أن هذا المنهج قديم جاء به القرآن الكريم • فالقرآن حافل بآيات تدعو الانســـان الى النظر فى الكون وتدبر آياته وعجائبـــه • واعتبار الكون كتابا مفتوحا يقرؤه كل انســـان ويتأمل فى خلق الله ليعرف ان لهذه الصنعة البديعة المحكمة وهذا النظام المنسق والخلق الكامل السليم، خالقا مبدع السموات والأرض وممسكا بنظامهما ، ومدبرا لشـــئون الكون العظيم •

قال تعالى : (( **افلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج** ))(١) .

وقال تعالى : (( **فلينظر الانسان مم خلق . خلق من ماء دافق . يخرج من بين الصلب والترائب . انه على رجعه لقادر** ))(٢) .

وقال عز شأنه : (( **فانظر الى آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها ان ذلك لمحيي الموتى وهو على كل شيء قدير** ))(٣) .

ويقول الأستاذ الامام عند الكلام على تفسير قوله تعالى : (( **هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا ثم استوى الى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شيء عليم** ))(٤) .

« يصور لنا قوله تعالى : ( **خلق لكم** ) قدرته الكاملة ونعمه الشاملة اى قدرة أكبر من قدرة الخالق : واى نعمة اكمل من جعل كل ما فى الأرض مهيأ لنا ومعدا لمنافعنا ؟ وللانتفاع بالأرض طريقان : ( **احدهما** ) الانتفاع باعيانها فى الحياة الجسدية ( **وثانيهما** ) النظر والاعتبار بها فى الحياة العقلية ، والأرض هى ما فى الجهة السفلى أى ما تحت ارجلنا ، كما أن المراد بالسماء كل ما فى الجهة العليا أى فوق رؤوسنا وانا ننتفع بكل ما فى الأرض ، برها وبحرها من حيوان ونبات وجماد ، وما لا تصل اليه أيدينا ننتفع به بعقولنا بالاستدلال به على قدرة مبدعه وحكمته . والتعبير يتناول ما فى الأرض من المعادن بالنص الصريح »(٥) .

---

(١) سورة ق ، آية ٦ .
(٢) سورة الطارق آيات ٥ و ٦ و ٧ و ٨ .
(٣) سورة الروم ٥٠
(٤) سورة البقرة ٢٩ .
(٥) تفسير المنار جـ١ ص ٢٤٧ .

٢ ــ وحسب القرآن الكريم ، وهو كتاب دين ان يوجه الانسان الى هذا الكون واستكناه سره وفهم نظامه ، بل يرشده الى ان الكون قد خلق له وكل شيء مباح في اصله « والأصل في الأشياء الاباحة » .

« بذلك خرج القرآن على تزمت اهل الأديان السابقين ، وضغطهم على حرية الفكر والبحث . وأمرهم بالتسليم والاذعان من غير نقاش او فهم .

ان القرآن جدير بان يسمى كتاب حرية الفكر واحترام العقل وتكوين شخصية الفرد عن طريق بحثه وعلمه واستخدام عقله وفكره »(١) . وهذه الاباحة للنظر والبحث في الكون ، بل هذا الارشاد اليها بالصيغ التى تبعث الهمم وتشوق النفوس ككون كل ما في الأرض مخلوقا لنا محبوسا على منافعنا هو مما امتاز به الاسلام في ترقية الانسان . فقد خاطبنا القرآن بهذا على حين ان اهل الكتاب كانوا متفقين في تقاليدهم وسيرتهم العملية على ان العقل والدين ضدان لا يجتمعان . والعلم والدين خصمان لا يتفقان ، وأن جميع ما يستنتجه العقل خارجا عن نص الكتاب فهو باطل .

ولذلك جاء القرآن يلح أشد الالحاح بالنظر العقلى ، والتفكر والتقدير والتدبر والذكر ، فلا تقرأ منه قليلا الا وتراه يعرض عليك الاكوان ويأمرك بالنظر فيها واستخراج أسرارها واستجلاء حكم اتفاقها واختلافها .

**« ١٠ : ١٠١ قل انظروا ماذا في السموات والأرض » .**

**« ٢٩ ــ ١٩ قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق » .**

---

(١) تفسير المنار جـ١ ص ٢٤٩ .

**« ٢٢ : ٤٦ افلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بهـا » .**

**« ٨٨ : ١٧ افلا ينظرون الى الابل كيف خلقت » .**

الى غير ذلك من الآيات الكثيرة جدا ، واكثار القرآن من شيء دليل على تعظيم شأنه ووجوب الاهتمام به . ومن فوائد الحث على النظر فى الخليقة للوقوف على اسرارها بقدر الطاقة ، واستخراج علومها لترقية النوع الانسانى الذى خلقت هى لأجله ـ مقاومة تلك التقاليد الفاسـدة التى كان عليها اهل الكتاب فاودت بهم وحرمتهم من الانتفاع بما أمر الله الناس أن ينتفعوا به .

« كانت أوربا المسيحية فى غمرة من الجهل ، وظلمـات من الفتن تسيل الدماء فيها انهارا لأجل الدين ، وباسم الدين وللاكراه على الدين ، ثم فاض طوفـان تعصبهـا على المشرق ورجعت بعد الحروب الصليبية تحمل قبسـا من دين الاسـلام وعلوم أهله ، فظهر فيهم بعد ذلك قوم قالوا لنا الحق فى ان نتفكر ، وأن نعلم ان نستدل فحـاربهم الدين ورجاله حربا عوانا انتهت بظفر العلم ورجاله بالدين ورجاله ، وبعد غسـل الدماء المسفوكة ، قام منذ مائتى سنة الى اليوم رجال منهم يسمون هـذه المدنية القائمة على دعائم العلم ، المدنية المسيحية . ويقولون بوجوب محق سائر الأديان ومحوها بعد انهزامها من امام الدين المسيحى لأنها لا تتفق مع العلم وفى مقدمتها الدين الاسـلامى ، وحجتهم على ذلك حال المسلمين ، نعم ان المسلمين أمسوا وراء الأمم كلها فى العلم حتى سقطوا فى جاهلية أشد جهلا من الجاهلية الأولى ، فجهلوا الأرض التى هم عليهـا ، وضعفوا عن استخراج منافعها فجـاء الأجنبى يتخطفها من بين أيديهم وهم ينظرون ، وكتابهم قائم على صراطه يصيح بهم **« هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعـا » « وسخر لكم ما فى السـموات وما فى**

**الأرض جميعا منه** )) (( **قل من حرم زينة الله التى اخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا** )) الآية · وامثال ذلك ، ولكنهم (( **صم بكم عمى فهم لا يعقلون** )) الا من رحم الله ، ولو عقلوا لعادوا ، ولو عادوا لاستفادوا وبلغوا ما أرادوا ، وها نحن أولاء نذكرهم بكلام الله لعلهم يرجعون · ولا نيئس من روح الله (( **انه لا ييئس من روح الله الا القوم الكافرون** ))(١) ·

٣ ــ والاسلام فى مبدئه قائم على الاقتناع والتامل · فالله تعالى يقول : (( **لا اكراه فى الدين** )) · وطالما لفت نظر الانسان الى الأدلة على وحدانيته (( **افحسبتم أنما خلقناكم عبثا** )) · (( **لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا** )) ·

بل ان القرآن يرفض الاسلام اذا كان قولا باللسان ولم يقتنع به القلب والوجدان · قال تعالى :

(( **قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا اسلمنا ولما يدخل الايمان فى قلوبكم** )) ·

والمقلد ــ فى نظر بعض الأئمة ــ لا يصح أن يدفن فى مقابر المسلمين ·

والأستاذ الامام يهاجم لذلك مذاهب المتكلمين وادلتهم على توحيد الله ، ويبين ان علم الكلام على نحو ما كان متداولا فى الأزهر اذ ذاك ــ لا يصلح أن يكون وسيلة لتنشئة العقيدة الصحيحة أو تدعيم الايمان بها ·

« بل اصلح الوسائل لذلك منهج القرآن نفسه فى عرض الدعوة الاسلامية والاستدلال عليها وهو منهج الاقناع القائم على

---

(١) تفسير المنار جـ١ ص ٢٥١ ·

رعاية المظهر العام للطبيعة الانسانية من جانب ، وعلى خصيصة الدين نفسه من جانب آخر ، والطبيعــة الانسانية فى مظهرها العام تتبع أسلوب الاقناع أكثر من ان تتبع قياس المنطق الأرسطى المستخدم فى البرهنة الكلاميــة والذى هو وقف على الخاصــة دون العامــة والدين فى طبيعته يجب أن يكون للكافة وللكثرة من الناس . فأسلوب دعوته يجب أن يبقى فى حدود أفهــام هذه الكثرة ويجب الا يبعد به عن هذه الحدود حتى يكون فهمــه وقفا على الخاصة التى تدربت على منطق عقلى خاص ولون معين من الثقافة(١) .

وقد اتبع الامام هــذا المنهج فى رســالة التوحيد فكتبهــا فى أسلوب سهل ونظمهــا وبوبها وبين فيهــا فوائد الدين ، وتاريخ التوحيد وضرر خلطه بالفلسفة وضرر البحوث التى لا تنشىء عقيدة اسلامية ، ولا يفقهها الا الذى درب على المنطق الأرسطى ، فمــاذا يضير المسلم اذا لقى ربه ولم يعرف هل الصفات هى عين الذات أو غير عين الذات .

وتحدث فيها عن مزايا الدين الاســلامى حديثا طيبا فياضا وبين فيها ميزة الاسلام فى محاربة التقليد . وحث الانســان على اعمال النظر والفكر ، وان تكون عقيدته عن اقتناع وان الاسلام اهاب بالمسلم أن يستغل الأرض ويسيطر على الكون ويحسن الخلافــة فيه . ولا يكون ذلك الا بالعلم بجميع أنواعه .

« أمر الاسلام بالتوحيد فأصبح الانسان عبدا لله خاصة حرا من العبودية لكل ما ســواه . أنحى الاسلام على التقليد ، وصــاح بالعقل صيحة أزعجته من سباته . وهبت به من نومه .

---

(١) دكتور محمد البهى : الفكر الاسلامى المعاصر ص ١٣١ (بتصرف) .

« علا صوت الاسلام على وساوس الطغاة ، وجهر بأن الانسان لم يخلق ليقاد بالزمام ولكنه فطر على أن يهتدى بالعلم والأعلام ـ اعلام الكون ودلائل الحوادث ـ وانما المعلمون منبهون ومرشدون والى طريق البحث هادون · صرف القلوب من التعلق بما كان عليه الآباء · وما توارثه عنهم الأبناء ،وسجل الحمق والسفاهة على الآخذين بأقوال السابقين ، ونبه على أن السبق فى الزمان ليس آية من العرفان ، ولا مسميا لعقول على عقول ولا لأذهان على أذهان ، وانما السابق واللاحق فى التمييز والفطرة سيان ، بل للاحق من علم الأحوال الماضية ، واستعداده للنظر فيها والانتفاع بما وصل اليه من آثارها فى الكون ما لم يكن لمن تقدمه من أسلافه وآبائه · وقد يكون من تلك الآثار التى ينتفع بها أهل الجيل الحاضر ظهور العواقب السيئة لأعمال من سبقهم ، وطغيان الشر الذى وصل اليهم بما اقترفه سلفهم · « ٦ : ١١ **قل سيروا فى الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين** » ·

« وان أبواب فضل الله لم تغلق دون طالب ، ورحمته التى وسعت كل شىء لن تضيق عن دائب · عاب ارباب الأديان فى اقتفائهم أثر آبائهم · ووقوفهم عندما اختطه لهم سير أسلافهم وقولهم « ٣١ : ٢١ » **بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا** ، ٢٣ : ٢٢ **انا وجدنا آباءنا على امة وانا على آثارهم مهتدون** » ·

فأطلق بهذا سلطان العقل من كل ما كان قيده · وخلصه من كل تقليد استعبده ، ورده الى مملكته ، يقضى فيها بحكمه وحكمته مع الخضوع فى ذلك لله وحده والوقوف عند شريعته ولا حد للعمل فى منطقة حدودها ، ولا نهاية للنظر يمتد تحت بنودها ·

بهذا وما سبقه تم للانسان بمقتضى دينه أمران عظيمان طالما حرم منهما ، وهما استقلال الارادة · واستقلال الرأى والفكر ·

وبهذا كملت له انسانيته واستعد لأن يبلغ من السعادة ما هياه الله له بحكم الفطرة التى فطر عليها »(١) ٠

٤ ـ وقد تأثر الأستاذ الامام فى حرية الفكر وابداء الرأى مدرسة من طليعة العلماء حملوا راية النهضة ، وظلوا يحققون قول النبى صلى الله عليه وسلم : **« لن تزال طائفة من أمتى قائمة على الحق لا يضرهم من خالفهم حتى يأتى أمر الله »** ٠

ومن افاضل من تأثروا بالأستاذ الامام ، فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت شيخ الجامع الأزهر ، وسأنقل هنا فصلا من كتابه « منهج القرآن فى بناء المجتمع » ليتضح لنا أثر الامام فيمن جاء بعده من المفسرين ٠

قال الشيخ شلتوت :

« الاسلام(٢) وضع للتهذيب الروحى جملة من الوسائل تعمل كلها على تنقية الفطرة من ألوان الشرك وصوره المختلفة التى تطمس فى القلب صورة التوحيد الخالص ، الذى فطر عليه الانسان وربطت به سعادته فى الدنيا والآخرة ٠

وان من أول ما عنى به الاسلام وأرشد اليه التفكير فى ملكوت السموات والأرض اذ به تعرف الآثار الدالة على جلال مصدرها وكماله فى العلوم والقدرة والسلطان والرحمة ٠ ومن هنا تخضع النفوس عن طريق برهانى عقلى ووجدانى ، لارادة مصدرها رب

---

(١) رسالة التوحيد : تاليف الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده ص ١٨١ ١٨٤ ٠

(٢) منهج القرآن فى بناء المجتمع لفضيلة الاستاذ محمود شلتوت ص ٥٣ ٠

العالمين الرحمن الرحيم ، ويعظم لديها الوعى الدينى الذى يخلق فيها النشاط لطاعتــه ، وتحرى ما يرضـيه فى معاملة النفوس ومعاملة الناس · هذا التفكير الذى دعــا اليه الاسلام للحصول على تلك الغاية لم يكن هو ذلك التفكير الجاف الذى يسخره الانسان فى سبيل المــادة فقط ، ويستخدم آثاره التى يحصــل عليهــا فى العــدوان وتخريب المدائن والعمائر وترويع الآمنين والقضــاء على نعم الله فى خلقه · كما يدرك ذلك الآن المتحسس لنفسيات العــالم فى شرقــه وغربه ، وانما هو تفكير يطمئن القلب ويخدمه قبل أن يخدم العقل ودون ان يروع الآمن · تفكير ينزع بالانسان الى جانب الروحية المهذبة التى تدعوه الى استخدام ما يصل اليه عن طريق التفكير فى المحافظة على الانسانية والأخذ بها الى الكمال الذى قدر لها وخلقت لأجــله ·

وقد كان للقرآن الكريم فى الدعوة الى هذا التفكير اســاليب مختلفة من شأنها مضاعفة الرغبة التى تدفع الانسان اليه · فمن أسلوب يعلن أن الله ما خلق السموات والأرض باطلا لا خير فيه ، وانما خلقهما لغاية قضت بها الحكمــة الالهية فى خلقهمــا وخلق الانسان (( **ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك** ))(١) · (( **وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين لو اردنا أن نتخذ لهوا لاتخذناه من لدنا ان كنا فاعلين ، بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق** ))(٢) ولا باطل ولا لعب أكثر ولا أشــد من الاعراض عن النظر فيما خلق الله · هــذا الاعراض الذى تظل به أسرار الرحمة

---

(١) آل عمران ١٩١ ·
(٢) الانبياء ١٦ ـ ١٨ ·

كامنة فى جوف المخلوقات دون أن تعرف ، ودون أن تظهر بها الرحمة فى خلقه ، وكذلك لا باطل ولا لعب بل لا طغيان ولا عدوان أكثر ولا أشد من معترفها والوصول اليها ، ثم استخدامها فى التخريب والتدمير والقضاء بها على أخضر العالم ويابسه • انقيادا لشهوة زائفة ، أو جبروت كاذب •

ومن اسلوب يعلن أن الله ما خلق العالم على هذا النحو المملوء بالأسرار والسنن التى هيأ الانسان للوصول اليها الا لينتفع الانسان (( **هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا** ))(١) •

وليس من شك فى أن الانتفاع بها ينتظم الانتفاع بأعيانها فى الحياة المادية وبادراكها فى الحياة العقلية ، وبدلالتها فى الحياة الروحية • والآية ترشد بعد هذا الى أن مواطن هذا النفع ليست خاصة بظواهر هذا الكون ، وانما هى مبثوثة فى ظاهره الذى نحصل عليه بمجرد النظر ، وفى باطنه الذى نحتاج الى قوة فى اقتحامه وخوض غماره ، وفى هذا ايحاء بالبحث عما استقر فى باطن الأرض وطبقات الجبال ، وقاع البحار ، وما يحمل الماء والهواء من قوى الانتاج ومواد الصناعة والتعمير ، ومن اسلوب يؤكد للانسان أن الله سخر له هذا الكون وأقدره على استخراج أسراره وجعله فى قبضة يده ومتناول عقله (( **ألم تر أن الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض واسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة** ))(٢) (( **الله الذى سخر لكم البحر لتجرى الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون** ))(٣) (( **فسخرنا له الريح تجرى بامره رخاء حيث**

---

(١) البقرة ٢٩ •
(٢) لقمان ٢٠ •
(٣) الجاثية ١٢ •

**اصاب ))**(١) **(( والنا له الحديد ))**(٢) **(( واصلنا له عين القطر ))**(٣) **(( وانزلنا الحديد فيه باس شديد ومنافع للناس ))**(٤) ٠

ومن أسلوب ينبه احساس الناس الى التطلع نحو بعض المخلوقات ، ذات الشأن فى الحياة ، فيندفع الى تلمس ما اشتملت عليه آيات وأسرار ومنافع وآثار وقد استخدم فى هذا الأسلوب قسم الله ــ الغنى عن القسم ــ بهذه المخلوقات **(( والشمس وضحاها والقمر اذا تلاها والنهار اذا جلاها والليل اذا يغشاها والسماء وما بناها والارض وما طحاها ونفس وما سواها فالهمها فجورها وتقواها ))**(٥) ٠

**(( والعاديات ضبحا فالموريات قدحا فالمغيرات صبحا فاثرن به نقعا فوسطن به جمعا ))**(٦) ٠

ومن اسلوب يوجه الأنظار الى اصول جملة من الثروات التى تتكون منها الاقتصاديات الضرورية فى حياة الأمم ونهضتها ففى الثروة الحيوانية : **(( والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تاكلون ))**(٧) ٠

وفى الثروات النباتية : **(( وهو الذى انشا جنات معروشات وغير معروشات والنخل والزرع مختلفا اكله والزيتون والرمان متشابها وغير متشابه ))**(٨) وفى الثروات المائية **(( وهو الذى سخر**

---

(١) ص ٣٦ ٠
(٢) سبا ١٠
(٣) سبا ١٢ ٠
(٤) الحديد ٢٥ ٠
(٥) الشمس ١ ــ ٨ ٠
(٦) العاديات ١ ــ ٥ ٠
(٧) النحل ٥ ٠
(٨) الأنعام ١٤١ ٠

البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها ))(١) وفى الثروات الجبلية (( ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ))(٢) . ومن هذه الآيات وغيرها وهو كثير واضح فى القرآن الكريم ، يتجلى أن الاسلام قد وجه الانسان الى البحث، وتعرف خواص الكائنات واسرارها ، والانتفاع بها فى بناء الحياة على أساس أنها نعمة من نعم الله ، وآثار رحمته بالشكر والحمد والثناء ، وشكرها الايمان بمصدرها ، واستعمالها فيما ينفع الخلق وعمارة الكون .

وبينما نرى القرآن يدعو الى التفكير على هذا الأساس نراه ينعى خطة الذين فكروا وعرفوا دون أن يتخذوا من تفكيرهم غذاء للقلوب ، مددا للأرواح (( وبنعمة الله يكفرون ))(٣) . (( يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها ))(٤) . (( لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون ))(٥) واذا كان هؤلاء مع بحثهم ، وتعرف أسرار الكون ، فى منزلة الأنعام ، الذين ليس لأرواحهم حظ فيما يحصلون عليه من المنافع المادية . فما بال قوم الغوا عقولهم وسلبوها الاستعداد الفطرى للنظر والبحث ، واكتفوا من النظر بتقليب الوجوه فى بناء السماء وزرقتها . والكواكب وكثرتها والجبال وضخامتها والبحار وأمواجها ، وحرموا أنفسهم من التمتع بالمادة التى تبنى الحياة وبالعلم الذى يغذى العقل . وبالدلالة التى تغذى

---

(١) النحل ١٤ .
(٢) فاطر ٢٧ .
(٣) النحل ٧٢ .
(٤) النحل ٨٣ .
(٥) الاعراف ١٧٩ .

الروح ؟ وكم يضيق الانســان ذرعا حين يرى المســلمين ــ وتلك تعاليم كتابهم وارشاداته ــ فى حرمان من اللذات التى ربط الله بها ســعادة الناس وحثهم على تحصيلها والانتفاع بها ، وكم يشتد ضيقه حين يراهم فيها عالة على غيرهم ، يأخذونها عنهم على انها علومهم ونتائج بحوثهم ، ويأخذونها بمنهجهم فى قطعها عن مصــدرها المنعم بها ، المسخر لها ٠

وقد كان هذا الموقف من المسلمين ، مما هيأ لغيرهم أن يتهموا الاسلام بالجمود ٠ وأنه دين يعترض التقدم ، ولا يسمح بلذة العلم ولا بعزة الحيــاة ، وبذلك اندفعوا الى بلاد الاسلام باسم العمل على تقدمهم ، يختبرون فيها الجبال والوديان ، ويحصلون على الخير من بواطنها ويتخذون لذلك فيها المراكز الشرعية التى بها يستعمرون ٠ الا ان واجب المسلمين اليوم وقد تكشفت نوايا القوم وذاقوا منهم ومن جهلهم بأسرار الكون ما ذاقوا ، ان يستأنفوا لهم حياة جادة عاملة ، عمادها البحث والنظر والانتفاع بما سخر لهم فى مواد الحياة وبذلك يستجيبون لله فى دعوته ويحفظون لأنفسهم سلطان الدنيــا ومكانــة الآخــرة ٠

وانت واجد ان كلا من الأســتاذ الامام الشيخ محمــد عبده وفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت ، يلتقيان على بيان عظمة الاســلام وبيــان خصائصــه وفضائله والاهابة بالمســلمين للتمسك به وتنفيذ أوامره فى البحث والنظر ، والانتفاع بممكناتهم فى الحياة لتكون لهم العزة والمنعة وليستغنوا عن الدخيل المتلصص عليهم ويتمكنوا بانفسهم من استغلال خيرات بلادهم ٠

حقق الله هذه الأماني والجهود ، اللهم آمين ٠

### الأســـاس الســـادس

# تحـــكيم العقـــل

## والاعتمـــاد عليـــه فى فهم القرآن الكريم

ان القرآن قد احترم العقل وناجاه واستشاره ونبهه فى كثير من آياته مثل قوله تعالى : (( **افلا تعقلون** )) • (( **افلا يتدبرون القرآن ام على قلوب اقفالها** )) •

بل انه جعل العقـــل مصـــدرا من مصـــادر التشريع وبين ان اعماله والاهتداء بهديه مما يحقق للانسان الفوز بالجنان والبعد عن النيران ، قال تعالى : (( **وقالوا لو كنا نسمع او نعقل ما كنـــا فى اصحاب السـعير** )) •

فالوحى والعقل كلاهما أثر من آثار الله فى الوجود ، وآثار الله تهدى اليه وتدل عليه ، ولذلك يجب أن ينسجم بعضها مع بعض لمـــا يأتى :

أولا ـ لأنها آثار الكامل كمالا مطلقـــا ، وهو الله سبحانـــه وتعالى ، والعقل البشرى يجعل من المحـــال ان يكون هناك شائبة نقص فى آثار الكامل المطلق • وتناقض الآثار أو تعارضها الصـــادرة من مصدر واحد يدل على عدم الكمال المطلق لهذا المصدر •

**ثانيا** ـ ان الوحى مصـــدر هداية ٠ والعقل الانسانى مصدر هداية وكلاهما يهدف الى تحديد الطريق المستقيم فى الحياة للانسان والى تحديد غايته الأخيرة فى هــذا الوجود ٠ وأمران شأنهما ذلك لابد أن يتوافقا فى التحديد الاجمالى على الأقل بطريق الانســان فى حياته فى وجوده ٠ فان بدا أن هنــاك اختلافا بين تطبيق رسالة الوحى واستخدام العقــل كان منشأ هــذا الاختــلاف اما تحريف رسالة الوحى واما سوء استخدام العقل ، والمحرف للرسالة السماوية هو الانسان هنا وهناك وليس الملك الذى نزل بالوحى ولا الرسول المصطفى لتبليغ الرسالة ٠

طبيعة الوحى يجب أن توافق طبيعة العقل الانسانى اذن ، لأنهما مصــدرا هداية لغاية واحدة من كامل واحد كمالا مطلقا ، وهو الله سبحانه وتعالى ٠

وقد تأثر الأستاذ الامام بالمعتزلة فى استخدام العقل بحرية فى التأويل والتمثيل ٠ وقد ســمى المعتزلة فى تاريخ الاســلام بأهل النظر والفــكر واستخدموا التمثيل والتأويل والتخييل فى آيــات القرآن ليقربوا فهمها أو لتوافق مذهبهم ٠

اما الأستاذ الامام فانه وان وافق المعتزلة فى استخدام العقل ٠ الا أن ذلك لم يكن لتأييد مذهب ٠ أو لتأويل الآيات بما يوافق معتقده السابق ٠ فانه حارب ذلك وحذر من الدخول فى فهم القرآن بعد اعتناق عقيدة سابقة ٠

ولكنه استخدم العقل ليقرب الاســلام وافكاره من العلمــاء المحدثين الذين لا يؤمنون الا بما تقبله عقولهم وما تسلم به مناهجهم العلميــة ٠

## ١ ـ مفهوم الملائكة :

فمن ذلك حديثه عن الملائكة ، وتوضيح مفهومهم ، فعرض في بيان ذلك رأيين سابقين :

**الأول** ـ أنهم خلق غيبي لا تعرف حقيقته . وانما نؤمن باخبار الله تعالى التي تقف عنده ولا نزيد عليه . والقرآن ناطق بأن الملائكة أصناف وأنواع ولكل صنف وظيفة وعمل . وأن من عمل الملائكة الأمر بالخير والهداية اليه والاعانة عليه(١) .

**والثاني** ـ يرويه ناقلا أول الأمر . ولكنه يؤيده ويحبذه لأن فيه تقريبا للايمان بالملائكة من عقول الماديين فيقول : « وذهب بعض المفسرين مذهبا آخر في فهم الملائكة وهو ان مجموع ما ورد في الملائكة من كونهم موكلين بالأعمال من انماء نبات وخلقة حيوان وحفظ انسان فهذا ايماء الى الخاصة بما هو أدق من ظاهر العبارة ، وهو أن هذا النمو في النبات لم يكن الا بروح خاص نفخه الله في البذرة فكانت به هذه الحياة النباتية المخصوصة ، وكذلك يقال في الحيوان والانسان ، فكل امر كلي قائم بنظام مخصوص تمت به الحكمة الالهية في ايجاده ، فانما قوامه بروح الهي . سمي في لسان الشرع ملكا ، ومن لم يبال في التسمية بالتوقيف يسمى هذه المعاني القوى الطبيعية اذا كان لا يعرف من عالم الامكان الا ما هو طبيعة ، أو قوة يظهر أثرها في الطبيعة .

والأمر الثابت الذي لا نزاع فيه هو ان في باطن الخلقة أمرا هو مناطها ، وبه قوامها ونظامها ، لا يمكن لعاقل أن ينكره وان أنكر غير المؤمن بالوحي تسميته ملكا وزعم أنه لا دليل على وجود

---

(١) المنار جا ص ٢٦٦ ـ ٢٦٧ .

الملائكة . أو أنكر بعض المؤمنين بالوحى تسميته قوة طبيعية أو ناموسا طبيعيا ، لأن هذه الأسماء لم ترد فى الشرع ـ فالحقيقة واحدة والعاقل من لا تحجبه الأسماء عن المسميات . فكل يقر بوجود شيء غير ما يرى ويحس ويعترف بأنه لا يفهمه حق الفهم ، ولا يصل بعقله الى ادراك كنهه . وماذا على الذى يزعم أنه لا يؤمن بالغيب وقد اعترف بما غيب عنه لو قال : أصدق بغيب أعرف أثره وان كنت لا أقدره قدره فيتفق مع المؤمنين بالغيب ويفهم بذلك ما ورد على لسان صاحب الوحى ، ويحظى بما يحظى به المؤمنون ؟

يشعر كل من فكر فى نفسه ووازن بين خواطره عندما يهم بأمر فيه وجه للحق او للخير ، ووجه للباطل او للشر ، بأن هناك تنازعا فى نفسه وأن هاتفا يهتف به الخير ، وآخر يدفع به عنه . وهذا الهاتف الداعى الى الخير لا يبعد أن يسميه الله ملكا ، والهاتف بالشر يسمى شيطانا .

والسيد رشيد رضا يبين أن لهذا الرأى أصوله عند الأئمة السابقين فيقول :

« فالامام الغزالى قد سبق الى بيان هذا المعنى وعبر عنه بالسبب وقال انه سمى ملكا ، فانه بعد ما قسم الخواطر الى محمود ومذموم قال :

« ثم انك تعلم أن هذه الخواطر حادثة ، ثم ان كل حادث لابد له من محدث ، ومهما اختلفت الحوادث دل ذلك على اختلاف الأسباب وكذلك لأنوار القلب وظلمته سببان مختلفان ، فسبب الخاطر الداعى الى الخير يسمى ملكا . وسبب الخاطر الداعى الى الشر يسمى شيطانا ، واللطف الذى يتهيأ به القلب لقبول الهام الخير يسمى توفيقا ، والذى يتهيأ به لقبول الشر يسمى اغواء وخذلانا ، فان المعانى المختلفة تحتاج الى أسماء مختلفة » .

قال الأستاذ الامام : فاذا صح الجرى على هذا التفسير فلا يستبعد أن تكون الاشارة فى الآية الى أن الله لما خلق الأرض ودبرها بما شاء من القوى الروحانيــة التى بها قوامها ونظامها . وجعل كل صنف من القوى مخصوصا بنوع من أنواع المخلوقات لا يتعداه ولا يتعدى ما حدد له من الأثر الذى خص به ، خلق بعد ذلك الانسان وأعطاه قوة يكون بها مستعدا للتصرف بجمع هـذه القوى وتسخيرها فى عمارة الأرض . وعبر عن تسخير هـذه القوى له بالسجود الذى يفيد معنى الخضــوع والتسخير ، وجعله بهذا الاستعداد الذى لا حد له ، والتصرف الذى لم يعط لغيره خليفة الله فى أرضــه ، لأنه أكمل الموجودات فى هذه الأرض . واستثنى من هذه القوى قوة واحدة عبر عنها بابليس وهى القوة التى لزها الله بهذا العــالم لزا وهى التى تميل بالمستعد للكمال أو بالكامل الى النقص وتعارض فى اتباع الحق وتصــد عن عمل الخير وتنازع الانسان فى صرف قواه الى المنافع والمصــالح التى تتم بها خلافتــه فيصــــل الى مراتب الكمـــال الوجــودى الذى خلق مســتعدا للوصول اليها .

تلك القوة التى ضلت آثارها قوما فزعموا أن فى العالم الها يسمى اله الشر . وما هى باله ولكنها محنة الاله لا يعلم أسرار حكمته الا هو .

قال الأستاذ الامام معلقا : ولو أن نفسا مالت الى قبول هذا التأويل لم تجد فى الدين ما يمنعها من ذلك ، والعمدة على اطمئنان القلب وركون النفس الى ما أبصرت من الحق .

وقال تلميذه السيد رشيد رضــا : « ان غرض الأســتاذ الامام من هذا التأويل الذى عبر عنه بالايماء وبالاشارة اقناع منكر الملائكة بوجودهم ، بتعبير مألوف عندهم تقبله عقولهم ، وقد اهتدى

به كثيرون ، وضل به آخرون فانكروه عليه وزعموا أنه جهل الملائكة قوى لا تعقل فرد عليهم بأنهم عبيد العادة وأسرى التقليد ، والا فماذا يفهم أحدهم مما يقال لهم « ان الملائكة أجسام نورانية قابلة للتشكل »(١) . كيف تكون جسما ، وما معنى نورانيتها ؟ وهل للنور وحده قوام يكون به شخصا ممتازا بدون أن يقوم بجرم آخر كثيف ثم ينعكس عليه كذبالة المصباح أو سلك الكهرباء !

وما معنى قابليته للتشكل ؟ وهل يمكن للشيء الواحد ان ينقلب في اشكال من الصور مختلفة حسبما يريد ؟ . وكيف يكون ذلك ؟ ألا يقع في حيرة ؟ ولو سئل عما يعتقده من ذلك الا يحدث في لسانه من العقد ما لا يستطيع حله ؟ أليس مثل هذه الحيرة يعد شكا ؟ فلا يعد صاحبها ممن آمن بالملائكة ايمانا صحيحا ؟ .

أليس الوجود الالهي الأعلى من عالم الغيب ، وآثاره في خلقه من عالم الشهادة ؟ أليس هو الذي وهب تلك القوى خواصها وقدر لها آثارها ؟ .

لم لا تقول أيها الغافل : انه بذلك وهبها حياتها الخاصة بها ، ولم قصرت معنى الحياة على ما تراه فيك وفي حيوان مثلك ؟ مع انك لو سئلت عن هذا الذي تزعم انك فهمته وسميته حياة لم تستطع له تعريفا ، ولا لفعله تصريفا ؟ لم لا تقول كما قال وبه نقول « **تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وان من شيء الا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم** » ؟ .

---

(١) هذا هو التعريف المشهور في كتب الكلام وغيرها واول ما يعترض عليه انه لا يصح فيه معنى الجسم في اللغة ولكنه صار مألوفا وان لم يكن مفهوما . أ هـ . نقلا من حاشية المنار ص ٢٧ ، جـ١ .

أفلا تزعم أن لله ملائكة فى الأرض ، وملائكة فى السماء ؟ هـل عرفت اين تسكن ملائكة الأرض ؟ وهل حددت امكنتها ، ورسـمت مساكنها ؟ وهل عرفت أين يجلس من يكون منهم عن يمينك ؟ ومن يكون عن يسارك ؟ هل ترى أجسامهم النورانيـة تضىء لك الظلام أو تؤنسك اذا هجمت عليك الأوهام ؟ فلو ركنت الى انها قوى أو ارواح منبثة فيما حولك وما بين يديك وما خلفك ، وان الله ذكرها لك بما كان يعرفهـا سلفك • وبالعبـارة التى تلقفتها عنهم كيلا يوحشك بما يدهشـك ، وترك لك النظر فيما تطمئن اليه نفسك من وجوه تعرفهـا • افلا يكون ذلك أروح لنفسـك ، وأدعى الى طمأنينة عقلك ؟ - افلا تكون قد ابصرت شيئا من وراء حجاب ، ووقفت على سر من أسرار الكتاب ؟ فان لم تجد فى نفسك استعدادا لقبول أشـعة هذه الحقائق وكنت ممن تؤمن بالغيب ويفوض فى ادراك الحقيقة ويقول ( آمنا به كل من عند ربنا ) فلا ترم طلاب العرفان بالريب ما داموا يصـدقون بالكتـاب الذى آمنت به ، ويؤمنون بالرسـول الذى صدقت برسالته ، وهم فى ايمانهم أعلى منك كعبا ، وارضى منك بربهم نفسا ، الا ان مؤمنا لو مالت نفسه الى فهم ما أنزل اليه من ربه على النحو الذى يطمئن اليه قلبـه كما قلنا كان من دينه فى ثقة ومن فضل ربه فى سعة •

قال السيد رشيد رضـا : الأستاذ الامام بهذا أراد أن يحتج على المـاديين ويقنعهم بصحة ما جـاء به الوحى من طريق علمهم المسلم عندهم • وهو بمثل هذه الأساليب فى الاقناع بحقيقة الدين كان حجـة الله فى العصر حتى قـال له احد نوابغ رجال القضـاء الأذكياء : انك بتفسيرك القرآن بالبيان الذى يقبله العقل ، ولا يأباه العلم قد قطعت الطريق على الذين يظنون أنه قد اقترب الوقت الذى يهدمون فيه الدين ويستريحون من قيوده وجهل رجاله وجمودهم•

ذلك وان ترتيب النظم يلتئم مع التأويل الذى أورده الأستاذ الامام فى السياق فان هذه المعانى التى وردت بصيغة الحكاية وبرزت فى صورة التمثيل جاءت عقب قوله تعـالى : (( **هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا** ))(١) ٠

٢ ــ وافضل انتفاع يستفيده الأستاذ الامام من تحكيم العقل واللجوء اليه فى فهم آيات القرآن فهما متسقا مع المنطق الفكرى المنظم هو استغلاله طريقة التمثيل والتخييل فى فهم ما أشكل من آيات القرآن الكريم :

**( أ ) تاويل سجود الملائكة :**

فمن ذلك تأويل سجود الملائـكة واباء ابليس بتسخـير قوى الأرض للانسان الا قوة الاغراء بالشر عند تفسير الآيات التى تناولت قصة آدم عليه السلام وهى :

**(( واذ قال ربك للملائكة انى جـاعل فى الأرض خليفـة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدمـاء ونحن نسبح بحمـدك ونقدس لك ، قال انى أعلم ما لا تعلمون* وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقـال أنبئونى باسـماء هـؤلاء ان كنتم صادقين * قالوا سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنـا انك أنت العليم الحكيم * قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم باسمائهم قـال الم أقل لكم انى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون * واذ قلنـا للملائـكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس أبى واستكبر وكان من الكافرين * وقلنا يا آدم اسكن انت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين * فازلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنـا**

---

(١) المنار جـ١ ص ٢٧٤ وما قبلها ٠

اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع الى حين﴿
فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه انه هو التواب الرحيم ﴾(١) .

قال الأستاذ الامام :

« مجمل هذه الآيات أن هذا العالم لما استعد لوجود هذا النوع الانساني واقتضت الحكمة الالهية ايجاده واستخلافه فى الأرض آذن الله تلك الأرواح المنبثة فى الأشياء لتدبيرها ونظامها بذلك . وأن تلك الأرواح فهمت من معنى كون الانسان خليفة أنه يفسد النظام ويسفك الدماء حتى اعلمها الله تعالى . ثم أوجد آدم وفضله بتعليمه الأسماء كلها على ان كل صنف من تلك الأرواح الا روحا واحدا هو مبعث الشر ومصدر الاغواء فقد أبى الخضوع ، واستكبر عن السجود لما كان فى طبيعته من الاستعداد لذلك ، والاستعداد فى الشيء انما يظهر بظهور متعلقة .

ثم أمر الله آدم وزوجته بسكنى الجنة والتمتع بها ونهاهما عن الأكل من شجرة مخصوصة واخبرهما ان قربها ظلم . وأن الشيطان ازلهما عنها فاخرجهما مما كانا فيه من النعيم الى ضده ثم ان آدم تاب الى الله من معصيته فقبله . ثم جعل سعادة هذا النوع باتباع . هدى الله ، وشقاءه بتركه .

وقد سيقت هذه الآيات كلها للاعتبار ببيان الفطرة الالهية التى فطر عليها الملائكة والبشر وتسلية النبى صلى الله عليه وسلم عما يلاقى من الانكار والكفار ، كأنه يقول لا تأس يا محمد على القوم الكافرين ، ولا تبخع نفسك على آثارهم ان لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا . فقد كان الضعف فى طباعهم ينتهى اليهم من أول سلف لهم ، تغلب عليهم الوساوس . وتذهب بصبرهم الدسائس،

---

(١) الآيات من ٣٠ الى ٣٧ سورة البقرة .

انظر ما وقع لآدم ، وما كان منه . وسنة الله مع ذلك لا تتبدل ، فقد عوقب آدم على خطيئته باهباطه مما كان فيه ، وان كان قد قبل توبته ، وغفر هفوته ، فالمعصية دائما مجلبة الشقاء ، وقد استقر أمر البشر على ان سعادتهم فى اتباع الهداية الالهية وشقاءهم فى الانحراف عن سبيلها(١) .

**( ب ) تأويل معصية آدم بطريقة التمثيل ، وبيان انها اشارة الى اطوار البشرية :**

قال الأستاذ الامام : وأما مسألة معصية آدم فالجرى على طريقة السلف يذهب بنا الى أن العصيان والتوبة من المتشابه ، كسائر ما ورد فى القصة مما لا يركن العقل الى ظاهره ، ولنا ان نقول : ان تلك المخالفة صدرت منه قبل أن يدركه عزم النبوة كما قال جل شأنه ( **فنسى ولم نجد له عزما** ) والاتفاق انما هو على العصمة عن مخالفة الأوامر بعد النبوة . وقد يكون الذى وقع من آدم نسيانا فسمى تفخيما لأمره عصيانا . والنسيان والسهو مما لا ينافى العصمة ، فان جعلنا الكلام كله تمثيلا فحديث الاخلال بالعصمة مما لا يمر بذهن العاقل .

وأما تفسير الآيات على طريقة الخلف فى التمثيل فيقال فيه : ان القرآن كثيرا ما يصور المعانى بالتعبير عنها بصيغة السؤال والجواب ، أو بأسلوب الحكاية لما فى ذلك من البيان والتأثير ، فهو يدعو بها الأذهان الى ما وراءها من المعانى ، كقوله تعالى ٥٠ : ٣٠ :
**(( يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد ))**
فليس المراد أن الله تعالى يستفهم منها وهى تجاوبه ، وانما هو تمثيل لسعتها وكونها لا تضيق بالمجرمين مهما كثروا ونحوه قوله عز وجل بعد ذكر الاستواء الى خلق السماء ٤١ : ١١ : (( **فقال لها**

---

(١) المنار جـ١ ص ٢٧٦ .

وللأرض ائتيا طوعا او كرها قالتا اتينا طائعين )) والمعنى فى التمثيل ظاهر .

قال الأستاذ الامام : وتقرير التمثيل فى القصة على هذا المذهب هكذا : ان اخبار الله الملائكة بجعل الانسان خليفته فى الأرض هو عبارة عن تهيئة الأرض وقوى هذا العالم وأرواحه التى بها قوامه ونظامه لوجود نوع من المخلوقات يتصرف فيها فيكون به كمال الوجود فى هذه الأرض ـ وسؤال الملائكة عن جعل خليفة يفسد فى الأرض لأنه يعمل باختياره ويعطى استعدادا فى العلم والعمل لا حد لهما : هو تصوير لما فى استعداد الانسان لذلك وتمهيد لبيان انه لا ينافى خلافته فى الأرض ، وتعليم آدم الأسماء كلها بيان لاستعداد الانسان لعلم كل شيء فى هذه الأرض وانتفاعه به فى استعمارها وعرض الأسماء على الملائكة وسؤالهم عنها وتنصلهم فى الجواب ، تصوير لكون الشعور الذى يصاحب كل روح من الأرواح المدبرة للعوالم محدودا لا يتعدى وظيفته ، وسجود الملائكة لآدم عبارة عن تسخير هذه الأرواح والقوى له ينتفع بها فى ترقية الكون بمعرفة سنن الله تعالى فى ذلك ـ واباء ابليس واستكباره عن السجود تمثيل لعجز الانسان عن اخضاع روح الشر وابطال داعية خواطر السوء التى هى مثار التنازع والتخاصم والتعدى والافساد فى الأرض ، ولولا ذلك لجاء على الانسان زمن يكون فيه أفراده كالملائكة بل اعظم ، او يخرجون عن كونهم من هذا النوع البشرى .

واما التمثيل فيما بقى من القصة : فيصح أن يراد بالجنة الراحة والنعيم . ويصح أن يراد بالشجرة معنى الشر والمخالفة .

فسكنى الجنة ، والأكل من الشجرة ثم الندم والتوبة تمثيل للأطوار الفطرية للبشر وهى ثلاثة :

طور الطفولة وهو طور نعيم وراحة ، وطور التمييز الناقص وفيه يكون الانسان عرضة لاتباع الهوى بوسوسة الشيطان ، وطور الرشد والاستواء وهو الذى يعتبر فيه بنتائج الحوادث ويلتجىء فيه عند الشدة الى القوة الغيبية العليا التى منها كل شىء واليها يرجع الأمر كله ، فهكذا كان الانسان فى أفراده مثالا للانسان فى مجموعه ٠

كأن تدرج الانسان فى حياته الاجتماعية ابتدأ ساذجا سليم الفطرة ، قويم الوجه ، مقتصرا فى طلب حاجاته على القصد والعدل ، متعاونا على دفع ما عساه يعييه من مزعجات الكون ، وهذا هو العصر الذى يذكره جميع طوائف البشر ويسمونه بالذهبى ٠

ثم لم يكفه هذا النعيم المرفه فمد بعض افراده أيديهم الى تناول ما ليس لهم ، طاعة للشهوة ، وميلا مع خيال اللذة ، وتنبه من ذلك ما كان نائما فى نفوس سائرهم فثار النزاع وعظم الخلاف، واستنزف الشقاء ، وهذا هو الطور الثانى وهو معروف فى تاريخ الأمم ٠

ثم جاء الطور الثالث وهو طور العقل والتدبر ، ووزن الخير والشر بميزان النظر وتحديد حدود للأعمال تنتهى اليها نزعات الشهوات ويقف عندها سير الرغبات ٠٠ وهو طور التوبة والهداية ان شاء الله (١) ٠

### ٣ ـ مفسرون سابقون يستخدمون التمثيل والتخييل :

وقد كان الشيخ محمد عبده مسبوقا فى استغلاله طريقة التمثيل والتخييل فى فهم آيات القرآن بمفسرين سابقين :

---

(١) المنار جـ١ ص ٢٨٤ وما قبلها ٠

( أ ) فمثلا فى تفسير قوله تعـالى « **انا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فابين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الانسان انه كان ظلوما جهولا** » .

نرى القرطبى ينقل فى تفسيره عن القفال وغيره : « ان العرض فى هذه الآية ضرب مثل ، أى أن السموات والأرض على كبر أجرامها، لو كانت بحيث يجوز تكليفها لثقل عليها تقلد الشرائع » ثم يقول : « وقال قوم ان الآية من المجـاز أى اننا اذا قايسنا ثقل الأمانـة بقوة السموات والأرض والجبـال ، لراينا انها لا تطيقها وانهـا لو تكلمت لأبت واشفقت فعبر عن هـذا المعنى بقوله : ( انـا عرضنا الأمانة ) الآية ، وهذا كما تقول عرضت الحمل على البعير فاباه ، وانت تريد قايست قوته بثقل الحمل فرايتها تقصر عنه(١).

( ب ) ويذكر الزمخشرى فى الكشاف عند تفسيره لهذه الآية رايين :

الأول ــ ملخصه أن الأمانة عرضت على السموات والأرض والجبال فابين الا ان يؤدينها وابى الانسـان الا أن يكون محتمـلا لها لا يؤديهـا ، فحمل الأمانـة بمعنى أنه يحتملهـا فلا يؤديهـا الى صاحبهـا .

والراى الثـانى ــ يخرجها على سبيل التأويل والتمثيـل « وأن ما كلفه الانسان بلغ من عظمته وثقل محمله أنه عرض على أعظم ما خلق الله من الأجرام واقواه وأشده أن يتحمله ويستقل به فابى حمله والاستقلال به وأشفق منه وحمله الانسـان على ضعفه ورخاوة قوته « **انه كان ظلوما جهولا** » . حيث حمل الأمانة ثم لم يف بها وضمنها ثم خاس بضمانه فيها . ونحو هـذا الكلام كثير

---

(١) ص ٢٥٦ جـ١٤ من تفسير القرطبى ـ طبعة دار الكتب المصرية .

فى لسان العرب وما جاء القرآن الا على طرقهم واساليبهم ، من ذلك قولهم لو قيل للشحم أين تذهب لقال أسوى العوج ، وكم لهم من امثال على ألسنة البهائم والجمادات . وتصور مقالة الشحم محال ولكن الغرض أن السمن فى الحيوان مما يحسن قبحه كما أن العجف مما يقبح حسنه فصور أثر السمن فيه تصويرا هو أوقع فى نفس السامع وهى به آنس وله أقبل وعلى حقيقته أوقف وكذلك تصوير عظم الأمانة وصعوبة امرها وثقل محملها والوفاء بها .

( فان قلت ) قد علم وجه التمثيل فى قولهم للذى لا يثبت على رأى واحد أراك تقدم رجلا وتؤخر أخرى ، لأنه مثلت حاله فى تميله وترجحه بين الرايين وتركه المضى على أحدهما بحال من يتردد فى ذهابه فلا يجمع رجليه للمضى فى وجهته ، وكل واحد من الممثل به والممثل شىء مستقيم داخل تحت الصحة والمعرفة وليس كذلك ما فى هذه الآية فان عرض الأمانة على الجماد واباءه واشفاقه محال فى نفسه غير مستقيم فكيف صح بناء التمثيل على المحال وما مثال هذا الا أن تشبه شيئا والمشبه به غير معقول ( قلت ) الممثل به فى الآية وفى قولهم لو قيل للشحم أين تذهب وفى نظائره مفروض ، والمفروضات تتخيل فى الذهن كما المحققات مثلت حال التكليف فى صعوبة وثقل محمله بحاله المفروضة لو عرضت على السموات والأرض والجبال لأبين أن يحملنها واشفقن منها »(١) .

( جـ ) وفى قوله تعالى : « ثم استوى الى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين » يقول الزمخشرى فى تأويلها : « ومعنى أمر السماء والأرض بالاتيان

---

(١) الكشاف جـ٣ ص ٢٩٤ ـ ٢٥٠ .

وامتثالها أنه اراد تكوينهما فلم يمتنعا عليه ووجدتا كما ارادهما وكانتا فى ذلك كالمأمور المطيع اذا ورد عليه فعل الآمر المطاع وهو من المجاز الذى يسمى التمثيل ، ويجوز ان يكون تخييلا ويبنى الأمر فيه على ان الله تعالى كلم السماء والأرض وقال لهما ائتيا شئتما ذلك أو أبيتماه فقالتا اتينا على الطوع لا على الكره ، والغرض تصوير اثر قدرته فى المقدورات من غير أن يحقق شىء من الخطاب والجواب ونحوه قول القائل قال الجدار للوتد لم تشقنى قال الوتد اسأل من يدقنى فلم يتركنى ورائى الحجر الذى ورائى »(١) .

( د ) وفى قوله تعالى : **« لو انزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله »** .

يقول الزمخشرى : « هذا تمثيل وتخييل كما مر فى قوله تعالى **« انا عرضنا الأمانة »** . وقد دل عليه قوله : **« وتلك الأمثال نضربها للناس »** والغرض توبيخ الانسان على قسوة قلبه وقلة تخشعه عند تلاوة القرآن وتدبر قوارعه وزواجره « وتلك الأمثال » اشارة الى هذا المثل والى أمثاله فى مواضع من التنزيل »(٢) .

( هـ ) وفى قوله تعالى : **« واذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا ان تقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين »** .

يقول الزمخشرى : « ومعنى اخذ ذرياتهم من ظهورهم اخراجهم من أصلابهم نسلا واشهادهم على أنفسهم وقوله **« ألست بربكم قالوا بلى شهدنا »** من باب التمثيل والتخييل ، ومعنى ذلك أنه

---

(١) الكشاف ص ٣٨٥ جـ٢ مطبعة مصطفى محمد ط ١ سنة ١٣٥٤ هـ .

(٢) الكشاف ص ٨٥ جـ ٤ مطبعة مصطفى محمد ط ١ سنة ١٣٥٤ هـ .

نصب لهم الأدلة على ربوبيته ووحدانيته وشهدت بها عقولهم وبصائرهم التى ركبها فيهم وجعلها مميزة بين الضلالة والهدى فكأنه أشهدهم على أنفسهم وقررهم وقال ألست بربكم وكأنهم قالوا بلى أنت ربنا ، شهدنا على أنفسنا اقررنا بوحدانيتك ، وباب التمثيل واسع فى كلام الله تعالى ورسوله عليه السلام وفى كلام العرب ونظيره قوله تعالى : « **انما قولنا لشىء اذا أردناه أن نقول كن فيكون** » « **فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين** » وقوله : « **اذ قالت الانساع للبطن الحق قالت لها ريح الصبا قرقار** » ومعلوم أنه لا قول ثم وانما هو تمثيل وتصوير للمعنى »(١) .

## الفرق بين منهج الامام ومنهج المفسرين

مما نقلناه عن الكشاف يتبين لنا أن الشيخ محمد عبده كان متأثرا بالزمخشرى فى استخدام التمثيل والتأويل فى فهم القرآن ، ولكن هناك فارقا واضحا بينهما .

فالزمخشرى كان يستغل ذلك ليوافق النص العقل من جهة وليؤيد بتأويله مذهب المعتزلة من جهة أخرى .

اما الأستاذ محمد عبده ، فقد كان يخرج الآيات على سبيل التمثيل او التأويل ليوافق النص العقل . بينما حارب تأويل القرآن واستخدامه لتأييد المذاهب الكلامية ، وحذر كثيرا من الدخول فى بحث القرآن بعد الاعتقاد بعقيدة مذهبية سابقة أو تأويل آياته لتوافق مذهبا معينا « وتحريف الكتاب المنزل بتخريج نصوصه تخريجا يبعدها عن هدفه تحت التأثير بعوامل شخصية أو مذهب

---

(١) الكشاف ص ١٠٣ ج٢ مطبعة مصطفى محمد ط ١ سنة ١٣٥٤ هـ .

معين عمل من شأنه ان يحول بين انسجام الكتـاب المنزل والعقل السليم للانسان ٠

« والدخول فى بحث الكتـاب المنزل والرسـالة الالهيـة بعد الاعتقاد بعقيدة خاصة أو قبل التخلى عن المؤثرات المغرضـة ٠ يجعل من الصعب أن يوافق مثل هـذا العقل الباحث أهداف الكتـاب السماوى ورسالة الله فى جماعة الانسان والانسان هو الذى خرج الكتاب تخريجا فيه بعد أو مجافاة لهدفه ٠ والانسان نفسـه هو الذى مال بالعقل الانسانى نحو عقيدة خاصـة أو وجهة معينـة وانحرف به عن أن يكون العقل الخاص الذى فطر الانسان عليه ٠ وبذلك يكون الانسان نفسه هو الذى حال دون أن يوافق الكتاب عقله والعقل الكتـاب ، وليست طبيعـة كل منهما هى التى حالت دون ذلك »(١) ٠

٤ ـ تأثر الامام بالمؤلفين الفرنسيين :

وقد كان الامام الأستاذ متأثرا فى حديثه عن المعجزات والنبوات بالمؤلفين الفرنسيين ٠ فهو يحـاول أن يقرب الى الأذهان المعجزات الالهية ويعلل وقوعها بما يوافق العلم والعقل ٠ ويقربها من خضوع الأسباب للمسببات فمن ذلك حديثـه عن خلق عيسى من غير أب حيث يقول(٢) ويمكن تقريب هذه الآية الالهية من السنن المعروفة فى نظام الكون بوجهين :

الوجه الأول ـ أن الاعتقاد القوى الذى يستولى على القلب وعلى المجموع العصبى يحدث فى عالم المـادة من الآثار ما يكون على

---

(١) الدكتور محمد البهى ٠ الفكر الاسلامى المعاصر ، موضوع محمد عبده ٠

(٢) جـ ٣ ص ٣٠٩ ، تفسير المنار ٠

خلاف المعتاد . فكم من سليم اعتقد انه مصـاب بمرض كذا وليس في بدنه شيء من جراثيم هـذا المرض فولد له اعتقاده تلك الجراثيم وصار مريضـا ، وكم امرئ سقي المـاء القراح أو نحوه فشربه معتقدا أنه سم ناقع فمات مسموما به ، والحوادث في هذا البـاب كثيرة أثبتتها التجـارب ، واذا اعتبرنا بهـا في أمر ولادة المسيح نقول : ان مريم لمـا بشرت بأن الله تعـالى سيهب لها ولدا بمحض قدرته ، وهي على ما هي عليه من صحة الايمان وقوة اليقين ، انفعل مزاجها بهذا الاعتقاد انفعالا فعل في الرحم فعل التلقيح ، كما يفعل الاعتقاد القوي في مزاج السليم فيمرض أو يموت ، وفي مزاج المريض فيبرأ وكان نفخ الروح الذي ورد في سـورة اخرى متمما لهـذا التـأثير .

الوجه الثاني ــ وهو اقرب الى الحق وان كان اخفى وأدق وبيانه يتوقف على مقدمة وجيزة في تأثير الأرواح في الأشـباح وهي أن المخلوقات قسمان : أجسام كثيفة وارواح لطيفة ، وأن اللطيف هو الذي يحدث في الكثيف الحي ما نراه فيه من النمو والحـركة والتوالد الذي يكون من النمو أو يكون النمو منه . فلولا الهواء لمـا عاشت هذه الأحياء ، والهواء روح ، ولذلك كان من أسـمائه اذا تحرك الريح ، واصلها روح بكسر الراء ولأجل الكسر قلبت الواو ياء لتناسـبه . والمـاء الذي منه كل شيء حي من روحين لطيفين وهو يكاد يكون في حال التركيب وسطا بين الكثيف واللطيف ولكنه أقرب الى الثاني ، والكهربائية من الأرواح وناهيك بفعلها في الأشباح فهذه الموجودات اللطيفـة التي سميناها أرواحا هي التي تحـدث معظم التغيير الذي نشاهده في الكون ، حتى اننا قد راينا في هـذا العصر من اسرارهـا ما لم يكن يخطر على بـال احد من قدمـاء فلاسفتنا . ويعتقد علماؤنا اليوم أن ما سيظهر منها في المسـتقبل

اجل وأعظم . فاذا كان الأمر كذلك فى الأرواح التى لا دليل عندنا على أنها تدرك وتريد ، فلم لا يجوز أن يكون تأثير الأرواح العاقلة المريدة أعظم ؟ .

اذا تمهد هـذا فنقول : ان الله المسخر للأرواح المنبثـة فى الكائنات قد أرسل روحا من عنده الى مريم فتمثل لها بشرا ونفخ فيها فأحدثت نفخته التلقيح فى رحمها ، فحملت بعيسى عليه السلام وهل حملت اليها تلك النفخة مادة أم لا ؟ الله اعلم ، اما البحث فى تمثل هذه الأرواح التى تسمى فى لسان الشرع الملائكة(١) ، فسيأتى الكلام عليه فى تفسير قوله تعالى ١٩ : ١٧ (( **فارسلنا اليها روحنا فتمثل لها بشر سويا** )) .

اذا انسأ الله لنا فى الأجل ووفقنا للمضى فى هذا العمل .

وقد انتقل رحمة الله الى جوار ربه قبل أن يصـل فى تفسيره الى هـذا المكان .

وأنت اذا دققت النظر فى الموضـوع ، رايته فى حقيقته معجزة من الله اراد أن يثبت بها أن أوامره لا تخضـع لأسباب الناس وانه على كل شىء قدير . وأن أمره كن فيكون .

والمعجزة فى تعريفها امر خارق للعادة ، والله تعالى قال هـذا فى كتابه : (( **ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون** )) ونحن اذا استطعنا أن نعلل خلق عيسى بما يقربه من السنن المعروفة فى نظـام الكون ، فماذا عسى نصنع فى تعليل خلق آدم ؟ الا يكون من الأولى أن تسلم بهذه الأشياء على انها أثر من قدرة الله وهى فوق القدر ، ومن ارادة الله ، والله فعال لما يريد،

---

(١) انظر أوائل الأساس السـادس : ( تحكيم العقل ) فقرة : ( مفهوم الملائـكة ) .

ومما يعجز العقل عن ادراك سره • وان سلم به وبأثره • والانسان لا يدرك الكهرباء وان أدرك أثرها • فأولى أن يسلم بسر الصنعة الحكيمة الى صانعها •

والأستاذ الامام نفسه ذكر فى رسالة التوحيد ان المعجزة لا تخضع لقانون الأسباب والمسببات « والمعجزة ليست من النوع المستحيل عقلا فان مخالفة السير الطبيعي المعروف فى الايجاد مما لم يقم دليل على استحالته • بل ذلك مما يقع كما يشاهد فى حالة المريض يمتنع عن الأكل مدة لو لم يأكل فيها وهو صحيح لمات مع وجود العلة التى تزيد الضعف وتساعد الجوع على الاتلاف • فان قيل ان ذلك لابد ان يكون تابعا لناموس آخر طبيعى قلنا ان واضع الناموس هو موجد الكائنات فليس من المحال عليه أن يضع نواميس خاصة بخوارق العادات ، غاية ما فى الأمر أننا لا نعرفها ولكننا نرى أثرها على يد من اختصه الله بفضله على أننا بعد الاعتقاد بأن صانع الكون قادر مختار يسهل علينا العلم بأنه لا يمتنع عليه أن يحدث الحادث على اى هيئة وتابعا لأى سبب اذا سبق فى علمه أنه يحدثه كذلك •

المعجزة لابد أن تكون مقرونة بالتحدى عند دعوى النبوة وظهورها من البراهين المثبتة لنبوة من ظهرت على يده لأن النبى يستند اليها فى دعواه أنه مبلغ عن الله فاصدار الله لها عند ذلك يعد تأييدا منه له فى تلك الدعوى • فمتى ظهرت المعجزة ـ وهى مما لا يقدر عليه البشر ـ وقارن ظهورها دعوى النبوة علم بالضرورة أن الله ما اظهرها الا تصديقا لمن ظهرت على يده وان كان هذا العلم قد يقارنه الانكار مكابرة »(١) •

---

(١) رسالة التوحيد ص ١٠٠ •

**٥ ـ رأى الامام فى القصة :**

والاستاذ الامام يخرج القصة احيانا عن مدلولها الحقيقى التاريخى الى مدلول تشريعى وتأويل عقلى ، حتى يقبلها المنكرون ويصدق بها المكذبون ٠

ومن ذلك تفسيره لقوله تعالى : (( **واذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها الله مخرج ما كنتم تكتمون ※ فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيى الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون** )) ٠

قال الامام فى تفسيرها(١) (( هذا هو اول القصة المحتوية على المخالفة وهى القتل ثم التنازع فى القاتل ٠ ثم تشريع الحكم لكشف الحقيقة بذبح البقرة وتشددهم فى السؤال عن أوصافها ، فقوله تعالى : ( **واذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها** ) أسند فيه القتل الى الأمة ، وان كان القاتل واحدا باعتبار ما تقدم من كونها فى مجموعها وتكافلها كالشخص الواحد ٠ والتدارؤ تفاعل من الدرء وهو الدفع ، فمعناه التدافع وهو يدل على أنه كان خصام واتهام ، وكان كل يدرأ عن نفسه ويدعى البراءة ويتهم غيره ، وكان للقاتلين والعارفين بهم حظوظ وأهواء كتموا فيها الحقيقة ولذلك قال تعالى بعد التذكير بالجريمة ( **والله مخرج ما كنتم تكتمون** ) أى من الايقاع ببرآءة من تتهمونهم بالقتل لاخفاء القاتل لأنه لا يخفى عليه مكركم ٠

وأما قوله : ( **فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيى الله الموتى** ) فهو بيان لاخراج ما يكتمون ٠ ويروون فى هذا الضرب روايات كثيرة قيل ان المراد اضربوا المقتول بلسانها وقيل بفخذها وقيل بذنبها٠٠ وقالوا انهم ضربوه فعادت اليه الحياة وقال : قتلنى أخى أو ابن

---

(١) المنار جـ١ ص ٣٥٠ ٠

أخى فلان الخ ما قالوا . والآية ليست نصا فى مجمله فكيف بتفصيله . والظاهر مما قدمنا أن ذلك العمل كان وسيلة عندهم للفصل فى الدماء عند التنازع فى القاتل اذا وجد القتيل قرب بلد ولم يعرف قاتله ليعرف الجانى من غيره ، فمن غسل يده وفعل ما رسم لذلك فى الشريعة برىء من الدم ومن لم يفعل ثبتت عليه الجناية . ومعنى احياء الموتى على هذا حفظ الدماء التى كانت عرضة لأن تسفك بسبب الخلاف فى قتل تلك النفس اى يحييها بمثل هذه الأحكام . وهذا الاحياء على نحو قوله تعالى ٥ : ٣٢ (( **ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا** )) وقوله (( **ولكم فى القصاص حياة** )) فالاحياء هنا معناه الاستبقاء كما هو المعنى فى الآيتين . ثم قال (( **ويريكم آياته** )) بما يفصل فى الخصومات ويزيل من أسباب الفتن والعداوات ، فهو كقوله تعالى : ١٣ : ٥١ (( **انا انزلنا اليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما اراك الله** )) وأكثر ما يستعمل مثل هذا التعبير فى آيات الله فى خلقه الدالة على صدق رسله ( لعلكم تعقلون ) اى تفقهون أسرار الأحكام وفائدة الخضوع للشريعة ، فلا تتوهموا ان ما وقع مختص بهذه الواقعة فى هذا الوقت ، بل يجب أن تتلقوا أمر الله فى كل وقت بالقبول من غير تعنت .

فالأستاذ الامام كما نرى يريد ان يفسر الحياة بأنها حياة معنوية . وفى هذا اخراج للفظ عن مدلوله الظاهر الى معنى متأول والحمل على الحقيقة أولى » ويجب أن نقف عند ما ورد فى القرآن الكريم مع الاحتفاظ بدلالة الألفاظ اللغوية على معانيها وافادتها لواقع هى تعبير صحيح عنه »(١) .

---

(١) فضيلة الاستاذ الاكبر الشيخ محمود شلتوت : تفسير سورة البقرة بمجلة رسالة الاسلام .

قال الأستاذ الامام « يقول أهل الشبهات فى القرآن : ان بنى اسرائيل لا يعرفون هذه القصـة اذ لا وجود لها فى التوراة فمن أين جاء بها القرآن »(١) ونقول : ان القرآن جاء بها من عند الله الذى يقول فى بنى اسرائيل المتأخرين : انهم نسـوا حظا مما ذكروا به وانهم لم يؤتوا الا نصيبا الا من الكتـاب • على أن هـذا الحكم منصوص فى التوراة وهو أنه اذا قتل قتيل لم يعرف قاتله فالواجب ان تذبح بقرة غير ذلول فى واد دائم السيلان ويغسل جميع شيوخ المدينة القريبـة من المقتل أيديهم على العجلة التى كسر عنقها فى الوادى • ثم يقولون ان أيدينا لم تسفك هـذا الدم ، اغفر اشعبك اسرائيل ويتمون دعوات يبرأ بها من يدخل فى هذا العمل من دم القتيل ، ومن لم يفعل يتبين أنه القاتل ، ويراد بذلك حقن الدماء • فيحتمل أن يكون الحـكم هو من بقايا تلك القصـة أو كانت هى السبب فيه •

وما هذه بالقصة الوحيدة التى صححها القرآن ، ولا هـذا الحكم بالحكم الأول الذى حرفوه أو أضاعوه وأظهره الله تعالى •

وذكر تلميذه السيد الأسـتاذ رشيد رضـا نص الحكم من التوراة فقال : « ان ما اشـار اليه الأستاذ الامام من حكم التوراة المتعلق بقتل البقرة هو فى أول الفصل الحادى والعشرين من سفر تثنية الاشتراع ونصه :

١ ـ اذا وجد قتيل فى الأرض التى يعطيك الرب الهك لتمتلكها واقعا فى الحقل لا تعلم من قتله •

٢ ـ ويخرج شـيوخك وقضـاتك ويقيسون الى المدن التى حول القتيل •

---

(١) تفسير المنار جـ١ ص ٣٤٧ •

٣ ـ فالمدينة القربى من القتيل يأخذ شيوخ تلك المدينة عجلة من البقر لم يحرث عليها لم تجر بالنير ٠

٤ ـ وينحدر شيوخ تلك المدينة بالعجلة الى واد دائم السيلان لم يحرث فيه ولم يزرع ويكسرون عنق العجلة فى الوادى ٠

٥ ـ ثم يتقدم الكهنة بنى لاوى لأنه اياهم اختار الأب الهك ليخدموه ويباركوا باسم الرب وحسب قولهم تكون كل خصومة وكل ضربة ٠

٦ ـ ويغسل جميع شيوخ تلك المدينة القريبين من القتيل أيديهم على العجلة المكسورة العنق فى الوادى ٠

٧ ـ ويصرخون ويقولون : أيدينا لم تسفك هذا الدم واعيننا لم تبصره ٠

٨ ـ اغفر لشعبك اسرائيل الذى فديت يارب ٠ ولا تجعل دم برىء فى وسط شعبك اسرائيل ٠ فيغفر لهم الدم أ هـ(١) ٠

**رد على الامام :**

هذا هو نص ما ورد فى التوراة وهو صريح فى أن هذا التشريع وهو ذبح بقرة من أجل معرفة القتيل المجهول ـ كان معروفا عند بنى اسرائيل ٠ فلا يمنع أن تكون آية القرآن تشير الى قصة تاريخية كانت أصل هذا التشريع عند بنى اسرائيل ٠ وتعبير الآية نفسه صريح فى أن الاحياء فى قوله تعالى : (( **كذلك يحيى الله الموتى** )) احياء حقيقى بعد موت تسلب فيه الروح وليس احياء حكميا يحصل بمعرفة القاتل والاقتصاص منه حتى يكون بمثابة « ولكم فى القصاص حياة » كما يريد الشيخان ، ولو كان الأمر

(١) تفسير المنار جا ص ٣٤٨ ٠

كما يقرران لما صح تقرير احياء الموتى للبعث والجزاء بهذا النوع من الاحياء الحكمي المجازى . ولو أن قائلا قال : « ان الله يحيى النفوس الجاهلة بالعلم ، وكذلك يحيى الموتى من قبورهم ، لما كان مثل هذا التشبيه والقياس سائغا ، وان قوله تعالى « ويريكم آياته » لواضح فى الاراءة البصرية للآيات الكونيـة لا فى الاراءة العقليـة للأحكام الشرعية حتى يكون من قبيل « لتحكم بين النـاس بما اراك الله » .

وكل هذا لا يتفق وما يريده الشيخان من حمل الآية على المعنى التشريعى فهذا الحمل تأويل منهما ولكنه تأويل لا تساعد عليه اللغة وما هو المعهود من كلام العرب .

« والتأويل اذا كان لا يقضى على أصـل دينى ولا يمس عقيدة ثابتة وهو فى الوقت نفسه يحتفظ للعبـارة القرآنية بواقع تعبر عنه تعبيرا صادقا وكانت اللغـة تسمح به فانه يكون مقبولا من الوجهتين الدينية واللغوية . واذا لم تسمح به اللغة فهو مرفوض من هذه الجهـة ، صادر عن جهل من صاحبـه بقـانون التأويل ومرفوض أيضا من جهـة ما يلزمه من الحـكم بصـدور التلبيس من الله ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا . أما اذا كان يقضى على اصل دينى أو يمس عقيدة فانه يكون مرفوضا أيضا من الوجهـة الدينيـة »(١) .

## ٦ ـ رأى الامام فى الجن والسحر وتقديس الأولياء :

والاستاذ الامام مقتنع تماما بأن الدين المملوء بالخرافات والعقل المستنير لا يجتمعان فى دماغ واحد ، فلا يمكن ان يشتمل القرآن

---

(١) مجلة رسالة الاسلام ص ٢٣٦ العدد الثالث السنة الاولى موضوع تفسير سورة البقرة للاستاذ الجليل الشيخ محمود شلتوت .

على شيء من الخرافات ولا يمكن أن يتعارض القرآن مع العقل الرشيد ٠

ولذلك فانه هاجم كثيرا من الخرافات الشائعة بين جماهير العامة من المسلمين : عن الجن والسحر والحسد والشفاعة وكرامات الأولياء ٠

وكان متأثرا فى ذلك بابراز الاسلام فى صورة جميلة متحضرة من جهة وتتلاءم مع التفكير الاستشراقى الذى يحترم العقل ويعتمد عليه ولا يقبل من الأشياء الا ما طابق طرق البحث العلمى من جهة أخرى :

١ - الجن :

والجن تحدث عنهم القرآن ، ولكن لم يتحدث عنهم بالكثرة التى تحدث بها عن الانسان ٠ فان القرآن يهدف فى حديثه عن الانسان الى بيان ان الدنيا كلها خلقها الله من أجل الانسان ، وسخر له كل ما فى الكون واقدره على الانتفاع به ٠ وميزه بميزة العقل والتفكير وجعل طاعة الانسان لله تفضل جميع الطاعات لأنها صادرة عن عقل وارادة ٠

فاذا تحدث القرآن بعد ذلك عن الجن أو الملائكة أو غيرهما فانه يتحدث عنهم على أنهم شيء ثانوى فى هذا الكون ٠

ولكن الخرافات التى كانت تدور فى أذهان العامة عن قدرة الجن على التلبس بالأشخاص ، والاستعانة بهم فى مهام الأمور وفى عقد المحبة بين الزوجين ، وفى القدرة على عمل غرائب الأشياء جعلت الزار ينتشر بين جماهير العامة ، فضلا عن الخاصة ، والزار بدعة تدور على وهم خاطىء واعتقاد أن الجن يتلبسون جسم

المريض ، خصوصـا المرضى بالأمراض العصبية ، ولا تخرج الجن الا بتقديم الضحايا وعمل حفـلات للطبل والرقص وما يتبع ذلك من مسـاخر ٠

وقد كان الأستاذ الامام منهجيا فى بيانه لحقيقة الجن :

فهو لم يقل بما قـال به بعض المعتزلة من انكارهـم للجن أو انكار اى أثر لهم بالكلية فى هذا الكون ، وانما شدد النكير على الخرافات التى تتصل بالجن ٠ وجوز ان يكون لهم اثر فيما يسـمى بالصرع ، بل انه ذكر اكثر من مرة فى تفسيره ان الجن يمكن ان تطلق على الميكروب الخفى الذى يسبب كثيرا من الأمراض ٠ فعند تفسيره لقوله تعالى : (( **ان الذين ياكلون الربا لا يقومون الا كمـا يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس** )) ، يقول (( وأما قيـام آكلى الربا كما يقوم الذى يتخبطـه الشيطان من المس فقد قال ابن عطيه فى تفسيره : المراد تشبيه المرابى فى الدنيـا بالمتخبط المصروع كما يقال لمن يصرع بحركات مختلفة قد جن » وهو قول ظاهر فى نفسه فان اولئك الذين فتنهم المـال واستعبدهم حتى ضربت نفوسـهم بجمعه وجعلوه مقصـودا لذاته وتركوا لأجل الكسب به جميـع موارد الكسب الطبيعى أخرج نفوسهم عن الاعتدال الذى عليه أكثر الناس ويظهر ذلك فى حركاتهم وتقلبهم فى اعمالهم ، كمـا نراه فى حركات المولعين بأعمـال البورصـة والمغرمين بالقمـار يزيد فيهم النشاط والانهماك فى اعمالهم حتى يكون خفـة تعقبها حركات غير منتظمة ٠ وهذا وجه الشبه بين حركاتهم وبين تخبط الممسوس ، فان التخبط من الخبط وهو ضرب غير منتظم كخبط العشواء » ٠

(( ثم ان التشبيـه مبنى على أن المصروع الذى يعبر عنـه بالممسوس يتخبطـه الشيطان اى أنه يصرع بمس الشيطـان وهو ما كان معروفا عند العرب وجاريا فى كلامهم مجرى المثل ٠ قـال

البيضاوى فى التشبيه : وهو وارد على ما يزعمون أن الشيطان يخبط الانسان فيصرع والخبط ضرب على غير اتساق كخبط العشواء ، أ هـ • وتبعه أبو السعود كعادته فذكر عبارته بنصها •

فالآية على هذا لا تثبت ان الصرع المعروف بفعل الشيطان حقيقة ولا تنفى ذلك • وفى المسألة خلاف بين العلماء • أنكر المعتزلة وبعض اهل السنة ، أن يكون للشيطان فى الانسان غير ما يعبر عنه بالوسوسة ، وقال بعضهم : ان سبب الصرع مس الشيطان كما هو ظاهر من التشبيه ، وان لم يكن نصا فيه ، وقد ثبت عند أطباء هذا العصر أن الصرع من الأمراض العصبية التى تعالج كأمثالها بالعقاقير وغيرها من طرق العلاج الحديث • وقد يعالج بعضها بالأوهام ، وهذا ليس برهانا قطعيا على أن هذه المخلوقات الخفية التى يعبر عنها بالجن يستحيل ان يكون لها نوع اتصال بالناس المستعدين للصرع • فتكون من أسبابه فى بعض الأحوال • والمتكلمون يقولون ان الجن أجسام حية خفية لا ترى ، وقد قلنا فى ( المنار ) غير مرة : انه يصح أن يقال : ان الأجسام الحية الخفية التى عرفت فى هذا العصر بواسطة النظارات المكبرة ، وتسمى بالميكروبات يصح أن تكون نوعا من الجن • .وقد ثبت أنها علل لأكثر الأمراض ، قلنا ذلك فى تأويل ما ورد من ان الطاعون من وخز الجن على أننا نحن المسلمين لسنا فى حاجة الى النزاع فيما اثبته العلم وقرره الأطباء ، أو اضافة شىء اليه مما لا دليل فى العلم عليه لأجل تصحيح بعض الروايات الأحادية فنحمد الله على أن القرآن أرفع من أن يعارضه العلم »(١) •

---

(١) تفسير المنار جـ٣ ص ٩٦ •

## رؤيـة الجـن :

والأستاذ الامام يذهب الى عدم امكان رؤية الجن وهو قول قاله الزمخشري من قبل عند تفسير قوله تعالى : « **يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما اخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما انه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم** » .

يقول : « **لا يفتننكم الشيطان** » لا يمتحنكم بألا تدخلوا الجنة كما محن ابويكم بأن أخرجهما منها « **ينزع عنهما لباسهما** » حال : أي أخرجهما نازعا لباسهما بأن كان سببا فى أن نزع عنهما « **انه يراكم هو** » تعليل للنهي وتحذير من فتنته بأنه بمنزلة العدو المداجى يكيدكم ويغتالكم من حيث لا تشعرون . وعن ملك بن دينار : ان عدوا يراك ولا تراه لشديد المؤنة الا من عصم الله « وقبيله » وجنوده من الشياطين وفيه دليل بين أن الجن لا يرون ولا يظهرون للانس وان اظهارهم أنفسهم ليس فى استطاعتهم وان زعم من يدعى رؤيتهم زورا ومخرفة »(١) .

ويعلق أحمد بن المنير على كلام الزمخشري مسفها رأيه مؤيدا رؤية الجن فيقول « أين يذهب به كما ورد فى الحديث الصحيح من اعتراض ابليس راسهم ومقدمتهم النبي صلى الله عليه وسلم يروم أن يشغله عن صلاته حتى أمكنه الله منه فأخذه عليه الصلاة والسلام، وأراد أن يربطه الى سارية من سوارى المسجد ، يلعب به الصبيان. حتى ذكر دعوة سليمان عليه السلام فتركه . واذا جاز ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم كان جائزا لأولياء الله والمتبعين لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم كرامة . لكن الزمخشري يصده عن ذلك

---

(١) تفسير الكشاف جـ٢ ص ٩٥ .

جحده لكرامة الأولياء لأنه عقيدة اخوانه ، اذ الكرامة انما يؤتاها الولي الصـــادق فكيف ينالها من يشك فى اسلامه فانهم لفى عذر من جحدها والتكذيب بها ، رزقنا الله الايمـــان بالكرامات وان لم نكن لها اهلا والله الموفق ٠

وأنت ترى أن ابن المنير مبالغ فى حملته على الكشـــاف ٠ وقد حمله على ذلك تعصبه لمذهب أهل السنة ضد المعتزلة ٠

ولو انصف لنظر الى الآية وحدها فوجدها صريحة فى أن الجن لا يرون ٠

واما الحـــديث الذى أورده فهو حـــديث صحيـــح اخرجـــه البخارى(١) ٠ ولكنه خاص بالنبى صلى الله عليـــه وسلم فيقتصر عليه ٠ والا فهل يلزم من رؤية النبى صلى الله عليه وسلم ربه ليلة الاسراء والمعراج أن يراه المسلمون فى هذه الدنيا ؟ ٠

ان رؤية الجن امر خارق للعادة ، وقد ورد الحديث بحصوله للنبى صلى الله عليـه وسـلم فيوقف عنده ولا يتعداه الى غـيره « **وان اختلفتم فى شيء ، فردوه الى الله** » ٠

**( ب ) الســـحر :**

لم يعترف الأستاذ الامام بالسحر على أنه جزء من العقيدة الدينية ٠ بل صرح بأن السحر من الأمور العادية والعلوم الانسانية، فهو متروك الى بحوث الناس ٠ وتقدم معلوماتهم عنه وتوضيحهم لحقائقـه ٠

والقـــرآن الكريم قد ذكر الســـحر وأثره فى قوله تعـــالى : « **واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن**

---

(١) البخارى العمل فى الصلاة رقم ١٠ ٠

**الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما انزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولا انما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارين به من أحد الا باذن الله . ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ، ولقد علموا لمن اشتراه ماله فى الآخرة من خلاق ، ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون »** .

ولكن ذكر هذه القصة فى القرآن لا يقتضى أن يكون كل ما يحكى فيها عن الناس صحيحا ، فذكر السحر فى هذه الآيات لا يستلزم اثبات ما يعتقد الناس منه ، كما أن نسبة الكفر الى سليمان التى علمت من النفى لا تستلزم ان تكون صحيحة لأنها ذكرت فى القرآن ولو لم يكن ذكرها فى سياق النفى .

وقد بينا غير مرة أن القصص جاءت فى القرآن لأجل الموعظة والاعتبار لا لبيان التاريخ ولا للحمل على الاعتقاد بجزئيات الأخبار عند الغابرين . وانه ليحكى من عقائدهم الحق والباطل ، ومن تقاليدهم الصادق والكاذب ، ومن عاداتهم النافع والضار ، لأجل الموعظة والاعتبار ، فحكاية القرآن لا تعدو موضع العبرة ولا تتجاوز موطن الهداية ، ولابد أن يأتى فى العبارة أو السياق واسلوب النظم ما يدل على استحسان الحسن واستهجان القبيح . وقد يأتى فى الحكاية بالتعبيرات المستعملة عند المخاطبين أو المحكى عنهم وان لم تكن صحيحة كقوله : « **كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس** »(١) وكقوله : « **بلغ مطلع الشمس** » وهذا الأسلوب مألوف ، فاننا نرى كثيرا من كتاب العربية وكتاب الافرنج يذكرون آلهة الخير والشر فى خطبهم ومقالاتهم لاسيما فى سياق كلامهم عن اليونان والمصريين القدماء ، ولا يعتقد أحد منهم

(١) انظر صفحة ١٠٥ ـ ١٠٨ من هذا البحث .

شيئا من تلك الخرافات الوثنية • ويقول أهل السواحل غربت الشمس أو سقط قرص الشمس فى البحر او فى الماء ، ولا يعتقدون ذلك وانما يعبرون عن المرئى •

جاء ذكر السحر فى مواضع متعددة فى القرآن وأكثره فى قصة موسى وفرعون ، وذكر هنا فى الكلام عن اليهود • واذا أردنا فهمه من عرف اللغة وجدنا ان السحر عند العرب كل ما لطف مأخذه ودق وخفى وقالوا سحره وسحره بمعنى خدعه وعلله ، وقالوا عين ساحرة وعيون سواحر ، وفى الحديث الصحيح « ان من البيان لسحرا » والسحر بالفتح وبالتحريك الرئة وهى أصل هذه المادة والرئة فى الباطن فما لطف مأخذه ودق صنعه حتى لا يهتدي اليه غير أهله فهو باطن ، ومنه الخداع وهو أن يظهر لك شيئا غير الواقع فى نفس الأمر ، فالواقع باطن خفى ، وتأثير العيون فى عشاق الحسان ، والكلام البليغ فى عشاق البيان مما يخفى مسلكه ويدق سببه حتى يعسر على أكثر الناس الوقوف على العلة فى تأثيره •

وقد وصف الله السحر فى القرآن بأنه تخييل يخدع الأعين فيريها ما ليس بكائن كائنا ، فقال : (( **يخيل اليه من سحرهم انها تسعى** )) والكلام فى حبال السحرة وعصيهم ، وفى آية أخرى : (( **سحروا أعين الناس واسترهبوهم** )) وفى هذه الآية التى نفسرها أن السحر كان يؤخذ بالتعليم والتاريخ يشهد بهذا ، وقد كان المصريون يطلقون لقب الساحر على العالم كما يؤخذ من قوله تعالى : (( **وقالوا يايها الساحر ادع لنا ربك** )) •

ومجموع هذه النصوص يدل على ان السحر اما حيلة وشعوذة، واما صناعة علمية خفية يعرفها بعض الناس ويجهلها الأكثرون

فيسمون العمل بها سحرا لخفاء سببه ولطف مأخذه · ويمكن ان يعد منه تأثير النفس الانسانية فى نفس اخرى لمثل هذه العلة · وقد قال المؤرخون ان سحرة فرعون قد استعانوا بالزئبق على اظهار الحبال والعصى بصور الحيات والثعابين وتخييل انها تسعى ·

وقد اعتاد الذين اتخذوا التأثيرات النفسية صناعة ووسيلة للمعاش أن يستعينوا بكلام مبهم واسماء غريبة اشتهر عند الناس أنها من أسماء الشياطين وملوك الجان وأنهم يحضرون اذا دعوا بها ويكونون مسخرين للداعى · ولمثل هذا الكلام تأثير فى اثارة الوهم عرف بالتجربة ، وسببه اعتقاد الواهم ان الشياطين يستجيبون لقارئه ويطيعون أمره ، ومنهم من يعتقد أن فيه خاصية التأثير وليس فيه خاصية ، وانما تلك العقيدة الفاسدة تفعل فى النفس الواهمة ما يغنى منتحل السحر عن توجيه همته وتأثير ارادته · وهذا هو السبب فى اعتقاد الدهماء أن السحر عمل يستعان عليه بالشياطين وأرواح الكواكب ، وقد اختلف المتكلمون والمفسرون والفقهاء فى حقيقة السحر وفى أحكامه ، وعده بعضهم من خوارق العادات وفرقوا بينه وبين المعجزة ولم يذكروا فى فروقهم أن السحر يتلقى بالتعليم ويتكرر بالعمل فهو أمر عادى قطعا بخلاف المعجزة »(١) ·

**مناقشة رای الأستاذ الامام فى السحر :**

يذهب الأستاذ الامام كما شاهدنا الى أن السحر تخييل وخداع للأعين وليس حقيقة لقوله تعالى : (( **سحروا أعين الناس** )) وتقول له اذا جاز على الساحر أن يسحر جميع أعين الناظرين مع كثرتهم حتى يروا الشىء بخلاف ما هو به ، مع أن هذا تغيير فى احساسهم فما الذى يحيل تأثيره فى تغيير بعض أمراضهم وقواهم

---

(١) تفسير المنار جـ١ ص ٣٩٩ وما بعدها ·

وطباعهم ، وما الفرق بين التغيير الواقع فى الرؤية والتغيير الواقع فى صفة أخرى من صفات النفس والبدن ؟ فاذا كان احساسه قد تغير حتى يرى الساكن متحركا ، والمتصل منفصلا ، والميت حيا ، فما المحيل لأن يغير صفات نفسه حتى يجعل المحبوب اليه بغيضا والبغيض محبوبا وغير ذلك من التأثيرات . وقد قال تعالى عن سحرة فرعون انهم ٧ : ١١٥ (( **سحروا أعين الناس واسترهبوهم** )) وذلك يوضح أن أعينهم سحرت ، وذلك اما أن يكون لتغيير حصل فى المرئى وهو الحبال والعصى مثل ان يكون السحرة استعانت بأرواح حركتها وهى الشياطين ، فظنوا أنها تحركت بنفسها . وهذا كما اذا جر من لا تراه حصيرا او بساطا فترى الحصير والبساط ينجر ولا ترى الجار له ، مع انه هو الذى يجره ، فهكذا حال الحبال والعصى التبستها الشياطين فقلبتها كتقليب الحية فظن الرائى أنها تقلبت بأنفسها ، والشياطين هم الذين يقلبونها . واما ان يكون التغيير حدث فى الرائى ، حتى رأى الحبال والعصى تتحرك ، وهى ساكنة فى انفسها . ولا ريب أن الساحر يفعل هذا وهذا ، فتارة يتصرف فى نفس الرائى واحساسه حتى يرى الشىء بخلاف ما هو به ، وتارة يتصرف فى المرئى باستعانته بالأرواح الشيطانية حتى يتصرف بها .

وأما قول الأستاذ الامام ، ان سحرة فرعون قد استعانوا بالزئبق على اظهار الحبال والعصى بصورة الحيات . فانه لو كان كذلك لم يكن هذا خيالا ، بل حركة حقيقية ولم يكن ذلك سحرا لأعين الناس ولا يسمى ذلك سحرا بل صناعة من الصناعات المشتركة . وقد قال تعالى : ٢٠ : ٦٦ (( **فاذا حبالهم وعصيهم يخيل اليه من سحرهم انها تسعى** )) ولو كانت تحركت بنوع حيلة ــ كما يقول الأستاذ الامام ــ لم يكن هذا من السحر فى شىء .

وأيضا لو كان ذلك بحيلة لكان طريق ابطالها اخراج ما فيها من الزئبق وبيان ذلك المحـال ولم يحتج الى القاء العصا لابتلاعها.

« وأيضا فمثل هذه الحيلة لا تحتـاج فيهـا الى الاستعانة بالسحرة بل يكفى فيها حذق الصناع . ولا يحتاج فى ذلك الى تعظيم فرعون للسحرة ، وخضـوعه لهم ، ووعدهم بالتقريب والجزاء ، وأيضا فانه لا يقال فى ذلك ٢٠ : ٧١ ٢٦ : ٤٩ « **انه لكبيركم الذى علمـكم السـحر** » فان الصناعـات يشـترك النـاس فى تعلمهـا وتعليمها »(١) .

والأسـتاذ الامام يذهب الى ان السـحر لا اثر له فى المرض أو الحل أو العقد ، وانما هو الوهم الذى يحل بالنفوس والاعتقـاد الخرافى المنتشر بين العامة فى السحرة هو الذى يؤثر فيهم .

ولا انكار على أن الوهم له اثر كبير فى المرض والحب والبغض ولكن هـذا لا يمنع أن السحر فى حد ذاته حقيقة قائمـة بذاتهـا وهو يؤثر ـ من غيروهم فى المرض والثقل والعقد والحب والبغض والنزيف وغير ذلك من الآثار الموجودة والملموسـة بالمشـاهدة بين النـاس .

والله تعالى قال : « **ومن شر النفاثات فى العقد** » وهذا دليل على أن النفث يضر المسـحور فى حـال غيبته عنه ولو كان الضرر لا يحصل الا بمباشرة البدن ظاهرا ، لم يكن للنفث ولا للنفاثات شر يستعاذ منه(٢) .

---

(١) تفسير سورة الكافرون والمعوذتين للامام ابن القيم بتصرف ص ٥٢ مطبعة السنة المحمدية .

(٢) تفسير سورة الفلق للامام ابن القيم .

## رأى الأستاذ الامام فى النفاثات فى العقد :

يذهب الأستاذ الامام الى تأويل النفاثات فى العقد ، بالنمامين والمفسدين بين الناس . كما يذهب الى رفض الحديث الذى يذكر أن النبى عليه الصلاة والسلام قد سحر . ويؤول السحر بالطرق الخفية التى تفسد بين الزوجين وتفرق بين المتحابين . فيقول : « والمراد(١) بالنفاثات فى العقد النمامون المقطعون لروابط الألفة المحرقون لها بما يلقون عليها من ضرام نمائمهم . وانما جاءت العبارة بالنفاثات فى العقد لأن الله جل شأنه أراد ان يشبههم بأولئك السحرة المشعوذين الذين اذا أرادوا أن يحلوا عقدة المحبة بين المرء وزوجه مثلا فيما يوهمون به العامة عقدوا عقدا ثم نفثوا فيها وحلوها ليكون ذلك حلا للعقدة التى بين الزوجين ، والنميمة تشبه أن تكون ضربا من السحر لأنها تحول ما بين الصديقين من محبة الى عداوة بوسيلة خفية كاذبة والنميمة تضلل وجدان الصديقين كما يضلل الليل من يسير فيه بظلمته ، ولهذا ذكرها عقب ذكر الغاسق اذا وقب ، ولا يسهل على أحد أن يحتاط للتحفظ من النمام فانه يذكر عنك ما يذكر لصاحبك وأنت لا تعلم ماذا يقول ولا ما يمكن أن يقول ، واذا جاءك فربما دخل عليك بما يشبه الصدق حتى لا يكاد يمكنك تكذيبه فلابد لك من قوة أعظم من قوتك تستعين بها عليه وهى قوة الله . وقد رووا ههنا أحاديث فى أن النبى صلى الله عليه وسلم سحره لبيد بن الأعصم وأثر سحره فيه حتى كان يخيل اليه انه يفعل الشىء وهو لا يفعله أو يأتى شيئا وهو لا يأتيه وأن الله انبأه بذلك ، واخرجت مواد السحر من بئر وعوفى صلى الله عليه وسلم مما كان نزل به من ذلك ونزلت هذه السورة .

(١) تفسير جزء عم تاليف الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده ص ١٨٣ .

ولا يخفى أن تأثير السحر فى نفسه عليه السلام حتى يصل به الأمر الى ان يظن انه يفعل شيئا وهو لا يفعله ليس من قبيل تأثير الأمراض فى الأبدان ولا من قبيل عروض السهو والنسيان فى بعض الأمور العادية بل هو ماس بالعقل آخذ بالروح ، وهو مما يصدق قول المشركين فيه « **ان تتبعون الا رجلا مسحورا** » وليس بالمسحور عندهم الا من خولط فى عقله وخيل له أن شيئا يقع وهو لا يقع فيخيل اليه أنه يوحى اليه وهو لا يوحى اليه ، وقد قال الكثير من المقلدين الذين لا يعقلون ما هى النبوة ولا ما يجب لها أن الخبر بتأثير السحر فى النفس الشريفة قد صح فيلزم الاعتقاد به ، وعدم التصديق به من بدع المبتدعين لأنه ضرب من انكار السحر وقد جاء القرآن بصحة السحر ، فانظر كيف ينقلب الدين الصحيح والحق الصريح فى نظر المقلد بدعة نعوذ بالله ٠ يحتج بالقرآن على ثبوت السحر ويعرض عن القرآن فى نفيه السحر عنه صلى الله عليه وسلم وعده من افتراء المشركين عليه ويؤول فى هذه ولا يؤول فى تلك مع ان الذى قصده المشركون ظاهر لأنهم كانوا يقولون ان الشيطان يلابسه عليه السلام ، وملابسة الشيطان تعرف بالسحر عندهم ، وضرب من ضروبه ، وهو بعينه أثر السحر الذى نسب الى لبيد فانه قد خالط عقله وادراكه فى زعمهم ٠ والذى يجب اعتقاده أن القرآن مقطوع به ٠ وأنه كتاب الله بالتواتر عن المعصوم صلى الله عليه وسلم ، فهو الذى يجب الاعتقاد بما يثبته وعدم الاعتقاد بما ينفيه ٠ وقد جاء بنفى السحر عنه عليه السلام حيث نسب القول باثبات حصول السحر له الى المشركين أعدائه ووبخهم على زعمهم هذا فاذن ليس النبى بمسحور قطعا ، وأما الحديث فعلى فرض صحته هو آحاد الآحاد لا يؤخذ بها فى باب العقائد ، وعصمة النبى من تأثير السحر فى عقله عقيدة من العقائد

لا يؤخذ فى نفيها عنه الا باليقين · ولا يجوز أن يؤخذ فيها بالظن والظنون ، على ان الحـديث الذى يصل الينا من طريق الآحـاد انما يحصـل الظن عند من صح عنده اما من قامت له الأدلة على أنه غير صحيح فلا تقوم عليه حجة · وعلى أى حال فلنا · بل علينا أن نفوض الأمر فى الحديث ولا نحكمه فى عقيدتنا ونأخذ بنص الكتاب وبدليل العقل ، فاذا اذا خولط النبي كما زعموا جاز عليه ان يظن أنه بلغ شيئا وهو لم يبلغه او أن شيئا نزل عليه وهو لم ينزل عليـه والأمر ظاهر لا يحتـاج الى بيان · ثم ان نفى السحر عنه لا يستلزم نفي السحر مطلقا فربمـا جاز أن يصيب السحر غيره بالجنون نفسه ، ولكن من المحـال أن يصيبه لأن الله عصمه منه ، ما اضر المحب الجـاهل وما اشد خطره على من يظن أنه يحبه ، نعوذ بالله من الخذلان · على ان نافى السحر بالمرة لا يجوز أن يكون مبتدعـا لأن الله تعـالى ذكر ما يعتقد به المؤمنـون فى قـوله : ( **آمن الرسول** ) الآية · وفى غيرهـا من الآيات ، ووردت الأوامر بما يجب على المسلم أن يؤمن به حتى يكون مسلما ، ولم يأت فى شيء من ذلك ذكر السحر على أنه مما يجب الايمـان بثبوته او وقوعه على الوجه الذى يعتقد به الوثنيون فى كل ملة · بل الذى ورد فى الصحيح هو ان تعلم السحر كفر ، فقد طلب منا الا ننظر بالمرة فيما يعرف عند الناس بالسحر ويسمى باسـمه ، وجاء ذكر السحر فى القرآن فى مواضـع مختلفـة ، وليس من الواجب أن نفهم منه ما يفهم هؤلاء العميان ، فان السحر فى اللغـة معناه صرف الشيء عن حقيقته ، قال الفراء فى قوله تعالى (( **فانى تسحرون** )) اى انى تؤفكون وتصرفون · سحره وافكه واحد · وماذا علينـا لو فهمنـا من السحر الذى فرق بين المرء وزوجه تلك الطرق الخبيثة الدقيقة التى تصرف الزوج عن زوجتـه والزوجة عن زوجها ؟ وهل يبعد أن مثل هذه الطرق مما يتعلم وتطلب له الاساتذة ونحن نرى أن كتبا

الفت ودروسا تلقى لتعليم اساليب التفريق بين الناس لمن يريد أن يكون من عمال السياسة فى بعض الحكومات ؟ وقد يكون ذكره المرء وزوجه من قبيل التمثيل واظهار الأمر فى اقبح صورة اى بلغ من امر ما يتعلمونه من ضروب الحيل وطرق الافساد أن يتمكنوا به من التفريق بين المرء وزوجه ٠ وسياق الآية لا يأباه ، وذكر الشياطين لا يمنعنا من ذلك بعد أن سمى الله خبثاء الانس المنافقين بالشياطين فقال : (( **واذا خلوا الى شياطينهم** )) وقال : (( **شياطين الانس والجن يوحى بعضهم الى بعض** )) وسحر سحرة فرعون كان ضربا من الحيلة ، ولذلك قال : (( **يخيل اليه من سحرهم انها تسعى** )) وما قال انها تسعى بسحرهم قال يونس تقول العرب ما سحرك عن وجه كذا ، اى ما صرفك عنه ٠ ولو كان هؤلاء يقدرون الكتاب قدره ويعرفون من اللغة ما يكفى لعاقل ان يتكلم ما هذروا هذا الهذر ولا وصموا الاسلام بهذه الوصمة ٠ وكيف يصح ان تكون هذه السورة نزلت فى سحر النبى صلى الله عليه وسلم مع انها مكية فى قول عطاء والحسن وجابر ، وفى رواية كريب عن ابن عباس ٠ وما يزعمونه من السحر انما وقع فى المدينة لكن من تعود القول بالمحال ، لا يمكن الكلام معه بحال ، نعوذ بالله من الخبال(١) ٠

**مناقشة راى الأستاذ الامام فى النفاثات فى العقد :**

رأيت مما نقلته من تفسير الأستاذ الامام للسحر أنه ركز اهتمامه على ثلاثة اشياء هى :

١ ـ دفع السحر عن النبى صلى الله عليه وسلم ٠

---

(١) تفسير جزء عم ص ١٨٦ ٠

٢ ـ التهوين من قيمة الحديث الوارد فى سحره صلى الله عليه وسلم والتشكيك فى صحته ٠

٣ ـ حمل السحر على الأمور المعنوية والافساد بين الناس ٠ ونحن سنناقش هذه الأمور الثلاثة ٠

## هل سحر النبى صلى الله عليه وسلم :

ونحن معه فى أنه صلى الله عليه وسلم لم يسحر السحر الحقيقى الذى يصل به الى الجنون كما قال الكفار « معلم مجنون » ٠

ولكنا نرى أنه اصيب بنوع من الهم او الثقل والكدر امتحانا له عليه السلام ٠ فقد تعرض الأنبياء والمرسلون لكثير من المحن والشدائد ، فقد خرج آدم من الجنة ، ومكث نوح مع قومه مئات السنين ويئس منهم ، والقى فى النار ابراهيم ، واضجع للذبح اسماعيل ، وابتلع الحوت يونس ، وابتلى أيوب وكان رمزا للبلاء والصبر ، وذهب اليهود ليصلبوا المسيح ، وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم ٠

وتعرض النبى صلى الله عليه وسلم لكثير من البلاء فى مكة ، فخنقه عقبة بن أبى معيط ٠ وحوصر فى شعب بنى هاشم ٠ وذهب الى الطائف وبها قبائل ثقيف فلقى أشد واعنت مما لقى من أهل مكة ، ومكر به الذين كفروا ليقتلوه او يثبتوه أو يخرجوه فنجاه الله بالهجرة ٠ وقد حارب وقاتل واصيب فى أحد وانخدش شقه ودخلت حلقتان من المغفر فى وجنته وتخضب وجهه الشريف بالدم ٠

فليس ببعيد ان يصيبه بعض الأذى والهم والثقل من صنيع

هؤلاء اليهود امتحانا من الله له ورفعا لدرجاته كما قال عليه الصلاة والسلام (( اشدكم بلاء الأنبياء ثم الأولياء ثم الأمثل فالأمثل يبتلى الرجل على حسب دينه فاذا كان قويا فى دينه قوى به البلاء واذا كان رقيقا فى دينه رق به البلاء ولايزال البلاء يصيب المؤمن حتى يمشى على الأرض وما عليه خطيئة )) فكانت اصابته من اليهود امتحانا له وابتلاء له عليه السلام واملاء لأعدائه حتى يأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر .

وأما أن القرآن نفى عنه السحر ، فنحن سلمنا مقدما أنه لم يكن سحرا أثر فى عقله . وهذا ما نفاه القرآن ولكن نقول انه أصيب عليه السلام بنوع من المرض ، ولا نقص فى ذلك ولا عيب . فان المرض جائز على الأنبياء وكذلك الاغماء ، فقد اغمى عليه صلى الله عليه وسلم . وأصيب كثير من الأنبياء والمرسلين بالقتل والضرب والشتم والحبس ، وقال الله تعالى : (( فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل )) . فليس ببدع أن يبتلى عليه الصلاة والسلام بنوع السحر لا يؤثر فى عقله وانما يؤثر فى بدنه . وهذا هو قول صاحب الكشاف فى تفسير قوله تعالى : (( وقال الظالمون ان تتبعون الا رجلا مسحورا )) : (( سحر فغلب على عقله أو ذا سحر وهو الرئة عنوا أنه بشر لا ملك ويرشحه أن الآية السابقة تقول (( وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق )) أى أنه بشر مثلكم ))(١) . فالقرآن نفى عنه ان يكون أصيب بسحر أو جنون يفسد عقله بحيث لا يدرى ما يقول ، فأما لو أصيب فى بدنه بمرض من امراض البدن فان ذلك لا يمنع من اتباعه .

وأعداء الرسل لم يقذفوهم بأمراض البدن — وانما قذفوهم بما يحذرون سفهاءهم من اتباعهم ، وهو انهم سحروا حتى صاروا

---

(١) الكشاف جـ٣ ص ٨٩ .

لا يعلمون ما يقولون بمنزلة المجانين ولهذا قال تعالى ( ١٧ : ٤٨ ): « انظر كيف ضربوا الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا » مثلوك بالشاعر مرة والساحر أخرى ، والمجنون مرة والمسحور اخرى. فضلوا فى جميع ذلك ضلال من يطلب فى تيهه وتحيره طريقا يسلكه فلا يقدر عليه · فانه أى طريق اخذها فهى طريق ضلال وحيرة فهو متحير فى أمره لا يهتدى سبيلا ، ولا يقدر على سلوكها ، فهكذا حال أعداء رسول الله صلى الله عليه وسلم معه ، حتى ضربوا له امثالا ، برأه الله منها ، وهو أبعد الناس عنها ، وقد علم كل عاقل انها كذب وافتراء وبهتان »(١) ·

## حديث السحر :

واما الأمر الثانى : الذى أراد الأستاذ الامام أن يثبته ، وهو التهوين من قيمة حديث سحره عليه الصلاة والسلام والتشكيك فى صحته ·

فنحن ننقل ما يثبت صحة الحديث ويؤيد قوته :

١ — روى البخارى — فى باب هل يستخرج السحر — من حديث ابن عيينة قال : « أول من حدثنا به ابن جريج يقول : حدثنى آل عروة عن عروة · فسألت هشاما فحدثنا عن أبيه عن عائشة : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم سحر حتى كان يرى أنه يأتى النساء ولا يأتيهن · قال شعبان وهذا اشد ما يكون من السحر · اذا كان كذا فقال : يا عائشة ، أعلمت ان الله قد افتانى فيما استفتيته فيه : أتانى رجلان فقعد احدهما عند راسى والآخر عند رجلى فقال الذى عند رأسى للآخر : ما بال الرجل ؟ قال : مطبوب قال : ومن طبه ؟ قال لبيد بن الأعصم رجل من بنى زريق حليف

---

(١) تفسير سورة الفلق للامام ابن القيم الجوزية ·

اليهود وكان منافقا . قال : وفيم ؟ قال : فى مشط ومشاقه . قال وأين ؟ قال : فى جف طلع ذكر ، تحت زاعوفة فى بئر ذروان . قال فأتى البئر حتى استخرجه . فقال هذه البئر التى رايتها وكان ماءها نقاعة الحنـاء ، وكأن نخلهـا رءوس الشـياطين . قال : فاستخرج قالت . فقلت : أفلا ــ اى تنشرت ــ ؟ قال : اما الله فقد شفانى واكره ان أثير على أحد من الناس شرا » .

« هذا هو الحديث الذى رواه البخـارى ، وهو ثابت عند اهل العـلم بالحـديث لا يختلفون فى صحتـه ، وقـد اتفق اصحـاب الصحيحين على تصحيحه . ولم يتكلم فيه أحد من اهل الحـديث بكلمة واحدة ، والقصة مشهورة عند أهل التفسير والسنن والحديث والتاريخ والفقهاء ، وهؤلاء أعلم بأحوال رسول الله وايامه »(١) .

٢ ــ وقد قال أبو بكر بن ابى شيبة : حدثنا ابو معاوية عن الأعمش عن يزيد بن حباب عن زيد بن أرقم قال : « سحر النبى صلى الله عليه وسلم رجل من اليهود فاشتكى لذلك أياما . قال : فأتاه جبريل فقال : ان رجلا من اليهود سحرك ، وعقد لذلك عقدا . فارسل رسـول الله صلى الله عليه وسلم عليا فاستخرجها فجـاء بها . فجعل كلمـا حل عقدة وجد لذلك خفة فقـام رسـول الله صلى الله عليه وسلم كانما نشط من عقال فما ذكر ذلك لليهود ، ولا رآه فى وجهه قط » .

٣ ــ وقال ابن عباس وعائشة : « كان غلام من اليهود يخدم رسول الله صلى الله عليه وسلم . فدنت اليه اليهود . فلم يزالوا حتى اخذ مشاط رأس النبى صلى الله عليه وسلم وعدة أسـنان

---

(١) التفسير القيم لابن القيم ــ سورة الفلق .

من مشطه · فأعطاها اليهود فسحروه فيها · وتولى ذلك لبيد بن الأعصم رجل من اليهود ، فنزلت هاتان السورتان فيه » ·

قال البغوى : « وقيل كانت مغروزة بالابرة ، فانزل الله عز وجل هاتين السورتين وهما احدى عشر آية · سورة الفلق خمس آيات · وسورة الناس ست آيات فكلما قرأ آية انحلت عقدة ، حتى انحلت العقد كلها · فقام النبى صلى الله عليه وسلم كأنما نشط من عقال » قال وروى انه لبث فيه ستة اشهر ، واشتد عليه ثلاثة ايام فنزلت المعوذتان ·

وأنت ترى أنه لو استمر سحره عليه الصلاة والسلام ستة أشهر لكان ذلك سببا فى نفرة الناس وتشهير المشركين به فى هذه المدة · حتى يبتعد عنه المسلمون ·

وهذا يؤيد أن الذى استمر به بعض الهم الذى يصيب البدن ابتلاء له عليه السلام ورفعا لدرجاته ·

واذا صح الحديث السابق وأنه نزل من أجل تلك العقد احدى عشرة آية · كان المراد بالنفاثات فى العقد الساحرات حقيقة ، فالحمل على الحقيقة اولى من الحمل على المجاز خاصة وأن حديث ابن عباس وعائشة رشح الحمل على الحقيقة وهى ان النفاثات فى العقد هن الساحرات ·

**موافقة راى الامام الزمخشرى :**

والزمخشرى ــ من قبل الأستاذ الامام ــ قد أنكر حقيقة السحر ونفى تاثيره وأول النفاثات فى العقد وأجاب عن معنى الاستعاذة منهن بواحد من ثلاثة ·

« أحدها أن يستعاذ من عملهن الذى هو صفة السحر ومن اثمهن فى ذلك .

والثانى أن يستعاذ من فتنتهن الناس بسحرهن وما يخدعنهم به من باطلهن .

والثالث أن يستعاذ مما يصيب الله به من الشر عند نفثهن ويجوز أن يراد بهن النساء الكيادات من قوله ان كيدهن عظيم تشبيها لكيدهن بالسحر والنفث فى العقد او اللاتى يفتن الرجال بتعرضهن لهم وعرضهن محاسنهن كأنهن يسحرنهم بذلك »(١) .

وقد علق على كلامه هذا أحمد بن المنير بقوله : « ان مذهب المعتزلة انكار حقيقة السحر ، على أن الكتاب والسنة قد وردا بوقوعه والأمر بالتعوذ منه . وقد سحر صلى الله عليه وسلم فى مشط ومشاطة فى جف طلعة ذكر والحديث مشهور وانما الزمخشرى استفزه الهوى حتى أنكر ما عرف وما به الا أن يتبع اعتزاله ويغطى بوجهه كف الغزالة . ولو فسر غيره النفاثات فى العقد بالمتخيلات من النساء ولسن ساحرات حتى يتم انكار وجود السحر لعده من بدع التفاسير .

ونستطيع ان نوجز آراء الامام فى السحر والنفاثات فى العقد فيما يلى :

١ ـ السحر ليس جزءا من العقيدة الدينية بل هو من الأمور العادية والعلوم الانسانية متروك الى بحوث الناس وتقدم معلوماتهم عنه وتوضيحهم لحقائقه .

---

(١) تفسير الكشاف جـ٤ ص ٢٤٤ مطبعة مصطفى محمد سنة ١٣٥٤ هـ .

٢ ـ جاء ذكر السحر فى سورة البقرة ولا يستلزم ذلك اثبات ما يعتقد النـاس منه • فالقرآن قـد يأتى فى الحـكاية بالتعبيرات المستعملة عند المخاطبين أو المحكي عنهم وان لم تكن صحيحـة فى نفسها كقوله تعالى : (( **حتى اذا بلغ مطلع الشمس** )) •

٣ ـ جاء ذكر السحر فى القرآن فى مواضـع متعددة ومجموعها يدل على أن السحر أحد شيئين :

( أ ) اما حيلة وشـعوذة •

( ب ) واما صناعة علمية خفية يعرفها بعض الناس ويجهلهـا الأكثرون فيسمون العمل بها سحرا لخفـاء سببه ولطف مأخذه ويمكن ان يعد منه تأثير نفس فى نفس أخرى •

٤ ـ السحر تخييل وخداع للأعين وليس حقيقة ولذلك قال سبحانه : (( **يخيل اليه من سحرهم أنها تسعى** )) •

فسحرة فرعون قد اسـتعانوا بالزئبـق على اظهار الحبـال والعصى بصورة الحيات والثعابين وتخييل أنها تسعى •

٥ ـ اعتاد من يتخذ السحر وسيلة ان يستعين بأسماء الجـان والشياطين فيعتقد الدهماء انه يستعين بهم ويلقى ذلك فى روعهم وهذا الوهم يصنع صنع السحر •

ولا يستطيع الساحر أن يؤثر الا فى شخص عزيمتـه هبـاء ونفسه هواء وعنده قابلية لتأثير غيره فيه ، فينتهز ذلك السـاحر ليوهمه بما يشاء •

**الامام ينفى أن يكون الرسول قد سحر :**

وهـذا موجز لأدلتـه :

١ ــ القرآن نفى السحر عنه صلى الله عليه وسلم فهو ليس بمسحور قطعـا ٠

٢ ــ حديث سحره عليه السلام حديث آحاد والآحاد لايؤخذ بها فى باب العقائد لأن عصمة النبى صلى الله عليه وسلم من تأثير السحر فى عقله عقيدة من العقائد ولا يؤخذ فى نفيها عنه الا باليقين٠ فعلينا ان نفوض الأمر فى الحديث ولا نحكمه فى عقيدتنا ونأخذ بنص الكتـاب ٠

٣ ــ نافى السحر بالمرة لا يصح أن يكون مبتدعا لأنه لم يأت شىء يوجب الايمـان بالسحر على الوجه الذى يعتقد به الوثنيون فى كل ملة ٠

٤ ــ المراد بالنفاثات فى العقد نفث المفســدين سمومهم بالكذب والغيبة والنميمة وقالة الســوء فى عقد الصــلات بين الناس حتى يفكوا عرى الزوجيــة والمودة والرحمة وغيرها ٠ وشر هذا فى الناس اكثر جدا من شر من يقولون انهم سحرة ٠

وقد ناقشت راى الامام فى شيئين :

١ ــ الســحر عمومـا ٠

٢ ــ سحر الرسول صلى الله عليه وسلم خصوصا ٠

فالامام يريد ان ينفيهما ٠ وقد رأيت ثبوتهما ٠

## ( أ ) ثبوت الســحر :

١ ــ السحر ثابت بالحس والمشــاهدة ونص القرآن وتواترت به الآثار عن الصحابة والسلف وأهل التفســير والحديث والفقهاء ، والسحر يؤثر مرضـا وثقلا وعقدا وحبا وبغضا ونزيفا وغير ذلك

من الآثار الموجودة والتى تعرفهـا عامة الناس ، وكثير قد علمـه ذوقا بما أصيب به ٠

٢ ــ بين الامام ان السحر تخييل للأعين ٠

وقلنا فى الرد عليه اذا جاز على الساحر ان يسحر جميع عيون الناظرين وبغير احساسـهم حتى يروا السـاكن متحركا والمتحرك ساكنا جاز ان يغير صفات النفس حتى يجعل المحبوب اليها بغيضـا والبغيض محبوبا ٠

٣ ــ نقل الامام أن السحرة فعلوا بالحبـال ما أوجب حركتها ومشيها مثل الزئبق وغيره حتى سعت وهذا مردود من وجوه ٠

( ا ) لو كان عمل السحرة ينحصر فى دهن الحبال بالزئبق لمـا احتيج الى القاء العصـا لابتلاع الحبال بل كان يكفي اخراج ما فى الحبال من الزئبق وغيره ٠ وذلك يكون أوقع فى ابطـال عمل السحر ٠ وتبيين ان عملهم من الوهن والضعف بحيث يكفى لابطاله ان يتقدم أى انسان فيزيله من على الحبال ٠

( ب ) قال تعالى حكاية عن السحرة : (( **فلما القوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم** )) ٠

فبين سبحانـه ان أعينهم سحرت وذلك اما أن يكون لتغيير حصل فى المرئى او لتغيير حصل فى الرائى ٠

والساحر يفعل هذا وهذا ٠ فتـارة يتصرف فى نفس الرائى واحساسه حتى يرى الشيء بخلاف ما هو به ٠ وتارة يتصرف فى المرئى باستعانته بالأرواح الشيطانية حتى يتصرف فيها ٠

( ب ) ثبوت سحره عليه افضل الصلاة والسلام :

١ ـ ثبت سحره عليه الصلاة والسلام بالروايات الصحيحة المتعددة .

٢ ـ قال الامام ان سحره عليه السلام يخالف القرآن لأنه قد نفى عنه السحر . والجواب أن القرآن نفى عنه السحر الذى يصيب عقله بالخبل والجنون . قال الكشاف المسحور الذى لا يتبع هو الذى فسد عقله بحيث لا يدرى ما يقول فهو كالمجنون ولهذا قالوا فيه ( ٤٤ : ١٥ ) (( معلم مجنون )) .

والحديث أثبت السحر الذى يصيب الجسم بنوع من الثقل أو المرض بحيث لا يمنع ذلك من اتباعه عليه الصلاة والسلام ، فلا تعارض بينهما .

٣ ـ قال الامام ان سحر الأنبياء ينافى حماية الله لهم .

والجواب أنه سبحانه يمتحن عباده واولياءه وأصفياءه كما يمتحن أنبياءه ورسله بايذاء قومهم لهم بالضرب أو القتل او السحر الذى يوهن الجسم . رفعا للأنبياء فى درجاتهم واملاء للكفار حتى تمتلىء صاعهم فيستحقوا ما اعد لهم .

ويتضح لك ان الخلاف بينى وبين الامام ليس على سحر الرسول عموما بل على سحر موجه الى جسم الرسول دون عقله . فبيننا عموم وخصوص مطلق ، فقد اجتمعنا على نفى السحر عن عقل الرسول صلى الله عليه وسلم وانفرد الامام بنفى السحر عن الرسول فى بدنه . وانفردت أنا باثبات سحر الرسول فى بدنه عليه الصلاة والسلام .

٤ ـ ومذهب الأشعرية ان للسحر تأثيرا حقيقيا وليس كله حيلا ومنه أنه أثر فى جسم النبى صلى الله عليه وسلم وخياله دون

عقله وروحه فكان يخيل اليه انه اتى نساءه ولم يكن اتاهن ولم يتجاوز هذا الحد(١) ٠

وذلك ما يعبر عنه فى ايامنا بالرباط ( وهو عدم القدرة على اتيان النساء ) وذلك أمر يتعلق بالجسم والخيال لا بالعقل والروح ٠

وأرى ان الأستاذ الامام كان متأثرا فى نفيه السحر على الرسول صلى الله عليه وسلم بعدة أمور ٠

١ ـ محاولة اظهار الاسلام أمام المستشرقين والمتمدينين بمظهر الدين العلمى المنهجى الذى لا يعترف بالسحر ولا بالخرافة ٠

٢ ـ وجد الامام فى آراء المعتزلة تراثا عقليا وذخيرة فكرية فهم يرفضون الايمان بالسحر والكهانة والشفاعة وكرامات الأولياء ٠

ويؤولون النصوص الدينية التى تثبتها ، وقد سار الامام على طريقهم ٠

٣ ـ لما كان هدف الامام من انكار السحر محاربة الخرافة واظهار الاسلام بأنه دين العقل ، واعترض طريقه حديث صحيح قال انه حديث آحاد « والحديث الذى يصل الينا عن طريق الآحاد انما يحصل الظن عند من صح عنده أما من قامت الأدلة على أنه غير صحيح فلا تقوم به حجة ٠ وعلى فرض صحته يؤول أو يفوض الأمر فيه »(٢) ٠

« وغره ان المقلدين يسلمون له بالتأويل ولو متكلفا ، ونسى

---

(١) تفسير المنار جـ٩ ص ٥٩ حاشية ٠
(٢) تفسير جزء عم ص ١٨٤ ٠

أن أعـداء الاســلام ومستقلى الفكر من غيرهم لا يقبلون التأويل المتكلف الذى لا يطمئن له القلب »(١) ٠

**سند حديث السحر :**

اذا رجعنـا الى كتب الحـديث نجد أن حديث السحر الذى ذكرناه مروى بأصح الأسانيد ٠ فان سنده هشام بن عروة عن ابيه عن عائشة ٠ وهذا السند من أصح الأسانيد المروية عن عائشـة ( رضى الله عنها ) ان لم يكن اصحها »(٢) ٠

**والعلماء يقسمون السنة باعتبار سندها ثلاثة أقسام :**

**١ ـ المتواتـرة :**

وهى ما رواه فى العصور الثلاثة جمع تحيل العادة تواطؤهم على الكذب لكثرتهم وتباعد أماكنهم وهـذا النوع قطعى الثبوت عن النبى صلى الله عليه وسلم فيفيد علمـا يقينا ٠ ويجب العمل به ويكفر جاحده ومنه كثير من السنن الفعلية : كالذى روى فى كيفية الوضوء والصلاة والصـوم والحج وغير ذلك مما يطلع عليه جمهور الناس فينقله جمع يؤمن تواطؤهم على الكذب الى أمثالهم ثم ينقله عن هؤلاء مثلهم ويندر أن يقع هـذا فى السنن القولية وقد مثلوا له بقوله صـلى الله عليه وسـلم ( من كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده فى النـار ) ٠

---

(١) تفسير المنار جـ٩ ص ٥٩ حاشية ٠

(٢) كتاب الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث للحافظ ابـن كثير ، تحقيق الاستاذ احمد محمد شاكر ٠

**٢ ــ المشهورة أو المستفيضة :**

وهي ما رواه من الصحابة عدد لا يبلغ حد التواتر ثم تواتر فى عهد التابعين وتابعيهم ، وهو عند الحنفيــة يفيد ظنا قريبــا من اليقين لأن الأمة تلقته فى عهد التابعين بالقبول · فكان قطعي الثبوت عن الصحابى · واذا لم يكن متواترا فى عهد الصحابــة فالراجح فى اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد نالوا شرف الصحبــة التنزه عن وصمة الكذب · فيجب العمــل به ولا يكفر جاحده وبه يخصص عام الكتــاب ويقيد مطلقه وهو كثير فمنه حديث « انمــا الأعمال بالنيات » · وحديث « لا تنكح المرأة على عمتها ولا على خالتها الخ » · وهو مخصص لعموم قوله تعــالى : **« واحــل لكم ما وراء ذلكم »** ·

**٣ ــ خبر الآحــاد :**

وهو ما رواه عدد لا يبلغ حد التواتر فى العصر الأول وغيره · ولا عبرة بما بعد العصــور الثلاثة وهو لا يفيد علما بل ظنا ، ويجب العمل به متى تحققت شروط قبوله ·

**شروط قبول الخبر :**

لقبول خبر الآحاد شروط فى الراوى وشروط فى لفظ الخبر وشروط فى معناه ·

فيشترط فى الراوى لصحة التحمل التمييز والضبط : فلا يصح تحمــل الصبى غير المميز ومن فى معنــاه لعدم ضبطه لمــا يســمع او يرى ·

ويشترط فى الراوى لصحة الأداء :

( أ ) البــلوغ ·

( ب ) الاســلام ·

( جـ ) العــدالة ·

( د ) الضــبط ·

ويشترط فى لفظ الخبر الا يحذف الراوى منه ما يتوقف تمام المعنى عليه ، ففى مثل حديث عبـادة بن الصامت « سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ينهى عن بيع الذهب بالذهب ·· الا سواء بسواء عينـا بعين » ·

لا يصح للراوى أن يحذف الاستثناء الأخير والا أفسد المعنى ·

ويشترط فى معنى الخبر الا يعارضـه ما هو اقوى منه من آية أو حديث متواتر او مشهور · واشترط الكرخي وبعض الحنفية الا يكون موضــوع الحديث مما تعم به البلوى ، اذ لو كان كذلك لذاع واشتهر ، فعدم ذيوعه حينئذ يورث شكا ·

والأكثرون على قبول خبر الواحد ولو كان فيما تعم به البلوى لاطلاق النصــوص الدالة على وجوب العمل بالخبر واتفاق الصحابة على العمل به فى ذلك(١) ·

والأستاذ الامام يعمل بالسنة العملية والمشهورة · ويقبل خبر الآحاد بالشروط السابقة ويضيف اليها ان يكون معناه مما يقبله المجتهد ويرى لنفسه حق الاجتهاد · وحق قبول الخبر ورفضه »(٢)·

وقد وضحت ان معنى حـديث السحر لا يعارض القرآن لأن حديث السحر خاص بالجسم والخيال ، والقرآن بالعقل والروح ،

---

(١) اصول التشريع الاسلامى ص ٤٢ للاستاذ على حسب الله ·

(٢) تفسير جزء عم ص ١٨٤ ·

« أو لأن اليهود عملوا سحرا وظنوا انه سيؤثر فى عقله وروحه عليه السلام كما يؤثر فى سائر البشر ، فلم يؤثر السحر الا فى بدنه ، فلا يلزم من صحة الحديث كونه عليه السلام أصيب بالسحر المرادف للجنون »(١) ٠

وأخيرا نرى ان فى موضوع السحر تعبيرات للامام جانبها الصواب :

١ ـ واذا ثبت أن بعض السحر علم يعتمد على الحقائق ، كان كلام الامام مجانبا للصواب وما بنى عليه مجانب للصواب أيضا »(٢) ٠

٢ ـ قال الامام ان تعلم السحر كفر ، والأولى أن يقال ان تعلم السحر للعمل به كفر ٠ أما تعلمه للرد على المبطلين فليس بكفر ، لأن الأعمال بالنيات ٠ ولأن كفر السحرة مصدره اعتقادهم أن النجوم والكواكب أو غيرها قادرة على جلب نفع او دفع ضر ٠ وذلك الاعتقاد هو سبب الكفر لا تعلم السحر فى حد ذاته ٠

ونضرب مثلا بالسم ، فان تعلم صناعته للدواء حلال ولكن تعلم صناعته لقتل انسان حرام ، كما أن تعلم تركيب السم فى حد ذاته مباح ، فالأصل فى الأشياء الاباحة ٠

٣ ـ قال الامام : ان ذكر القرآن للسحر فى سورة البقرة لا يستتبع اعترافه به أو التسليم بأنه علم لا خرافة « فالقرآن

---

(١) انظر تفسير الجصاص المسمى احكام القرآن عند الكلام على قوله تعالى : واتبعوا الشياطين على ملك سليمان ٠٠ الآية ٠

(٢) انظر مجلة الازهر المجلد ٢٥ (٤) عدد ربيع الآخر ١٣٧٣ ( ٨ ديسمبر ١٩٥٣ ) نفحات من القرآن سحر هاروت وماروت لفضيلة الشيخ عبد اللطيف السبكى عضو جماعة كبار العلماء ٠

يحكى من عقائد السابقين الحق والباطل ، وقد يأتى فى الحكاية بالتعبيرات المستعملة عند المخاطبين وان لم تكن صحيحة فى نفسها لقوله تعالى : (( كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس ))(١) .

وعلماء الأصول يقولون : « ان القرآن اذا حكى امرا لا يقره او ذكر شيئا يوهم غير المراد ، فانه يتبعه بما يشير الى بطلانه ، او يأتى بما يدفع الوهم وينفى الاحتمال . كما فى قوله تعالى : **وقالوا هذه انعام وحرث حجر لا يطعمها الا من نشاء بزعمهم وانعام حرمت ظهورها وأنعام لا يذكرون اسم الله افتراء عليه سيجزيهم بما كانوا يفترون ))** .

**(( وقالت اليهود عزيز ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بافواههم ))** . ذلك لأن الله أنزل كتابه لارشاد الناس وسماه فرقانا وهدى ونورا وجعله بيانا وتبيانا وبرهانا . فلا يناسبه ــ وهذا شأنه ــ أن يحكى ما ليس بحق ثم لا ينبه عليه ، فان السكوت عنه يعد اقرارا له . ومن هنا نشأت القاعدة الآتية :

قاعدة : ما حكى فى القرآن ــ اذا ورد معه ما يفيد رده فهو باطل لا يصح الاستنباط منه . واذا لم يرد معه رد له فهو صحيح معتد به(٢) .

فالامام يرى أن ما حكى فى القرآن ولم يرد معه ما يفيد رده لا يلزم أن يكون صحيحا . والقاعدة أنه يكون صحيحا معتدا به ، فحكاية القرآن لتعليم السحر ، تفيد ان السحر حقيقة فى حذا ذاتها .

---

(١) تفسير المنار جا ص ٣٩٩ .
(٢) اصول التشريع الاسلامى للاستاذ على حسب الله ص ٢٨ و ٢٩ .

( ج ) تقديس الأولياء :

جاهد الأستاذ الامام فى تنقية الاسلام من الشوائب التى طرأت عليه • ولذلك حارب النزعات الصوفية المتطرفة • وقد تطور الأستاذ الامام نفسه فى موقفه من الصوفية •

فبينما نجده فى نشأته صوفيا سلبيا يميل الى كثرة الذكر والعبادة ، ويعتمد على بعض اشارات عابرة فى توجهه مثل حكايته عن نفسه حينما كان يدرس فى طنطا ، قال : « فرأيت أمامى شخصا يشبه أن يكون من أولئك الذين يسمونهم بالمجاذيب فلما رفعت راسى اليه قال ما معناه : ما أحلى حلوى مصر البيضاء : فقلت : وأين الحلوى التى معك ؟ فقال : سبحان الله من جد وجد • ثم انصرف، فعددت ذلك القول منه الهاما ساقه الله الى ليحملنى على طلب العلم فى مصر دون طنطا »(١) •

وفى القاهرة اتصل الأستاذ الامام بالسيد جمال الدين • وهو رجل يفهم الاسلام على أنه الرباط الوثيق بين المسلمين ، وأن العمل له والجهاد فى سبيله واجب حتى يخلص المسلمون من الذل والاستعمار ويكونون جامعة اسلامية يستردون بها مجدهم القديم وعزهم الغابر •

وقد تأثر الأستاذ الامام بجمال الدين تأثرا بالغا وبدأ ينزع عن التصوف السلبى الى المعانى الأخلاقية والسلوك العلمى والجهاد بلسانه وقلمه فى سبيل اصلاح الأمة وتربية أخلاقها وتقويم سلوكها •

وقد تأثر كذلك بابن تيمية وابن القيم وتلميذهما محمد بن

---

(١) تاريخ الاستاذ الامام ج٤ ص ٢٤ •

عبد الوهاب فى محاربة البدع والخرافات والطقوس الدينية البعيدة عن الروح الأصيلة للاسلام(١) ٠

فحمل حملة شعواء على تقديس الأولياء والتضرع اليهم وسؤالهم قضاء الحاجات ، وحمل على المتصوفة والادعياء الذين يتكاسلون عن العمل(٢) والانتاج ٠ وذكر انهم من أسباب تأخر المسلمين وضعفهم ، كما هاجم مذهب الجبريين وبرأ الاسلام منهم لأن المسلم الجبرى عنصر سلبى لا يعمل ولا يكافح ولا يأخذ بأسباب الحياة ، وبين ان الاسلام دين العمل والجد لا دين الكسل والتواكل « والاحتجاج على ترك العمل بالقدر من عقائد الملحدين ٠ وقد جاء الكتاب الكريم بتشنيع اعتقادهم ، والنعى عليهم فيه ٠ وقد حكى لنا ما كانوا يقولون من نحو « لو شاء الله ما اشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شىء » فلا يسوغ لأحد منا وهو يدعى أنه مؤمن بالقرآن ، ان يحتج بما كان يحتج به المشركون ٠ من يزعم أنه متوكل من المتظاهرين بالصلاح فهو كاذب زنديق لأنه انما يدعى التواكل اذا طولب بأمر فيه مشقة عليه أو يجد فى نفسه عجزا عنه ، ولاسيما اذا كان فى مصلحة عامة ٠ فهو يرضى بما يجد ، فاذا رجع اولئك المتبتلون الى منافعهم الخاصة ، لم تجد للتوكل فى نفوسهم أثرا ٠ فهم يغشون ويخادعون ويحتالون لتحصيل ما به يعيشون أو ما به على الناس يظهرون وحينئذ لا يرجعون الى التواكل فهم كذبة لا يصح الاقتداء بهم ٠ وكفانا قدوة وخير أسوة سيد

---

(١) مختصر الفتاوى لابن تيمية : تاليف الشيخ بدر الدين محمد بن على الحنبلى من ص ٢٤٠ ــ ٢٤٥ وانظر مذاهب التفسير الاسلامى ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار ص ٣٦٣ ٠

(٢) المنار جزء ١ ص ١٨٨ تفسير آية « فلا تجعلوا لله اندادا وانتم تعلمون » ٠

المتوكلين صلى الله عليه وسلم فانه كان على شدة توكله واعتصامه بالاستعانة بالله جل شأنه ، لا يفتر عن العمل فى الدعوة الى الحق وحمل الناس عليه .

يحتج بعض الناس على كسلهم بقوله صلى الله عليه وسلم : لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا .

« ويفسرون ذلك باننا لو القينا اثقالنا على الله وتركنا اسباب عيشنا فى كسبنا ومأكلنا ومطبخنا ومرقدنا ارزقنا كما ترزق الطير تابث فى أعشاشها وتفتح أفواهها فتصبح خماصا وتمسى بطانا . يظنون ان هذا الحديث حث على البطالة وترك العمل . والكلام فى معنى حق التوكل مظنة ترك السعى بالمرة ، وهو خطأ محض . فالمراد من حق التوكل أن يعتمد الانسان على الله سبحانه وتعالى مع اتباع سنته التى سنها فى الطلب فيحصل الطالب من اسباب مطلوبة ما جعله الله سببا ويدقق النظر فى ذلك ما شاء حسبما طالبه الله تعالى به ، ثم بعد أن يستعمل الأسباب ينادى ربه فى سره : أن قد أتيت بما فى استطاعتي على مقدار ما وهبتنى وما بقى مما لا أعلم ولا أملك فهو فى يدك فأغنى بقدرتك ولا تحرمنى من معونتك ، ثم يمضى فى عمله . هذا هو حق التوكل . وقد اشار اليه صلى الله عليه وسلم « تغدو خماصا وتروح بطانا » فانه أراد بذلك أن الطير انما تسير فى تحصيل معاشها على الالهام الذى أودعه الله فيها، ألهمها معرفة الأماكن التى فيها اقواتها ، كما الهمها الغدو الى تلك الأماكن لتصيب أقواتها منها ، فهى تعمل بارادتها على ذلك الشعور الذى منحه الله اياها . فحق التوكل لا يتم لنا الا بان نجرى فى أعمالنا على ما يقوم عندنا مقام الالهام عند الطير . والذى يقوم عندنا مقام الالهام هو العقل ، فلا نكون متوكلين حق

التوكل حتى نستعمل عقولنا فى الوسائل التى توصلنا الى بلوغ الغاية من اعمالنا وأن نجيد الاستعمال حتى لا يقع لنا ضلال فى طرق الوصول الى المقصود ، فالاعتماد على الله بهذه الطريقة كافل لنجاح الأعمال »(١) .

## مفسرون متأثرون بالامام فى حربه للبدع وتقديس الأولياء

١ ـ رشيد رضا :

وقد سار في طريق الأستاذ الامام تلميذه الوفى السيد الأستاذ محمد رشيد رضا وقد كان أصرح من استاذه محمد عبده ، اذ وجه اعنف ثوراته من بين جميع البدع الى هذا القالب من التقديس الذى هو غريب على روح الاسلام الأول وكان يدمغه دون انقطاع بأنه وثنية تسربت الى الاسلام . » ولكن وجد ايضا فى مجرى مشروعاته الدينية فرصة للاقتناع بمبلغ الصعوبة فى انتزاع هذه العادة المتأصلة فى مجال أوسع كثيرا من دائرة الشعب الجاهل . واقتلاعها من المحصول الدينى عند السذج من المسلمين . وقد ألقى سلسلة من المحاضرات فى مسجد الحسين وتعرض فى احدى محاضراته الى نقد الحديث « لو حسن أحدكم ظنه بحجر لنفعه » وهو حديث حصل كثيرا الانتفاع به فى اثبات جواز تقديس الأشياء التى يظن بها القداسة . واثبت السيد محمد رشيد رضا لحلقة المستمعين اليه أنه موضوع ، ثم تبع هذه النظرية باستخدام تطبيق عملي ، ففى فناء هذا المسجد تخص العقيدة الشعبية أحد الأعمدة المرمرية القائمة به بتقديس خاص . اذ يقال أن القطب اى كبر ديوان الأولياء يظهر عنده فى أوقات معلومة ويؤدى الصلاة الى

---

(١) كتاب الهلال : دروس من القرآن الكريم للأستاذ الامام محمد عبده العدد ٩٦ ـ شعبان ١٣٧٨ مارس ١٩٥٩ ص ١٢٥ .

جانبه ، فهذه العلاقة بذلك الشخص الذى يبلغ أسمى مراتب القداسة والذى يسعى بين اظهر المسلمين دون أن يعرفه أحد تعير هـذا العامود مكانة من التقديس غير طبيعية تماما وهذه مزية يشترك فيها هـذا العامود مع غيره من الأشياء التى تتعلق بها مثل هـذه الخرافة ، ويمنى الناس أنفسهم بفوز كبير من اجل الصلاة عند هذا العامود أو التمسح به وهو مثال آخر للعقيدة المنتشرة بما للمسح والتمسح من قوة سحرية ٠

وفى جوار هذا الموضع المقدس وجد المحاضر فى نفسه الشجاعة للقصد الى تعليم الناس أن هذه المـادة الحجرية لا تستطيع نفعـا ولا ضرا وان النافع الضـار هو الله وحده « ولكنـه جعل للنفع والضر أسبابا ، وهدانا لاجتناب الضـار واجتلاب النافع بما وهب لنا من العقل والحواس والدين ، وعم اللغط بذلك حتى نصرنا الله رب العالمين »(١) ٠ وقد عقد السيد رشيد رضـا فصلا كاملا عن الوسيلة عند تفسيره لقوله تعـالى : (( **يايها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا اليه الوسيلة** )) ٠ وبين أنها العمل الصـالح والطرق التى أمر الدين باتباعهـا ، ولا يجوز التوسل بالأبدال والأولياء كمـا يفعل الناس ٠ فالعمدة فى النجاة والفلاح تزكية النفس بالايمـان والفضائل والأعمال الصالحة فبذلك تصلح نفوسهم وتكون أهـلا لرضوان الله تعالى ٠ وأما من دنس نفسه بالشرك والفسق والفساد فى الأرض فلا يكون اهلا لمرضاة الله ودار كرامته ٠ فلا يقبل منه فداء ولا تنفعه شفاعة الشافعين»(٢) ٠

---

(١) مذاهب التفسير الاسلامى ترجمة دكتور عبد الحليم النجار ص ٣٦٥ والمنار جـ٦ من صفحة ٣٦٨ الى ٣٧٩ ٠

(٢) المنار جـ٦ ص ٣٧٨ ٠

٢ ـ عبد الجليـل عيسى :

وممن تأثر بالأستاذ الامام فى نزعته السلفية وحربه البدع والخرافات فضيلة الأستاذ الشيخ عبد الجليل عيسى فى تفسيره الذى ظهر حديثا(١) . وهو يحيل فى مواضـع كثيرة من هذا التفسير على كتابه : « صفوة صحيح البخارى » ومما أحال عليه شرحه للحديث رقم ( ٦٦ ) عن عائشة وابن عباس رضى الله عنهما قالا : لما نزل برسول الله صلى الله عليه وسلم طفق يطرح خميصة له على وجهه فاذا اغتم بها كشفها عن وجهه . فقال وهو كذلك « لعنة الله على اليهود والنصارى ، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » يحذر ما صنعوا .

وقال الشيخ عبد الجليل عيسى فى تعليقه على هذا الحديث : « ومع هذا التحذير الشـديد الذى صدر منه صلى الله عليه وسلم فى آخر لحظـة من حياته الشريفة ولم يشغله عنه خطورة مرض ولا سكرات موت فقد وقع كثير من المسـلمين فيما حذرهم منه فيا هى ذى المساجد قد اتخذت على القبور فى كل بلد ومكان . وها هم أولاء المسلمون قد نصبوا عليها أمثال التماثيل من العمائم والخمر ، كمـا وقع كثـير من الجهـال فيما وقع فيه المشركون قبلهم ، فصاروا يستغيثون بقبور الصـالحين ، ويطوفون حولها ، ويتمسحون بها كما يفعل بالكعبة المشرفة ، ويطلبون من اصحابها ما لا يقدر عليه الا الله : كشفاء المريض وقذف المحبة والبغض فى القلوب ، وسعة الرزق . وبعضهم يشكو اليهم ظلم الحـاكم وجور الوالى ، فيرفع العرائض مكتوبة بالبريد وغير البريد . ومن العـار

---

(١) نجد فى هذا التفسير بحوثا كاملة صرح المؤلف بنقلها عن الامام ، انظر تفسيره الاول سورة النساء : « يا ايها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها » واسم هذا التفسير ، تيسير التفسير .

والخزى أن يقع هذا كل يوم صباحا ومساء تحت بصر رجال الدين وسمعهم ، ولا انكار ولا ارشاد ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم »(١) ٠

ومما تقدم نلاحظ أن هناك نزعة سلفية كانت رد فعل لانتشار الخرافات والبدع الغريبة عن روح الاسلام فقامت تدعو الى الاسلام فى بساطة وايمان بالله وحده والتوسل اليه بالعمل الصالح ونبذ الوسائط والشفعاء ، واعتبار ذلك شركا أصغر ٠

هذه النزعة قادها الامام ابن تيمية وابن القيم ، والحنابلة من قبلهم ونفذ فكرتها الامام محمد بن عبد الوهاب ودعا اليها الامام محمد عبده وتلميذه السيد رشيد رضا ٠

ولا يزال أحرار المفكرين والطليعة من الموجهين فى العالم الاسلامى يدينون بهذه العقيدة السلفية ٠

وقد بالغ قوم فى هذه الفكرة فجعلوها محور نشاطهم ، وثبتوا عليها جهادهم ودعواتهم ٠ مثل جماعة أنصار السنة(٢) بمصر التى تقصر كل نشاطها على حرب البدع والنواحى السلبية غير الايجابية٠ وهذا خطأ جسيم لأن الاسلام لا يصلح أن يؤخذ جزء منه ونترك الأجزاء الباقية ، والقرآن كل يكمل بعضه بعضا ، وقد انزله الله روحا يحيى به القلوب بعد موتها ، وعاب على أهل الكتاب قائلا : **« افتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم الا خزى فى الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون الى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون »** ٠

---

(١) صفوة صحيح البخارى شرح الشيخ عبد الجليل عيسى ـ طبعة حجازى عام ١٣٦٧ هـ ١٩٤٨ م الجزء الثانى ص ٢٢ ٠

(٢) تمول هذه الجماعة الحكومة السعودية ، وتوفى قريبا رئيسها المرحوم الشيخ حامد الفقى ٠

## الأســاس الســابع

# ترك الاطنــاب فى الكــلام

## عما ورد فى القرآن بصــورة مبهمة

### ١ ـ منهج الامام فى تفسير المبهم :

القرآن الكريم كتاب هداية يذكر من الأخبار والحوادث وأحوال السابقين ما يحقق هذه الهداية ويمسـك عما لا فائدة من ذكره فالبحث عنه تكلف ٠

وقد جرت عادة المفسرين ان يطنبوا فى الكلام عما ذكره القرآن بصــورة موجزة ٠ ويفيضوا فى تفاصيل قصــة أو حادثة اشـــار اليها القرآن ٠

وغالب هذه الافاضــة لا تعتمد على طريق موثوق به ، بل تعتمد غالبا على النقل من الاسرائيليات ، وقد أمرنا الا نصــدق اهل الكتاب والا نكذبهم فيما لا علم عندنا به ٠

والأســتاذ الامام يعتمد على القرآن وحده فى فهم القــرآن ولا يجاوز فى شرحه ما يحتمله مضمون النص ٠ مثال ذلك تحديد القرية الواردة فى قوله تعالى : (( **واذ قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغدا** )) ٠

فهو يقول : « ونسكت عن تعيين القريـة كما سـكت عنها القرآن ، فقد أمر بنو اسرائيل بدخول بلاد كثيرة . وكانوا يؤمرون بدخولها خاشعين لله خاضعين لأمره مستشعرين عظمتـه ونعمـه وافضاله وهو معنى السجود وروحه المراد هنا » .

وفى تحديد القرية التى نتق فيها الجبل فوق بنى اسرائيـل يقول : « وذهب جمهور المفسرين الى أن تلك القرية ايله وقيل طبرية أو مدين وقالوا ان ذلك كان فى زمن داود عليه السـلام . والقرآن لم يعين المكان ولا الزمان ، والعبرة المقصـودة لا تتوقف على تعيين هذه الجزئيات . فالحجة فيما ذكر قائمة على بنى اسرائيل ومبنية على أن مجاحدتهم ومعاندتهم للنبى صلى الله عليه وسـلم ليست بدعا من أمرهم ثم انها عبرة بينة لكل من يفسق عن أمر ربه فيتخذ الهه هواه ويعيش عيشة بهيمية »(١) .

وفى تفسيره لقوله تعالى : « **فانزلنا على الذين ظلموا رجزا من السـماء** » نراه يقول : « ونسكت عن تعيين نوع الرجز كمـا هو شأننا فى كل ما أبهمه القرآن »(٢) .

وفى تفسيره لقوله : « **وفاكهة وابـا** » يقول الفاكهـة ينتفع بها الانسان والأب المرعى الذى ينتفع به الحيوان لأنه يؤب أى يؤم وينتجع . ويروى أن أبا بكر رضى الله عنه سئل عن الأب فقال : اى سماء تظلنى ، واى أرض تقلنى اذا قلت فى كتاب الله ما لا علم لى به . وعن عمر رضى الله عنه انه قرأ هذه الآية : « كل هـذا قد عرفنـا فما الأب » ثم رفض عصـا كانت بيده اى كسرها غضبا على نفسه وقال : « اتبعوا ما تبين لكم من هـذا الكتـاب ، ومالا

---

(١) المنار جـ١ ص ٣٤٤ .
(٢) المنار جـ١ ص ٣٢٥ .

فدعوه » ويقول الامام معلقا : « اذا سمعت هذه الروايات فلا تظن أن سيدنا عمر بن الخطـاب ينهى عن تتبع معانى القرآن والبحث عن مشكلاته ولكنه يريد أن يعلمك ان الذى عليك من حيث أنت مؤمن انما هو فهم جملة المعنى ، فالمطلوب منك فى هذه الآيات هو أن تعلم أن الله يمن عليك بنعم أسـداها فى نفسك وتقويم حياتك وجعلها متاعا لك ولأنعامك ، فاذا جاء فى سردها لفظ لم تفهمـه لم يكن من جد المؤمن أن ينقطع لطلب هذا المعنى بعد فهم المراد من ذكره ، بل الواجب على أهل الجد والعزيمـة أن يعتبروا بتعداد النعم ، وان يجعلوا معظم همهم الشكر والعمل ، هكذا كان شـأن الصحابـة رضى الله عنهم . ثم خلف من بعـدهم خلف وقفوا عند الألفاظ وجعلوها شغلا شاغلا لا يهمهم الا التشدق بتصريفها وتأويلها وتحميلها ما لا تحتمله ، وقد تركوا قلوبهم خالية من الفكر والذكر، واعضاءهم معطلة عن العمل الصالح والشكر .

وقد نهج فى القصة القرآنية منهجه فى تفسير الألفاظ المبهمة فهو يفسر القصـة بما يدل عليه ظاهر لفظها ، ولا يخرج عن مدلول اللفظ جريا وراء كلام السابقين . ما دام ذلك لم يرد عن المعصوم صلى الله عليه وسلم ، أو ما دام لا يتوقف عليه بيان المعنى .

ففى سورة البقرة أمر الله بنى اسرائيل بذبح بقرة وتشـدد بنو اسرائيل فى ذكر صفاتها وماهيتها فشدد عليهم .

« ويذكر المفسرون قصـة فى حكمة هذا التشديد وهو المصير الى بقرة معينة لشخص معين كان بارا بوالديه . وقد يكون هـذا صحيحا غير أنه لا داعى اليه فى التفسير وبيان المعنى »(١) .

وفى قصـة الأخدود التى وردت فى سـورة البروج يقول :

---

(١) المنار جـ١ ص ٣٥٠ .

« أما تعيين أصحاب الأخدود وأنى كانوا ؟ ومن هم أولئك المؤمنون ؟ وأين كان منزلهم من الأرض ؟ فقد كثرت فيه الروايات والأشهر أن المؤمنين كانوا نصارى نجران عندما كان دينهم دين توحيد ليس فيه حدث ولا بدعة وان الكافرين كانوا امراء اليمن أو اليهود الذين لا يبعدون عن هؤلاء فى حقيقة الوثنية ، غير أن المؤمن لا يحتاج فى الاعتبار واشعار قلبه الموعظة الى أن يعرف القوم والجهة ، وخاصة الدين الذى كان عليه أولئك او هؤلاء حتى يطير وراء القصص المشحونة بالمبالغات والأساطير المحشوة بالخرافات وانما الذى عليه هو ان يعرف من القصة ما ذكرناه أولا ، ولو علم الله خيرا فى أكثر من ذلك لتفضل علينا به »(١) .

وفى قصة مريم الواردة فى سورة آل عمران يذكر القرآن الكريم انه : **« كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا قال يا مريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله ان الله يرزق من يشاء بغير حساب »** . قالوا كان يجد عندها فاكهة الصيف فى الشتاء وفاكهة الشتاء فى الصيف ، والله لم يقل ذلك ولا قاله رسول لله صلى الله عليه وسلم ولا هو مما يعرف والتاريخ المعتد به لم يثبته .

واسناد الرزق الى الله فى الآية لا يدل على أنه كان من خوارق العادات فاسناد المؤمنين الأمر الى الله فى مثل هذا المقام معهود فى القديم والحديث .

ثم يقول الأستاذ الامام : « ان القرآن نزل سائغا يسهل على كل أحد فهمه من غير حاجة الى عناء ولا ذهاب فى الدفاع عن شيء خلاف الظاهر . فعلينا الا نخرج عن سنته ولا نضيف اليه حكايات اسرائيلية أو غير اسرائيلية لجعل القصة من خوارق العادات .

---

(١) تفسير جزء عم ـ سورة طبرق ص ٥٩ .

والبحث عن الرزق ما هو ومن اين جاء ؟ فضول لا يحتاج اليه لفهم المعنى ولا لمزيد العبرة ولو علم الله أن فى بيانه خيرا لنا لبينه » ٠

## ٣ ـ الصراط والميزان والجنة والنار :

وقد ذكر القرآن الكريم أمورا وأشياء تتعلق بعالم الآخرة ، كالصراط والميزان والجنة والنار والصحف والكتب واللوح المحفوظ والكرام الكاتبين ٠

وقد أفاض بعض المفسرين فى وصفها وبيان ماهيتها من غير اعتماد على سند قوى ، وعلى الرغم من افاضتهم لم يصلوا الى ما يشفى النفس فى معرفة حقائق هذه الأشياء ٠

وكان تفسير الامام لهذه الغيبيات مختصرا وواضحا ٠ فهو يوافق رأى السلف فى أن علينا ان نؤمن بها كما وردت ونفوض معرفة حقيقتها الى الله تعالى ٠

فالميزان الذى يزن الله به الأعمال يوم القيامة . فمن ثقلت موازينه دخل الجنة ومن خفت موازينه دخل النار ٠ علينا أن نؤمن به كما أخبر القرآن ٠

« أما كيفية تقدير الله للأعمال وما تستحقه من الجزاء فى ذلك اليوم فانما يكون على حسب ما يعلم لا على طريقة ما نعلم ، فعلينا ان نفوض الأمر فيه اليه سبحانه مع الايمان به ، ومن عجيب ما قاله بعض المفسرين « أنه ميزان بلسان وكفتين كأطباق السموات والأرض ولا يعلم ماهيته الا الله » ٠

« فماذا بقى من ماهيته بعد لسانه وكفتيه حتى يفوض العلم فيه الى الله ؟ والكلام فيه جرأة على غيب الله بغير نص صريح متواتر

عن المعصــوم ، ولم يرد فى الكتــاب الا كلمــة الميزان وقد عرفت ما يمكننا أن نفهم منها لننتفع بما نعتقد · وما عدا ذلك فعلمــه الى الله سبحانه ، وقد قالوا ان منكر الميزان بالمعنى المعروف لا يكفر خصوصا اذا كان القائل به يحدد له لسانا وكفتين ، مع ان البشر قد اخترعوا من الموازين ما هو أتقن من ذلك وأضبط واوفى ببيان الموزون · أفيأبى الحكيم الخبير الا استعمال ذلك الميزان الخشــن الناقص الذى هدى العلم عقول البشر الى ما هو أدق منه ؟ أيأبى عــالم الغيب والشــهادة أن يستعمل فى وزن المعــانى والمعقولات الا ذلك الميزان الذى اخترعه بعض البشر قبل أن يبلغ بهم العلم ما بلغ بأهل العصر الحــاضر وما سيبلغ بأهل العصور المقبلة ؟ على أن جميع ما اخترع البشر وما يخترعون مهما دق ولطف انما هو معيار للأثقال الجسمانية والأوزان المحسوســة ، وهلا يكون الأليق بالمقام الألهى أن يكون ميزان المعــانى المعقولة لديه اسمى وأعلى من أن يكون على نمط ما يستعمله البشرمهما ارتقت المعارف وسمت بهم العلوم ؟ وهل يليق بمن يخــاف مقام ربه أن يجرؤ على القول بوجوب الاعتقاد بأن الميزان الذى يزن الله به الأعمال يوم القيامة هو الميزان الذى تستعمله القبائل التى لم تزل فى مهد الانسانيــة الأولى ، ميزان ضعفاء العقول · قصــار الأنظار الذين لا يعرفون قيمة للايمان بالغيب ولا لحياء العقل من الله واطراقه عن أن ينظر الى ما تشامخ من غيوب الله تعــالى علمه وتعاظمت قدرته · عليك أيها المؤمن المطمئن الى ما يخبر الله به أن توقن أن الله يزن الأعمال ويميز لكل عمل مقداره ولا تسل كيف يزن ولا كيف يقدر ، فهو اعلم بغيبه والله يعلم وانتم لا تعلمون »(١) ·

---

(١) جزء عم ص ١٣٩ ·

والجنة دار النعيم يتمتع بها المؤمنون يوم القيامة . وعلينـا أن نعتقد أن النعيم واللذة فيها اكمل وأوفر من جميع لذائذ الدنيا ، وانها دار خلد وأن من دخلها من اهلها لا يخرج أبدا ولا يجوز لنا البحث فى حقيقتها ولا أين موضعها ولا كيفية التمتع بها فان ذلك لا يعلمه الا الله(١) .

والنـار هى دار العـذاب والآخرة يعـذب بها اهـل الكفر والطغيان . والواجب علينا الايمان بها والتصديق بأن العذاب فيها أشد من العذاب فى نار الدنيـا ، وأنها تسعر وتوقد على المعنى الذى يريده الله .

اما كون الايقـاد بالحطب أو الفحم الحجرى او الخشـبى او ما اشبه ذلك مما هو معروف فى حياتنـا هذه ، فذلك غير واجب أن نعتقد به(٢) .

والصحف التى تنشر يوم القيامـة بعد البعث هى صـحف الأعمال والذى يجب علينـا اعتقاده أن أعمال العباد تظهر لهم ثابتة مبينة لا يرتابون فيهـا يوم الجزاء ويعبر عن معنى ذلك الثبوت والبيان بنشر صحف الأعمال . اما كون الصحف على مثال الأوراق التى نكتب عليها فى الدنيـا أو على مثال الألواح أو ما يشبه ذلك مما جرى استعماله للكتابة عليه فذلك مما لم يصـل علمنـا اليه ولن يصـل اليه بمجرد العقل ، ولم يرد عن المعصـوم صـلى الله عليه وسلم فيه نص قاطع(٣) .

وكتابة الله واحصاؤه لأعمال الانسـان هى كتابة على النحو

---

(١) تفسير جزء عم ص ١٤٩ .
(٢) جزء عم ص ١٤٠ .
(٣) جزء عم ص ٢٧ .

الذى يليق بتنزيه الله تعالى . وهى أعلى من كتابتنا التى نعرفهـا واشد منها ضبطا لكنا لا نكلف بالبحث عنها فذلك مما نؤمن به ونكل علم حقيقته الى الله(١) ٠

واللوح المحفوظ شيء أخبر الله به وانه أودعه كتابه ولم يعرفنا حقيقتـه فعلينـا أن نؤمن بأنه شيء موجود وأن الله قد حفظ فيه كتابه ايمانا بالغيب ، وأما دعوى أنه جرم مخصوص فى سماء معينة ووصفـه بما جاء فى روايات مختلفـة فهو لم يثبت عن المعصـوم صلى الله عليه وسلم بالتواتر ، فلا ينبغى أن يدخل فى عقائد أهل اليقين من المؤمنين(٢) ٠

والكرام الكاتبون : ملائكة يكتبون أعمالنا حسنات وسيئات ، وعلينا أن نؤمن بهم وأنهم مطهرون عن الغرض والنسيان ، ولكن ليس علينـا أن نبحث عن حقيقة هؤلاء ومن اى شيء خلقوا وما هو عملهم فى حفظهم وكتابتهم ، هل عندهم اوراق وأقلام ومداد كالمعهود عندنا وهو ما يبعد فهمه ، او هناك ألواح ترسم فيها الأعمال وهل الحروف والصـور التى ترسم هى على نحو ما نعهد او انما هى أرواح تتجلى لها الأعمال فتبقى فيها بقاء المداد فى القرطاس ، الى أن يبعث الله الناس ، كل ذلك لا نكلف العلم به وانما نكلف الايمان بصـدق الخبر وتفويض الأمر فى معناه الى الله ، والذى يجب علينا اعتقاده من جهة ما يدخل فى عملنا هو أن أعمالنا تحفظ وتحصى لا يضيع منها نقير ولا قطمير(٣) ٠

وأحيانا يعرض الأستاذ الامام أكثر من رأى فى تفسيره لغيبيات القرآن مثل قوله تعالى (( **وجاء ربك والملك صفا صفا** )) ٠ ويقول ،

---

(١) جزء عم ص ٦ ٠
(٢) جزء عم ص ٦١ ٠
(٣) جزء عم ص ٣٦ ٠

أما اسـناد المجيء لله فى عذه الآية ففيه رأى السلف رضى الله عنهم، وهو ان ذلك مجيء نؤمن به ولا نطلب معناه ولكنه يمثل لنا الهيبة والعظمة وظهور السلطان الالهى فى ذلك اليوم وهو الأفضل .

وفيه مذهب الخلف وهو أنه على تقدير وجاء أمر ربك أو انه من قبيل التمثيل لتجلى السطوة الالهية على القلوب ، كما تتجلى أبهة الملك للأعين اذا جاء فى جيوشه ومواكبه ولله المثل الأعلى(١) .

واذا قارنا هذا المنهج الروحى العملى ، بما ورد فى بعض كتب التفاسير فى مثل هذه المواضـع تجلى لنا أن الأسـتاذ الامام سلك سبيلا مستقيما وحفظ على القرآن قداسـته وعلى الغيب حرمته . ورد التهجم على الغيب من غير دليـل . وابعد عن التفسـير آثار المجسمة والمشبهة ، ونقاه من الروايات المـأثورة التى لا تستند الى دليل علمى أو سند سليم .

**مقارنة بين المفسرين :**

مثال لمقارنة رأى الامام فى الغيبيات بآراء المفسرين السابقين :

جاء فى تفسير الجـلالين لقوله تعـالى : ﴿ **وجاء ربك والملك صفا صفا** ﴾ ( جاء ربك ) اى جاء امره ( والملك ) اى الملائكة ( صفا صفا ) حال أى مصطفين أو ذوى صفوف كثيرة .

وهذا تفسـير مختصر وواضح وكان الامام يعتمد عليـه وان خالفه ونقده فى كثير من المواضع .

ولكن اذا نظرنا الى تعليق سليمان بن عمر العجيلى الشـهير بالجمل فى حاشيته « الفتوحات الالهية بتوضيح تفسـير الجلالين للدقائق الخفية » رأيناه يعلق على تفسـير الجلالين للآية بقوله :

---

(١) جزء عم ص ٨٤ .

« قوله أى جاء أمره » اى حصـل تجليه على الخلائق وظهر سلطان من آثار هيبته وسياسته ٠ أ هـ ( قوله صفا صفا ) اى تنزل ملائكة كل سماء صفا على حدة فيصطفون صفا بعد صف محدقين بالجن والانس فيكونون سبع صفوف أ هـ خازن ٠ وفى تذكرة القرطبى ما نصـه وذكر ابو حامد فى كتاب كشف علوم الآخرة عن ابن عباس والضحاك فقال : ان الخلائق اذا اجتمعوا فى صعيد واحد الأولين والآخرين أمر الجليل جل جلاله بملائكة سـماء الدنيا أن يتولوهم فيأخذ كل واحد منهم انسانا وشخصا فى المبعوثين انسا وجنا ووحشا وطيرا وحولوهم الى الأرض الثانيـة أى التى تبدل وهى أرض بيضاء من فضـة نورانيه ، وصارت الملائكة من وراء الخلق حلقـة واحدة ، فاذا هم أكثر من أهل الأرض بعشر مرات ٠ ثم تنزل ملائكة السماء الثانيـة فيحدقون من وراء الكل حلقة واحدة فاذا هم مثلهم ضعفا ٠ ثم تنزل ملائكة السـماء الثالثة فيحدقون من وراء الكل حلقة واحـدة فيكونون أكثر منهم بثلاثين ضعفا ٠ ثم تنزل ملائكة السماء الرابعة فيحدقون من وراء الكل حلقـة واحدة فيكونون أكثر منهم بأربعين ضعفا ٠ ثم تنزل ملائكة السماء الخامسة فيحدقون من وراء الكل حلقة واحدة فيكونون مثلهم خمسين مرة ٠ ثم تنزل ملائكة السماء السادسـة فيحدقون من وراء الكل حلقة واحدة وهم مثلهم ستون مرة ٠ ثم تنزل ملائكة السماء السابعة فيحدقون من وراء الكل حلقة واحدة وهم مثلهم سبعون مرة ٠ والخلق تتداخل وتندمج حتى يعلو القدم الف قدم لشدة الزحـام ويخوض الناس فى العرق على أنواع مختلفـة الى الأذقان والصـدور والى الحقوين والى الركبتين ومنهم من يصيبه الرشح اليسير كالقاعد فى الحمام ، ومنهم من يصيبه البلة بكسر الموحدة وتشديد اللام كالعاطش اذا شرب المـاء وكيف لا يكون القلق والعرق والأرق وقد قربت الشمس من رءوسهم حتى لو مد احدهم يده لنالها وتضـاعف حرها سبعين

مرة . وقال بعض السلف ولو طلعت الشمس على الأرض كهيئتها يوم القيامة لاحترقت الأرض وذاب الصخر ونشفت الأنهار . فبينما الخلائق يموجون فى تلك الأرض البيضاء التى ذكرها الله حيث يقول : (( يوم تبدل الأرض غير الأرض )) الخ .

الى غير ذلك مما لا يصدقه العقل ، ولم يصح به النقل فان كثرة الملائكة الى هذا الحد وتحديد صفوفهم وغير ذلك من احوال الموقف اما أن يكون من اختراع الخيال أو نقلا عن الاسرائيليات .

وبذا يتضح لنا صواب موقف الامام من هذه الغيبيات وطلبه الايمان بها كما وردت وتفويض حقيقتها الى الله تعالى .

**٣ ـ القضاء والقدر :**

وقد سلك الأستاذ الامام هذا المسلك الروحى العملى فى تفسيره للقضاء والقدر . فقد شغلت مسألة القضاء والقدر حيزا كبيرا من كتب التفسير المذهبية . مثل كتاب الكشاف للزمخشرى الذى يمثل منهج المعتزلة . وكتاب الفخر الرازى الذى يمثل مذهب أهل السنة ويهتم كثيرا بعرض آراء المعتزلة مفصلة والرد عليهم بقوة فى الخصومة واهتمام بالدليل والحجة .

ولكن الأستاذ الامام يصرح فى تفسيره لسورة العصر » بأن مسائل علم الله وقضائه السابق من حيث يتعلقان بأفعال العباد هى من سر القدر الذى لا تكاد العقول أن تصل اليه .

فوجب على المسلم أن يعتقد بأن الله خالق كل شىء على النحو الذى يعلمه . وبأنه يجب عليه مع ذلك أن يقر بأن أعماله منسوبة اليه ، وان يعمل بما أمره به ويتجنب ما نهاه عنه وذلك باستعمال تلك الحرية التى يجدها من نفسه . وليس على المسلم بعد هذا أن يبحث فيما وراء ذلك . وقدنهى القرآن والحديث عن الخوض

والجدال فى القدر لما فيه من جسيم الخطر · على أن الايمان ليس بحاجة الى بحث هذه المشكلة الغامضة · وانما التطلع الى حلها هو شره العقول فى طلب رفع الأستار عن الأسرار · وليس فى مقدور العامة ان تنفذ بصائرها الى اسرار الحرية والقدر فذلك شأن من شئون القليلين من أهل الولاية والصفاء(١) ·

وقد رفض الأستاذ الامام مذهب الجبر الذى يذهب الى ان الانسان مجبور فى عمله كالريشة فى مهب الرياح · وحارب المتواكلين من الصوفية ونبههم الى الأخذ بالأسباب وطرح التواكل والكسل وبين أن عمل الانسان مناط ثوابه وعقابه · وان ايماننا بالقضاء والقدر لنستمد من الله العون ولنأخذ بأسباب الحياة واثقين آن قدرة الله فوق قدرتنا ، فنستمد منه التوفيق والهداية والعون والمساعدة ·

« والاعتقاد بالقضاء والقدر يؤيده الدليل القاطع بل ترشد اليه الفطرة ويسهل على من له فكرة ان يلتفت الى ان كل حادث له سبب يقارنه فى الزمان · وانه لا يرى من سلسلة الأسباب الا ما هو حاضر لديه ، ولا يعلم ماضيها الا مبدع نظامها وان لكل منها مدخلا ظاهرا فيما بعده بتقدير العزيز العليم » ·

وارادة الانسان انما هى حلقة من حلقات تلك السلسلة وليست الارادة الا أثر من آثار الادراك ، والادراك انفعال النفس بما يعرض على الحواس ، وشعورها بما أودع فى الفطرة من الحاجات فلظواهر الكون من السلطة على الفكرة والارادة ما لا ينكره أبله ، فضلا عن عاقل ، وان مبدأ هذه الأسباب التى ترى فى الظاهر مؤثرة انما هو بيد مدبر الكون الأعظم الذى أبدع الأشياء على وفق حكمته

---

(١) رسالة التوحيد ص ٧٠ ·

وجعل كل حادث تابعا لشبهه كأنه جزاء له ، خصـوصا فى العالم الانسـانى ٠

ولو فرضنا أن جاهلا ضل عن الاعتراف بوجود اله صـانع للعالم فليس فى امكانـه أن يتخلص من الاعتراف بتأثير العوامـل الطبيعية والحوادث الدهرية فى الارادات البشرية ٠

فهل يستطيع انسان ان يخرج عن هـذه السنة التى سـنها الله فى خلقه ، هذا أمر يعترف به طلاب الحقـائق ، فضـلا عن الواصلين ، الاعتقاد بالقضاء والقدر اذا تجرد عن شـناعة الجبر يتبعه صفة الجراة والاقدام ، وخلق الشجاعة والبسالة ٠ ويبعث على اقتحام المهـالك التى ترتجف لها قلوب الأسـود وتنشق منها مرائر النمور ( هذا الاعتقاد يطبع الأنفس على الثقـة والثبات واحتمال المكاره ومقاومة الأهوال ، ويحليها بحلى الجود والسخاء ويدعوها الى الخروج عن كل ما يعز عليهـا بل يحملهـا على بذل الأرواح والتخلى عن نضرة الحياة ٠ كل هذا فى سبيل الحق الذى قد دعاها للاعتقاد تهذه العقيدة ٠

الذى يعتقد بأن الأجل محدود ، والرزق مكفول والأشـياء بيد الله كيف يرهب الموت فى الدفـاع عن حقه واعلاء كلمة أمتـه او ملته ؟ والقيام بما فرض الله عليه من ذلك ؟ وكيف يخشى الفقر مما ينفق من ماله فى تعزيز الحق وتشييد المجد على حسب الأوامر الالهية واصـول الاجتماعات البشرية ٠

امتدح الله المسلمين بهذا الاعتقاد مع بيان فضله فى قوله الحق: (( الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشـوهم فزادهم ايمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل * فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سـوء واتبعوا رضـوان الله ، والله ذو فضل عظيم ))

هذا الاعتقاد هو الذى ثبتت به أقدام بعض الأعداد القليلة منهم أمام جيوش يغص بها الفضاء ، ويضيق بها بسيط الغبراء · فكشفوهم عن مواقعهم وردوهم على اعقابهم ·

واندفع المسلمون فى أوائل نشـأتهم الى الممالك والأقطـار يفتحونها ويتسلطون عليها فأرغموا الملوك وأذلوا القياصرة والأكاسرة فى مدة لا تتجـاوز ثمانين سنة · ان هـذا ليعد من خوارق العادات وعظائم المعجزات · دمروا بلادا ودكدكوا اطوادا وارجفوا كل قلب ، وارعدوا كل فريصـة وما كان قائدهم وسـائقهم فى جميع هـذا الا الاعتقاد بالقضاء والقدر ، بهذا الاعتقاد لمعت سيوفهم بالشرق ، وانقضت شهبها على الحيارى فى صبوات الحروب من أهل المغرب ، وهو الذى حملهم على بذل أموالهم وجميع ما يملكون من رزق فى سبيل اعـلاء كلمتهم لا يخشون فقرا ولا يخـافون فاقة · هـذا الاعتقاد هو الذى سهل عليهم حمل اولادهم ونسائهم ومن يكون فى حجورهم الى ساحات القتال فى اقصى بلاد العالم ، كأنما يسيرون الى الحدائق والرياض ، وكأنهم أخذوا لأنفسهم بالتوكل على الله أمانا من كل غادرة · وأحاطوها من الاعتماد عليه بحصـن يصونهم من كل طارقة وكان نسـاؤهم واولادهم يتولون سقاية جيوشـهم وخدمتها فيما تحتـاج اليه لا يفترق النساء والأولاد عن الرجـال والكهول الا بحمل السـلاح ، ولا تاخذ النساء رهبـة ولا تغشى الأولاد مهابـة ·

هذا الاعتقاد هو الذى ارتفع بهم الى حد كان ذكر اسـمهم يذيب القلوب ويبدد افلاذ الاكبـاد ، حتى كانوا ينصرون بالرعب يقذف فى قلوب اعدائهم فيهزمون بجيوش الرهبة قبل أن يشيموا

بروق سيوفهم ولمعان أسنتهم ، بل قبل أن تصل الى تخومهم أطراف جحافلهم »(١) .

**٤ ــ الأسباب التى دعت الامام الى هذا التفسير للقضاء والقدر :**

لقد كان الأستاذ الامام مدفوعا الى هذا التفسير العملى بعوامل عدة :

أولا ــ حسن فهمه لطبيعة الاسلام وأنه يدعو الى الايمان بالله والاعتقاد بقدرته وعلمه الأزلى القديم وأن الله بكل شىء عليم .

وهذا الاعتقاد يجب أن يكون دافعا قويا للانسان نحو العمل، مع ثقته بالقوة العليا التى منحته العقل والتفكير والارادة والاختيار . فلا تناقض بين الايمان بالقضاء والقدر والاعتقاد بحرية الكسب والاختيار ولا تخالف بينهما فى الحقيقة : فالله فاعل من حيث العبد فاعل والعبد فاعل من حيث الرب فاعل ، والوجود فى جميع مراتبه مختار(٢) .

وفى الحديث أن النبى صلى الله عليه وسلم صعد المنبر فرفع يده اليمنى وقال : هؤلاء اصحاب أهل الجنة بأسمائهم واسماء آبائهم وأمهاتهم لا يزيدون ولا ينقصون . ورفع يده اليسرى وقال : هؤلاء أصحاب أهل النار بأسمائهم وأسماء آبائهم وامهاتهم لا يزيدون ولا ينقصون . وان الرجل من أهل الجنة ليعمل بعمل أهل النار

(١) تاريخ الاستاذ الامام الجزء الثانى ص ٢٦٤ نقلا عن جريدة العروة الوثقى ــ العدد الخامس الذى نشر فى ١٤ جمادى الآخرة ١٣٠١ هـ ، ١٠ ابريل ١٨٨٤ م .

(٢) الاستاذ الامام محمد عبده : رسالة الواردات ص ٢١ .

حتى اذا لم يبق بينه وبين النار الا مقدار فواق ناقة يسبق عليه القضاء ، فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخل الجنة ، وان الرجل من أهل النار ليعمل بعمل أهل الجنة حتى اذا لم يبق بينه وبين الجنة الا مقدار فواق ناقة يسبق عليه القضاء فيعمل بعمل أهل النار فيدخل النار ٠

قالوا افلا نتكل يا رسول الله ؟ قال لا ٠ اعملوا فكل ميسر لما خلق له ، ان الله عز وجل يقول : **«فاما من اعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى ٠ واما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى »** ٠

وهكذا يجمع الاسلام بين الايمان بالقدر والدعوة الى العمل فيقف موقفا وسطا بين الجبر المطلق ، والحرية المطلقة ٠

**ثانيا** ـ رده على المستشرقين والمستعمرين الذين يزعمون أن سبب تأخر المسلمين هو شيوع الايمان بالقضاء والقدر ، واعتقادهم أن العبد مسير غير مخير ، وأن عقيدة الجبرية التى تزعم أن العبد مجبر فى جميع أعماله كالريشة فى مهب الرياح مما يدين بها المسلمون ، وهى السبب فى تخلفهم وعجزهم ٠

وقد نهض الأستاذ الامام للرد على هانوتو ـ وزير خارجية فرنسا سابقا ـ « الذى ادعى أن مسافة الخلف بين الاسلام والنصرانية واسعة ٠ من حيث البحث فى القدرة الالهية والحرية الانسانية وان الاسلام بتمسكه بعقيدة القضاء والقدر ، انما ينحط بالانسان الى الدرك الأسفل ، ويرفع الاله عنه فى علاء لا نهاية له ، فى حين ان عقائد المسيحية ترتفع بمعتقديها الى أعلى مراتب الكمالات الانسانية »(١) ٠

---

(١) دكتور عثمان أمين ـ رائد الفكر المصرى الامام محمد عبده ص ١٠٧ ـ وتاريخ الاستاذ الامام جـ٢ ص ٤٢٠ و ٤٢١ ٠

على ذلك الادعاء اجاب الأستاذ الامام :

« هل نسى مسيو هانوتو أن البحث فى القدر لم يختص بملة من الملل وأن منشأ الكلام فيه هو الاعتقاد باحاطة علم الله بكل شيء وشمول قدرته لكل ممكن ؟ وهل نسي أن الخلاف فى المسألة قد عظم بين المسيحيين أنفسهم قبل الاسلام . واستمر الى هذه الأيام ، ان أتباع « القديس توما » وان « الدمينيكيين » وان فى خطب « لوثر » و « كلفان » ما يثبت قول المسيحيين بالقدر ونزوعهم اليه »(١) .

ويذكر الأستاذ الامام أن « بوسويه » حين اتخذ موقفا وسطا بين الجبر المطلق والحرية الخاصة لم يصنع أكثر من اتخاذه موقفا اسلاميا فى صميمه(٢) .

ونشر الامام بالعروة الوثقى مقالا وضح فيه أن الاسلام يدعو المسلم الى الانشاء والعمل ويحفزه الى البناء والانتاج ويفهمه أن له حرية واختيارا وفرق الامام بين القضاء والقدر وبين الاعتقاد بمذهب الجبريين : « اعتقد الافرنج أنه لا فرق بين الاعتقاد بالقضاء والقدر وبين الاعتقاد بمذهب الجبريين القائلين بأن الانسان مجبور جبرا محضا فى جميع افعاله . وتوهموا أن المسلمين بعقيدة القضاء والقدر يرون أنفسهم كالريشة فى الهواء تقلبها الريح كيفما تعمل ، ومتى رسخ فى نفوس قوم أنه لا اختيار لهم فى قول ولا عمل ولا حركة ولا سكون وانما جميع ذلك بقوة جابرة وقدرة قاسرة . فلا ريب تتعطل قواهم ويفقدون ثمرة ما وهبهم الله من المدارك والقوى وتمحى من خواطرهم داعية السعى والكسب . وأجدر بهم بعد ذلك أن يتحولوا من عالم الوجود الى عالم الفناء » .

---

(١) تاريخ الاستاذ الامام للسيد رشيد رضا جـ٢ ص ٤٢١ .
(٢) المصدر السابق ص ٤٢٠ .

هكذا ظنت طائفة من الافرنج ـ وذهب مذهبها كثيرون من ضعاف العقول في الشرق . ولست أخشى ان أقول كذب الظان واخطأ الواهم وبطل الزاعم وافتروا على الله والمسلمين كذبا . لا يوجد مسلم من سني وشيعي واسماعيلي وزيدي ووهابي وخارجي يرى مذهب الجبر المحض ويعتقد سلب الاختيار عن نفسه بالمرة . بل كل من هذه الطوائف المسلمة يعتقدون بأن لهم جزءا اختياريا في اعمالهم . ويسمى بالكسب ، وهو مناط الثواب والعقاب عند جميعهم ، وانهم محاسبون بما وهبهم الله من هذا الجزء الاختياري ومطالبون بامتثال جميع الأوامر الالهية والنواهي الربانية الداعية الى كل خير ، الهادية الى كل فلاح . وأن هذا النوع من الاختيار هو مورد التكليف الشرعي ، وبه تتم الحكمة والعدل .

نعم كان بين المسلمين طائفة تسمى بالجبرية ذهبت الى أن الانسان مضطر في جميع أفعاله اضطرارا لا يشوبه اختيار وزعمت أن لا فرق بين أن يحرك الشخص فكه للأكل والمضغ ، وبين أن يتحرك بقفقفة البرد عند شدته . ومذهب هذه الطائفة يعده المسلمون من منازع السفسطة الفاسدة ، وقد انقرض ارباب هذا المذهب في أواخر القرن الرابع الهجري ولم يبق لهم اثر ، وليس الاعتقاد بالقضاء والقدر هو عين الاعتقاد بالجبر ، ولا من مقتضيات ذلك الاعتقاد ما ظنه أولئك الواهمون(١) .

ويتضح لنا مما سبق أن الأستاذ الامام تأثر بعصره واعتبر نفسه لسان الاسلام والمبعوث للدفاع عنه وتنبيه الغافلين من أمته الى محاسن الاسلام ، وتحذيرهم كيد اعدائهم وتربيتهم تربية

---

(١) العروة الوثقى عدد ٤ رجب سنة ١٣٠١ اول مايو ١٨٨٤ ـ وتاريخ الامام ص ٢٦١ جـ٢ .

اسـلامية صحيحة تؤمن بالفرد وممكناته وتؤمن بالله لتستمد منه التوفيق والهدى والعون السداد .

## ٥ ــ القضاء والقدر فى التفاسير السابقة :

شغلت مباحث القضاء والقدر الفرق الاسلامية زمنا طويلا ، والاسلام فى طبيعته قائم على البحث والنظر الى درجـة انه يكاد يجعل هذا النظر العقلى فرض كفاية ، والقرآن حافل بالنصوص التى تحفز العقل الى الفكر والاستدلال على وجود الله .

ولكنه حارب الجدل العقيم الذى يتعصب للرأى ولا يبحث عن الحق . فعن أبى امامة الباهلى رضى الله عنه قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نتمـارى فى شىء من امر الدين ، فغضب غضبا شديدا لم يغضب مثله . ثم قال : « يا امة محمد ذروا المراء فان المراء لا يأتى بخير ، ذروا المراء فان الممارى قد تمت خسارته ، ذروا المراء فكفى اثما الا تزال ممارايا ، ذروا المراء فان اول ما نهانى عنه ربى بعد عبادة الأوثان المراء . ذروا المراء فانـا زعيم بثلاثة أبيات فى الجنة فى رياضها ووسطها واعلاها لمن ترك المراء وان كان محقا » .

وقد أدى الخلاف السياسى بين المسلمين فى القرن الأول اى فى عهد الأمويين الى نشـأة فرق لجـأت الى الدين تستمد منـه حججها ، وكان ذلك نذيرا بالخلاف بينهم فى فهم النصوص الدينية . وانتهى ذلك الى نشأة طائفتين دينيتين كبيرتين . وهما طائفـة السلف التى تريد الوقوف عند ظاهر النصوص وطائفة المعتزلة التى مجدت العقل وأوجبت التأويل .

وامتد الخلاف الى تفسير القرآن الكريم كل يحاول أن يؤيد رأيه به ويؤول آياته مما يوافق مذهبه وتحولت كتب التفسير الى

نقاش جـدلى طويل ، الغرض منه الانتصـار للمذهب قبل تفهم كتاب الله .

وسنعرض نموذجا من تفسير « مفاتيح الغيب » للفخر الرازى المتوفى سـنة ٦٠٦ هـ وتفسـير «الكشـاف » للزمخشرى المتوفى سـنة ٥٣٨ هـ .

**( أ ) الفخر الرازى :**

فى تفسير قوله تعالى : **(( ربنا لا تزغ قلوبنـا بعد اذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمـة انك أنت الوهـاب ))** . قـال الفخـر الرازى :

« فى هذه الآية دلالة على أن الهدى والضـلال من قبله تعـالى وانه متفضل بما ينعم به على عباده من غير ان يجب عليه شىء .

وفى هذه الآية اختلف كـلام أهل السنة وكـلام المعتزلة . اما كلام أهل السنة فظـاهر وذلك لأن القلب صالح لأن يميل الى الايمان وصالح لأن يميل الى الكفر ، ويمتنع ان يميـل الى أحد الجانبين الا عند حدوث داعية وارادة يحدثها الله تعـالى فان كانت تلك الداعية داعية الكفر فهى الخذلان والازاغة والصـد والختم والطبع والرين والقسوة والوخز والكتمـان وغيرها من الألفـاظ الواردة فى القرآن الكريم . وان كانت الداعيـة داعية الايمان فهى التوفيق والرشاد والهداية والتسديد والتثبيت والعصمة وغيرها من الألفاظ الواردة فى القرآن . وكان رسـول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « قلب المؤمن بين اصبعين من اصابع الرحمن » ، والمراد من هاتين الاصبعين الداعيتان ، فكما أن الشىء الذى يكون بين اصبعى الانسان ينقلب كما يقلبه الانسان بواسطة تلك الاصبعين فكذلك القلب لكونه بين الداعيتين يتقلب كما يقلبه الحق بواسـطة تلك

الداعيتين · ومن انصف ولم يتعسف وجرب نفسه وجدا هذا المعنى كالشيء المحسوس ، ولو جوز حدوث احدى الداعيتين من غير محدث ومؤثر لزمه نفى الصانع ، وكان صلى الله عليه وسلم يقول : « يا مقلب القلوب والأبصار ثبت قلبى على دينك » · ومعناه ما ذكرنا · فلما آمن الراسخون فى العلم بكل ما انزل الله تعالى من المحكمات والمتشابهات ، وتضرعوا اليه سبحانه وتعالى فى ألا يجعل قلوبهم مائلة الى الباطل بعد أن جعلها مائلة الى الحق ، فهذا كلام برهاني متأكد بتحقيق قرآني ·

وأما المعتزلة فقد قالوا لما دلت الدلائل على أن الزيغ لا يجوز أن يكون بفعل الله تعالى وجب صرف هذه الآية الى التأويل ، فأما دلائلهم فقوله تعالى : « **فلما زاغوا ازاغ الله قلوبهم** » وهو صريح فى أن ابتداء الزيغ منهم ، ولهم أدلة أخرى ، اما تأويلاتهم فى هذه الآية فمن وجوه ، الأول وهو الذى قاله الجبائى واختاره القاضي ان المراد بقوله : « **لا تزغ قلوبنا** » يعنى لا تمنعها الألطاف التى معها يستمر قلبهم على صفة الايمان · وذلك لأنه تعالى لما منعهم الطافه عند استحقاقهم منع ذلك جاز ان يقال ازاعهم ويدل على هذا قوله تعالى : « **فلما زاغوا ازاغ الله قلوبهم** » · والثانى قال الأصم : لا تبلنا ببلوى تزيغ عندها قلوبنا · فهو كقوله : « **ولو انا كتبنا عليهم ان اقتلوا انفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه الا قليل منهم** » · وقوله : « **لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة** » والمعنى لا تكلفنا من العبادات ما لا نأمن معه الزيغ ، وقد يقول القائل لا تحملنى على ايذائك اى لا تفعل معى من الأفعال ما اكون معه مؤذيا ·

واستمر الفخر الرازى فى تخريج الآية على راى المعتزلة على ستة وجوه ثم تعقبها بالرد عليها واحدا واحدا ·

فلما انتقل الى تفسير المقطع الثاني في الآية وهو : (( **بعد اذ هديتنا** )) قال : أى بعد أن جعلتنا مهتدين ، وهذا ايضا صريح فى ان حصول الهداية فى القلب بتخليق الله تعالى · ثم قال : (( **وهب لنا من لدنك رحمة** )) · واعلم أن تطهير القلب عما لا ينبغى مقدم على تنويره بما ينبغى ، فهـؤلاء المؤمنون سـألوا ربهم أولا الا يجعل قلوبهم مائلة الى الباطل والعقائد الفاسدة ، ثم انهم اتبعوا ذلك بأن طلبوا من ربهم ان ينور قلوبهم بأنوار المعرفة وجوارحهم وأعضاءهم بزينة الطاعة ، وانما قال رحمه ليكون ذلك شـاملا لجميع أنواع الرحمـة ·

**فاولهـا** ـ ان يحصـل فى القـلب نور الايمـان والتوحيـد والمعرفـة ·

**وثانيهـا** ـ ان يحصـل فى الجوارح والأعضاء نور الطـاعة والعبودية والخدمة ·

**وثالثهـا** ـ ان يحصل فى الدنيا سهولة أسباب المعيشة من الأمن والصحة والكفاية ·

**ورابعهـا** ـ أن يحصل عند الموت سهولة سكرات الموت ·

**وخامسـها** ـ أن يحصل فى القبر سهولة سؤال القبر وسهولة ظلمـة القبر ·

**وسادسـها** ـ ان يحصل فى القيامة سهولة العقاب والخطـاب وغفران السيئات وترجيح الحسنات ·

فقوله من لدنك رحمة يتناول جميع هذه الأقسام ، ولمـا ثبت بالبراهين أنه لا رحيم الا هو ، ولا كريم الا هو ، لا جرم أكد ذلك بقوله : (( **من لدنك** )) تنبيها للعقل والقلب والروح أن هذا المقصود

لا يحصل الا منه ، ولما كان هـذا المطلوب فى غاية العظمة بالنسبة للعبد ذكرها على سبيل التنكير كانه يقول أطلب رحمـة واى رحمة أطلب ، رحمـة من لدنك وتليـق بك ولك يوجب غاية العظمـة « انك أنت الوهاب » أى المعطى وهو تعليل للسـؤال أو الاعطـاء المسئول • وفيه دلالة على أن الهدى والضلال من قبله تعـالى ، وانه متفضل به على عباده من غير أن يجب عليه شيء(١) •

وايضـا يقول الفخر الرازى عند تفسـيره لقوله تعـالى : **« يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا وما يذكر الا أولو الألباب »** •

احتج أصحابنا بهذه الآية على أن فعل العبد مخلوق لله تعالى وذلك لأن الحكمـة ان فسرناها بالعـلم لم تكن مفسرة بالعـلوم الضرورية لأنها حاصلة للبهائم والمجانين والأطفال وهذه الأشـياء لا توصف بأنها حكم فهى مفسرة بالعلوم النظرية ، وان فسرناها بالأفعال الحسية فالأمر ظـاهر وعلى التقـديرين فيلزم أن يكون حصول العلوم الفطرية والأفعال الحسية ثابتـا من غيرهم وبتقدير مقدر غيرهم وذلك الغير ليس الا الله تعـالى بالاتفاق ، فدل على أن فعل العبد خلق الله تعالى فان قيل : لم لا يجوز أن يكون المراد من الحكمة النبوة والقرآن • أو قوة الفهم والحسبة ؟ على ما هو قول الربيع ابن أنس • قلنا : الدليل الذى ذكرناه يدفع هـذه الاحتمالات وذلك لأنه بالنقل المتواتر ثبت انه يستعمل لفظ الحكيم فى غير الانبياء فتكون الحكمة مغايرة للنبوة والقرآن • بل هى مفسرة اما بمعرفة حقائق الأشياء او بالاقدام على الأفعال الحسنة الصائبة وعلى التقديرين فالمقصـود حاصـل فان حاولت المعتزلة

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ٢ ص ٦٠٥ •

حمل الايتاء على التوفيق والاعانة والألطاف ، قلنا كل ما فعله من هذا الجنس فى حق المؤمنين ، قد فعل مثله فى حق الكفار ومع أن هذا المدح العظيم المذكور فى هذه الآية لا يتناولهم . فعلمنا أن الحكمة المذكورة فى هذه الآية شيء آخر سوى فعل الألطاف والله أعلم(١) .

قدمت لك تفسير آيتين فقط للفخر الرازى ، وقد رايت من تفسيرهما أنه كان مهتما بعرض آراء أهل السنة فى القضاء والقدر ، وتأكيد ان الهدى والضلال منه سبحانه ، وأن فعل العبد مخلوق له تعالى ، وفى ثنايا هذا التفسير الكبير نجد الامام الرازى مهتما بتفنيد جميع آراء المعتزلة والرد عليها فى اسهاب وتطويل : مثل أن الايمان غير العمل(٢) ، لا كما يزعم المعتزلة ان الايمان هو التصديق والعمل . وان الانسان اما مؤمن واما كافر ، وليس هناك منزلة بين المنزلتين(٣) وان ليس فى الدين تكليف بما لا يطاق(٤) .

وان افعاله سبحانه منزهة عن العلة لا كما يقول المعتزلة من أن افعال الحكيم لا تخلو من الحكمة(٥) . وان عذاب القبر ونعيمه(٦) حق وثابت . وان الخلود فى النار هو المكث الطويل لا المكث الدائم(٧) ، وأن اثابة الطائع غير واجبة عليه سبحانه بل تفضل منه وكرم وأنه اذا شاء أخلف وعيد العاصى فعفا عنه وصفح.

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ٢ ص ٥١٦ .
(٢) تفسير الفخر الرازى جـ٢ ص ١٨ و جـ٣ ص ٣٥٤ .
(٣) المصدر السابق جـ٣ ص ٣١ .
(٤) المصدر السابق جـ٢ ص ٣٤ .
(٥) المصدر السابق جـ٢ ص ٥ .
(٦) المصدر السابق جـ٢ ص ٥٣ .
(٧) المصدر السابق جـ٢ ص ٥٣ ، جـ٣ ص ١٧٩ .

لا كما يقول المعتزلة ، من انه يجب عليه سبحانه اثابة الطائع ، وتعذيب العاصي(١) • وان جميع أفعال العبد بارادته وخلقه ، لا كما يقول المعتزلة ان الله لا يريد الظلم ولا القبائح ولا يخلق الشرور والمعاصي(٢) وان صاحب الكبيرة مؤمن في المشيئة(٣) •

وان الطاعة موافقة الأمر لا موافقة الارادة • لا كما يقول المعتزلة ان الطاعة موافقة الارادة(٤) •

**( ب ) تفسير محمود بن عمر الزمخشري في كتاب الكشاف للآيتين السابقتين :**

قال في تفسير قوله تعالى : « **ربنا لا تزغ قلوبنا بعد اذ هديتنا** •• » •

« **ربنا لا تزغ قلوبنا** » أي لا تبلنا ببلايا تزيغ فيها قلوبنا • « **بعد اذ هديتنا** » وارشدتنا لدينك ، او لا تمنعنا الطافك بعد اذ لطفت بنا(٥) •

وقال في تفسير قوله تعالى : « **يؤت الحكمة من يشاء** •• » • « يؤت » يوفق للعلم والعمل به ، والحكيم عند الله هو العالم العامل(٦) •

ويعلق احمد بن المنير في حاشيته على الكشاف مبينا أن الهدى خلق الله بقوله: « قال أحمد » المعتقد الصحيح ان الله هو الذى

---

(١) تفسير الفخر الرازي جـ٢ ص ٦٠٨ و جـ٢ ص ٢٤٢ •
(٢) المصدر السابق جـ٣ ص ٢٤ ، ص ٣٥ •
(٣) المصدر السابق جـ٣ ص ١٧٧ •
(٤) المصدر السابق جـ٣ ص ٣٥٧ •
(٥) الكشاف جـ١ ص ١٧٦ •
(٦) الكشاف جـ ١ ص ١٦٣ •

يخلق الهدى لمن يشاء هداه وذلك هو اللطف لا كما يزعم الزمخشرى أن الهدى ليس خلق الله وانما العبد يخلقه لنفسه وان أطلق الله تعالى اضافة الهدى اليه فهو مؤول على زعم الزمخشرى بلطف الله الحامل للعبد على أن يخلق هداه ان هذا الا اختلاق وهذه النزعة من توابع معتقدهم السيىء فى خلق الأفعال وليس علينا هداهم ولكن الله يهدى من يشاء وهو المسئول ألا يزيغ قلوبنا بعد اذ هدانا ·

« ومثل هذا التفسير من الزمخشرى ، ورجع الجدل الذى يثيره ابن المنير عليه يواجهنا على طول نصوص القرآن كلما جرى الحديث عن هداية العباد وضلالهم ·

هكذا فى الآيتين ١٢٥ ـ ١٢٦ من سورة الأنعام (( **فمن يرد الله أن يهديه** )) أن يلطف به ولا يريد أن يلطف الا بمن له لطف (( **يشرح صدره للاسلام** )) يلطف به حتى يرغب فى الاسلام وتسكن اليه نفسه ويحب الدخول فيه (( **ومن يرد أن يضله** )) أن يخذله ويخليه وشأنه وهو الذى لا لطف له (( **يجعل صدره ضيقا حرجا** )) بمنعه الطافة حتى يقسو قلبه وينبو عن قبول الحق ، وينسد فلا يدخله الايمان ·

(( **وهذا صراط ربك مستقيما** )) وهذا طريقه الذى اقتضته الحكمة وعادته فى التوفيق والخذلان »(١) ·

بمثل هذا التأويل يخضع الزمخشرى مواضع القرآن المستعصية لنير الاعتزال ويعلو تهليل الشراح السنيين من نشوة الفرح عند موضع كالآية ٤١ من سورة المائدة (( **ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم لهم فى الدنيا خزى ولهم فى الآخرة عذاب عظيم** )) فهى تقرر فى صراحة

---

(١) الكشاف جـ ١ ص ٣١١ ·

لا يختلف فيها الفهم أن الله ( سبحانه ) يريد فتنة العصاة ولا يريد أن يطهر قلوبهم . وأنهم عصاة بارادة الله وتقديره .

ولا يدع الزمخشري لهذا القول الفصل ، الذى هو ظاهرى عنده فحسب سبيلا للتأثير عليه . فهو يقول : (( **ومن يرد الله فتنته** )) تركه مفتونا وخذلانه ( فالفتنة نفسها غير صادرة عن الله ) .. (( **أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم** )) أن يمنحهم من الطافه ما يطهر به قلوبهم » .

ونموذج تفسير الآيات التى يجرى فيها الحديث عن الأكنة التى يجعلها الله على القلوب والوقر الذى يجعله فى الآذان . كما فى قوله تعالى : (( **ومنهم من يستمع اليك وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا** ))(١) .

فيقول الكشاف فى تفسيرها : « هذا تمثيل لنبو قلوب الضالين ومسامعهم . وما يظهر من اسناد الفعل الى ذاته ( تعالى ) فوجهه أن ذلك للدلالة على أنه أمر ثابت لايزول عنهم كأنهم مجبولون عليه »(٢) .

وايضا قد جاء فى القرآن على لسان اليهود اعتذارهم لتسويغ كفرهم : (( **وقالوا قلوبنا غلف بل لعنهم الله بكفرهم فقليلا ما يؤمنون** ))(٣) . وفى التعبير : (( **قلوبنا غلف** )) وان جرى على لسان الكفار يشم المعتزلى شهادة بامكان أن تكون طبيعة قلوبهم هى المانع من قبول الاسلام ، على معنى أن الله هو الذى يخلقها للكفر ، ومن ناحية أخرى أن الارادة الطيبة أمر لا قدرة عليه ،

---

(١) سورة الانعام آية ٢٥ .
(٢) الكشاف جـ١ ص ٢٧٦ .
(٣) البقرة آية ٨٨ .

فينبغى استبعاد مثل هذا الافتراض الذى يفهم من الآية بتغيير يسير للنص فقرءوا بدلا من « غلف » بسكون اللام ( جمع اغلف كأنه مغطى بغلاف ) : غلف باقحــام ضمة اخرى على اللام ، على انه جمع غلاف أى وعاء ، وعلى ذلك بدا كلام اليهود لا على أنه اعتذار بل افتخار : أى قلوبنــا أوعية « للعلم » وهذا الوجه قد يجىء أيضا مع الاحتفاظ بالقراءة المعروفة « غلف » طبقا للتفسير النحوى بأنه تخفيف : غلف بضم اللام واستعمال العربيــة لا ينافى هــذا القياس(١) ٠

**مقــارنة :**

وبعد ، فقد رأيت هذا الجدل الطويل والتمحل اللفظى من أجل تأييد مذهب ، أو الانتصار لطائفة ٠

واذا قرنا الشرح السابق ، بشرح الأستاذ الامام للقضــاء والقدر ، أى الشرح الروحى العملى الذى يصرح مبدئيــا بأن مسألة علم الله ومسألة السابق من حيث يتعلقان بأفعال العباد هى من سر القدر الذى لا تكاد العقول تصل اليه(٢) ٠ نرى ان الاســتاذ الامام كان حكيما فى دعوته المسلمين أن يكفوا عن هذا الجدل العقيم الذى استعرت ناره بينهم زمانا طويلا وملئت كتب الكلام والتفسير بمناقشات طويلة عن افعال الرب وافعال العباد ٠ وهى مناقشــات فارغة جوفاء لا تنشىء عقيدة ولا تزيد فى ايمان مؤمن ، ولا يفهمهــا الا فئة خاصــة من النــاس ٠ وما أجدر بنــا أن نستجيب لدعوة القرآن وأن نحمل المتشابه على الحكم وأن نقول **« آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر الا أولو الألباب »** ٠

---

(١) مذاهب التفسير الاسلامى : ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار ، ص ١٩٦ ــ ١٧٦ ٠

(٢) محمد عبده : رسالة التوحيد ص ١٧ ٠

## الأســاس الثــامن

# التحفظ فى الأخذ بما سمى بالتفسير المـأثور

## والتحذير من الاسرائيليـات

### ١ ـ أسباب ضعف التفسير بالمـأثور :

نزل القرآن الكريم بالعربية الفصحى (( **لسانا عربيـا غير ذى عوج** )) ، وكان القرآن يخـاطب عربا خلصـا يفهمون القرآن ويتسابقون الى الامتثال والتنفيذ لأوامره • ويرون القرآن مشروحا شرحا عمليـا فى أخلاق الرسـول صلى الله عليه وسـلم وعاداته ومعاملاته • فيغنيهم ذلك عن طلب التفسير •

ومع هذا فربما استشكل على احدهم معنى من القرآن فيسأل عنه النبى صلى الله عليه وسلم ، والنبى يجيبه تحقيقا لقوله تعالى : (( **وانزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم** )) •

ومن ذلك ما روى انه لمـا نزل قوله تعالى : (( **الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم اولئك لهم الأمن وهم مهتدون** )) ، قـال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم : وأينا لم يلبس ايمانـه بظلم ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : ليس كما تظنون وانما هو الشرك

الم تسمعوا الى ما قال لقمـــان : (( ان الشرك لظلم عظيم )) ، فطابت أنفســهم(١) .

وأحيانا كان النبى صلى الله عليه وسلم يتكفل بتوضيح معنى الآية من القرآن ابتداء من غير ســؤال كما روى أنه عليه الصلاة والسلام قال يوم الأحزاب « شغلونا عن الصــلاة الوسطى صلاة العصــر » .

وبعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم كان المسلمون يلجئون الى علماء الصحابة بالتفسير مثل : عبد الله بن عباس ، وعلى بن أبى طالب ، وعبد الله بن مسعود ، وأبى بن كعب وزيد بن ثابت ، وأبى موسى الأشعرى ، وعبد الله بن الزبير .

وقد جعلهم اهلا للتفسير ما كان لهم من سعة المعرفــة بمفردات اللغة واساليبها والاتصــال بالرسول صلى الله عليه وسلم والاطلاع على أسباب النزول وعدم التحرج من الاجتهاد فى الفهم .

وفى عهد التابعين كثر التفسير النقلى ولجــأ المسلمون الى من اسلم من اليهود والنصــارى يسالونهم ويأخذون عنهم مع أن النبى صلى الله عليه وسلم نهى عن تصــديق اهل الكتاب أو تكذيبهم .

ومما زاد ثقــة المســلمين بهم أن بعض اجلاء الصحابــة كان يجالسهم مثل عبد الله بن عباس الذى روى انه كثيرا ما كان يجالس كعب الأحبار ويأخذ عنه .

وكان بطل الرواية فيما يتصــل باليهود من الآيات ــ وهب بن منبه ــ وهو ممن أســلم من اليهود ، وبطلها فيما يتصل بالنصارى من الآيات ــ ابن جريج ، وهو نصرانى الأصــل لأنه رومى ــ ويقال

(١) فتح البارى جـ ١ ص ٦٦ .

انه من الوضـــاع ، ولهذا كان النقل عن اهل الكتاب من أســباب ضعف التفسير بالرواية ٠

قال ابن خلدون فى التفسير النقلى : « وقد جمع المتقدمون فى ذلك وأوعوا الا أن كتبهم ومنقولاتهم تشتمل على الغث والسمين والمقبول والمردود ٠ والسبب فى ذلك ان العرب لم يكونوا اهــل كتاب ولا علم وانما غلبت عليهم البداوة والأمية ، واذا تشــوفوا الى معرفة شيء مما تشوف اليه النفوس البشرية من أسباب المكونات وبدء الخليقــة وأسرار الوجود ، فانمــا يسألون عنه أهل الكتاب قبلهم ، ويستفيدونه منهم وهم أهــل التوراة الذين بين العــرب يومئذ بادية مثلهم ٠ ولا يعرفون من ذلك الا ما تعرفه العامــة من أهل الكتاب ٠ ومعظمهم من حمير الذين أخذوا بدين اليهودية فلما أسلموا بقوا على ما كان عندهم مما لا تعلق له بالأحكام الشرعيــة التى يحتاطون لها مثل أخبار بدء الخليقة وما يرجع الى الحدثان والملاحم وأمثال ذلك ٠ وهؤلاء مثل كعب الأحبار ، ووهب بن منبه ، وعبد الله بن ســلام وأمثالهم ٠ فامتلأت التفاسير من المنقولات عندهم فى امثال هذه الأغراض باخبــار موقوفة عليهم ، وليست مما يرجع الى الأحكام فتتحرى فيها الصحة التى يجب بها العمل ٠ فتساهل المفسرون فى مثل ذلك وملئوا كتب التفسير بهذه المنقولات ، واصلها كما قلنا من اهل التوراة الذين يسكنون البادية ولا تحقيق عندهم بمعرفة ما ينقلون من ذلك الا أنهم بعد صيتهم وعظمت أقــدارهم لمــا كانــوا عليــه من المقامات فى الدين والملة ، فتلقت بالقبــول من يومئذ »(١) ٠

وهذا النوع من التفسير المعتمد على نقل الرواية عن الرسول أو اصحابه أو التابعين كثير ، ولكن الصحيح منه قليل ٠ ويظهر

---

(١) ص ٤٨١ : المقدمة ٠

أن القصـــاص والوضاع أدخلوا فيه كثيرا مما ليس منه لأغراض مختلفة حتى قال الامام أحمد : « ثلاثة ليس لها اصـــل ، التفسير والملاحم والمغازى »(١) ٠

ولهذا الضعف فى المروى من التفسير لم يقف المشتغلون به عند حد الرواية ، بل كان منهم من يدلى برأيه وما اداه اليه اجتهاده بعد أن يحكى ما أثر بالرواية مثل ابن جرير الطبرى ٠

وانصراف الجهود الى تفضيل رواية او ترجيح أخرى تشتيت للفكر وصرف للجهد « الى خدمة هذه الروايات نفسها والى التفكير فى نطاقها ٠ والغرض أن التفكير كان يجب أن يسير فى نطاق التفسير وان الجهد يجب أن يوفر لفهم كلام الله تعالى لا لفهم كلام الناس فى تفسيره »(٢) ٠

## ٢ ـ رأى الامام فى المأثور ، والمتواتر :

ولذلك يوجه الامام نصيحتـــه الى المهتمين بالروايات ونقل ما قاله العلمــاء فى كتب التفسير فيقول : « ان الله تعالى لا يسألنا يوم القيامة عن أقوال الناس وما فهموه ، وانما يسألنا عن كتابـــه الذى أنزله لارشادنا وهدايتنـــا وعن سنة نبيه الذى بين ما نزل الينا ، ، يسألنا هل بلغتم الرســالة ؟ هل تدبرتم ما بلغتم ؟ هل عقلتم ما عنه نهيتم وما به أمرتم »(٣) ٠

وقد يرفض الأســتاذ الامام التفســير بالمــأثور لمــا فيه من

---

(١) الاستاذ على حسب الله : القرآن الكريم ص ٥٩ ٠

(٢) فضيلة الاستاذ احمد محمد المدنى : المجتمع الاسلامى فيما تنظمــه سورة النساء ص ١١ ٠

(٣) الاستاذ الامام ، تفسير سورة الفاتحة ص ٢٠ ـ ٢١ ٠

الفساد وتناقض الروايات فى الآية الواحدة وعن الصحابى الواحد ·
مثل تفسير « الفجر » فى قوله تعـالى : (( والفجر وليال عشر )) · عن ابن عباس الفجر النهار كله · وعن ابن عباس أنه فجر اول يوم من المحرم منه تنفجر السـنة · وعنه أيضـا صـلاة الصبح · وعن ابن عبـاس انه فجر يوم النحر وعن الضحاك فجر أول يوم من ذى الحجة لأن الله قرن الأيام به فقال وليال عشر أى من ذى الحجة· وعن ابن عباس هى العشر الأواخر من رمضان · وعنه انها العشر الأول من المحرم أ هـ قرطبى »(١) · ولهذا الاضطراب الذى شاهدته يبتدىء الامام تفسيره لسورة الفجر بقوله : « كثر خلاف المفسرين والرواة فى معنى كل من الفجر وليال عشر الى آخر ما أقسـم به وقد يفسر الواحد منهم الفجر بمعنى · ثم يأتى فى الليالى العشر بما لا يلائمه ، وغالب ذلك يجرى على خلاف ما عودنا الله من نسق كتابه الكريم »(٢) ·

والأستاذ الامام بهـذا يريد أن نرجع فى تفسير القرآن الى الفهم السليم والعقل الرشيد والقلب المتفتح وذلك فضل من الله يعطيه من يشاء من عباده وليس مقصـورا على السابقين ولا محجوبا عن اللاحقين ·

أخرج البخارى فى صحيحه « أن عليـا بن ابى طالب سـئل هل خصكم رسول الله صلى الله عليه وسلم بشىء من دون المسلمين ، قال : لا ، الا فهما يؤتيه الله لرجل فى كتاب الله تعالى » ·

وليس معنى ما تقدم ان الأسـتاذ الامام يرفض التفسـير المـأثور جملة ولكنه يقبل منه ما قامت الأدلة على صحته وقوة متنه وسلامة سنده وأصبح خبرا قطعيا يوجب اليقين ·

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٤ ص ٥٢٨ ·
(٢) تفسير جزء عم ص ٧٧ ·

« وحد التواتر هو ما نراه فى القرآن تعرفه طبقة عن طبقـة يؤمن من تواطؤ كل منها على الكذب الى أن وصـل اليك ٠ لا تنكره فرقة من فرق المسلمين قاطبة »(١) ٠

فمثلا يرى بعض المفسرين أن لفظ « الكوثر » الوارد فى سورة « الكوثر » هو اسم لنهر فى الجنة وأن الله منح النبى ذلك النهر لكن الأستاذ الامام ينكر ذلك ويرى أن الكوثر هنا انما يفيد ذلك الخير الذى أفاضـه الله على الانسانية ، وهو الرسالة ٠ أما أحاديث النهر فانها وان كثرت لا ترتفع الى مرتبـة اليقين « فلا يصـدق عليها اسم المتواتر ، خصوصا وأنه يظن بالرواة سـهولة التصديق فى مثل هذا الخبر لمـا فيه من غرابة الكرامة وجمـال الوصف ، فيسهل على كل راو الميل الى تصـديق ما يقال له ٠ وهذا يخل بشرط التواتر لأن اول شرط فيه الا يكون فى الطبقات رائحة التشيع للمروى ذلك أن شرط صحـة الخبر هو ألا يتضمن شـيئا يمس التنزيه »(٢) ٠

### ٣ ـ تأثر الامام بابن خلدون :

وقد تأثر الأستاذ الامام بابن خلدون ٠ فالمعروف أن الامام شرح مقدمته لطلبـة دار العلوم ، ويعتبر ابن خلدون مؤسس علم الاجتماع الذى تأثر به الامام فى تفسير آيات كثيرة من القرآن تشير الى اسـباب قيام الدول وانحطاطهـا وأن ذلك خاضـع لظواهر اجتماعية لا تقل فى نظامها وانضباطها عن الظواهر الكونية ٠

كما تأثر بمنهجه فى التـاريخ الذى يقوم على نقد الأخبـار

---

(١) تفسير جزء عم ص ١٦٧ ٠
(٢) رسالة التوحيد ص ١٦٨ ٠

وتمحيصها وعرضها على القوانين الصحيحة للتاريخ قبل التسليم بها فان للتاريخ قوانين يخضع لها في روايته وأخباره ٠

وابن خلدون يذكر في أول مقدمته هذا العنوان ( المقدمة في فضل علم التاريخ وتحقيق مذهبه والالماع لما يعرض للمؤرخين من المغالط والأوهام وذكر شيء من اسبابها ) ٠ ثم يقول : وكثيرا ما وقع للمؤرخين والمفسرين وأئمة النقل المغالط في الحكايات والوقائع لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غثا أو سمينا . لم يعرضوها على اصولها ، ولا قاسوها بأشباهها . ولا سبروها بمعيار الحكمة والوقوف على طبائع الكائنات وتحكيم النظر والبصيرة في الأخبار فضلوا عن الحق وتاهوا في بيداء الوهم والغلط(١) ٠

ويكتب ابن خلدون فصلا عن أوهام المؤرخين واخطائهم ثم ينتقل الى اخطاء المفسرين فيقول ناقدا تهاونهم في قبول الأقاصيص الموضوعة :

( فصل ) وابعد من ذلك وأعرق في الوهم ما يتناقله المفسرون في تفسير سورة « والفجر » في قوله تعالى : (( **ألم تر كيف فعل ربك بعاد ، ارم ذات العماد** )) ٠

فيجعلون لفظة ارم اسما لمدينة وصفت بأنها ذات عماد أي أساطين ٠ وينقلون انه كان لعاد بن عوص بن ارم ابنان هما شديد وشداد ملكا من بعده وهلك شديد فخلص الملك لشداد ، ودانت له ملوكهم ، وسمع وصف ذكر الجنة فقال لأبنين مثلها ، فبنى مدينة ارم في صحارى عدن في ثلثمائة سنة ، وكان عمره تسعمائة سنة ، وانها مدينة عظيمة قصورها من الذهب واساطينها من

---

(١) مقدمة ابن خلدون : تعليق الدكتور على عبد الواحد وافى ص ٢٩١ ، مطبعة لجنة البيان العربى ١٣٧٦ هـ ـ ١٩٥٧ م ٠

الزبرجد والياقوت وفيها اصناف الشجر والأنهار المطردة ولما تم بناؤها سار اليها أهل مملكته حتى اذا كان منها على مسيرة يوم وليلة بعث الله عليهم صيحة من السماء فهلكوا كلهم . ذكر ذلك الطبرى والثعالبى والزمخشرى وغيرهم من المفسرين . وينقلون عن عبد الله بن قلابة من الصحابة انه خرج فى طلب ابل له فوقع عليها وحمل منها ما قدر عليه وبلغ خبره معاوية ، فأحضره وقص عليه فبحث عن كعب الأحبار وسأله عن ذلك فقال : هي ارم ذات العماد ، وسيدخلها رجل من المسلمين فى زمانك أحمر أشقر قصير على حاجبه خال وعلى عنقه خال . يخرج فى طلب ابل له ، ثم التفت فأبصر ابن قلابة فقال : هذا والله ذلك الرجل .

ويعلق ابن خلدون على كلام المفسرين السابق فينقده قائلا : وهذه المدينة لم يسمع لها خبر من يومئذ ، فى شيء من بقاع الأرض وصحارى عدن التى زعموا انها بنيت فيها هى فى وسط اليمن ، ومازال عمرانه متعاقبا والأدلاء تقص طرقه من كل وجه ، ولم ينقل عن هذه المدينة خبر ولا ذكرها أحد من الاخباريين ولا من الأمم . ولو قالوا انها درست فيما درس من الآثار لكان أشبه . الا أن ظاهر كلامهم انها موجودة ، وبعضهم يقول انها دمشق ، بناء على أن قوم عاد ملكوها . وقد ينتهى الهذيان ببعضهم الى انها غائبة وانما يعثر عليها أهل الرياضة والسحر . مزاعم كلها أشبه بالخرافات ، ويعلل ابن خلدون وقوع المفسرين فى هذا الخطأ بقوله :

والذى حمل المفسرين على ذلك ما اقتضته صناعة الاعراب فى لفظة ذات العماد أنها صفة ارم ، وحملوا العماد على الأساطين ، فتعين ان يكون بناء ورشح لهم ذلك قراءة ابن الزبير بعاد ارم على الاضافة من غير تنوين . ثم وقفوا على تلك الحكايات التى هى أشبه

بالاقاصيص الموضـوعة ، والتي هي أقرب الى الكذب ، المنقولة فى عدد المضحكات . والا فالعماد الآخبية بل الخيـام ، وان اريد بها الأساطين فلا بدع فى وصفهم بأنهم اهل بناء واساطين على العموم . بما اشتهر من قوتهم ، لا أنه بناء خاص فى مدينة معينة او غيرها . وان أضيفت كمـا فى قراءة ابن الزبير فعلى اضافـة الفصيلة الى القبيلة ، كما تقول قريش كنانة ؛ والياس مضر وربيعة نزار . وأى ضرورة الى هذا المحمل البعيد الذى تمحلت لتوجيهه امثال هذه الحـكايات الواهيـة التى ينزه كتـاب الله عن مثلهـا لبعدها عن الصحـة »(١) .

ولكلام ابن خلدون المتقدم اثره الواضح فى تفسير الأسـتاذ الامام لقوله تعالى : **« ألم تر كيف فعل ربك بعاد ، ارم ذات العماد »** اذ ينبه الى خطـأ المفسرين فى حكاية القصص السـابق بقوله : « وقد يروى المفسرون هنا حكايات فى تصـوير ارم ذات العمـاد كان يجب أن ينزه عنها كتـاب الله فاذا وقع اليك شيء من كتبهم ونظرت فى هـذا الموضع منها فتخط ببصرك ما تجده فى وصف ارم واياك ان تنظر فيه »(٢) .

---

(١) مقدمة ابن خلدون ، تحقيق الدكتور وافى ص ٢٢٨ .
(٢) تفسير جزء عم ص ٧٩ .

## الأســـاس التاســـع

# اهتمامه بتنظيم الحيــاة الاجتماعية

### على أســـاس من هدى القرآن

اذا أمعنا النظر فى تاريخ الأديان السماوية وجدناها جميعا من هدى الله . جاءت لتنظيم المجتمع من ناحية ولتصحيح العقيدة من ناحية اخرى .

وكل نبى كان يعالج الأخطاء الشائعة فى مجتمعه . على نحو ما فعل شعيب فى محاربته لتطفيف الكيل والميزان . وما فعله لوط فى حربه للشـذوذ الجنسـى وهكذا .

حتى اذا جاء الاسـلام كان دينا عاما لجميع الناس : (( **وما ارسلناك الا رحمة للعالمين** )) .

دينا خالدا يحمل بين طياته عوامل بقائه ومقومات خلوده : (( **انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون** )) .

ولقد جاء الاسـلام ، والمجتمع العربى بل والانسانى كله فى دمار وانهيار . العرب يئدون البنات ، ويقيمون الحروب لأتفه الأسباب وينهبون تجارة القوافل السائرة فى الصحراء .

والفرس يعبدون النار ، وتنتشـــــر بينهم المذاهب الفاسدة كالمزدكية والمانوية التى تزعم اباحة النساء والأموال للناس جميعا .

والروم فى حرب طاحنة حول طبيعة المســيح . والمذاهب المسيحية ، وهى حرب امتد لهيبها الى مصر ، فكان هنـاك صراع رهيب بين أتباع المذهب الملكانى والمذهب اليعقوبى . وكان الأول مذهب الهيئة الحاكمة ، والثانى مذهب سواد الشعب .

فى وسط هذه الظلمات الحالكة انبثق نور الاسلام من بلاد العرب وهاجر النبى ( صلى الله عليه وسلم ) من مكة الى المدينة .

وعنى القرآن المدنى بتنظيم المجتمع الاسلامى تنظيما شاملا حتى يضمن استقرار الأسرة وترابط الأفراد والجماعات ، وقرر القرآن المدنى ايضا حق الفقير والمحتاج واليتيم والقريب ووضع حق الزوج والزوجة ، ورسم لهما سبيل الحياة الهنيئة السعيدة . ووضع القواعد لاصلاح ما عساه ينشب بينهما من نزاع . ورسـم نظام المواريث وأمر باتباعه وحذر من الخروج عليه .

وبالجملة فان التنظيم الاســــلامى الجديد حول العرب من مجموعة متدابرة متناثرة الى قوة متحدة متعاونة متضامنة .

وحمل الاسلام معه هذا الاصلاح الاجتماعى الى كل البلاد التى فتحها فى فارس والروم ومصر وغيرها .

ولكن اهمال هذه التعاليم ، وضعف المسلمين فى عصورهم المتخلفة ، وتفوق غيرهم عليهم جعلهم يشكون فى نظم الاســـلام وقدرتها على تنظيم المجتمع الحديث .

والمغلوب دائما مولع بتقليد الغالب .

وهنا نهض الأستاذ الامام ووضح ان القرآن جامع لأصـــــول

العمران وسنن الاجتماع ويوافق لمصلحة الناس فى كل زمان ومكان .

## ١ ـ تنظيم المجتمع الاسلامى :

ان واجبنا ان ننظم مجتمعنا على أساس متين من هدى القرآن مع تطوير اوامره بما يناسب الحياة الحديثة . ويتفق مع المصلحة العامة . فاذا دعا القرآن الى انفاق المال فى سبيل الله ، فان ذلك يعم انشاء الجمعيات الخيرية ، والمؤسسات التعليمية والملاجىء والمستشفيات ، وكل ما من شأنه أن ينهض بالمجتمع لأن صلاح المجتمع فى ذلك العصر لا يتم الا بهذا التنظيم . وما لا يتم الواجب الا به فهو واجب .

وفى تفسير الامام لقوله تعالى : (( **فاما اليتيم فلا تقهر** )) يقول : اى فلا تذله بل ارفع نفسه بالأدب وهذبه بمكارم الأخلاق، ليكون عضوا فى جماعتك ينفعها وينتفع به ولا يفسده التذليل والهوان فيكون جرثومة فساد يتعدى أذاها الى كل من يخالطها من امتك . ولو علم الناس ما فى اهمال تربية الأيتام من الفساد فى الأمة لقدروا عناية الله بأمرهم فى كتابه قدرها . ولبذلوا من سعيهم ومن مالهم فى اصلاح حال الأيتام كل ما استطاعوا . ولو أحس كل واحد بأن الموت قريب منه وانه هدف لنيله لا يدرى حتى يأخذه عن ولده فيتركه اما غنيا يأكل أمواله الأوصياء ، أو فقيرا يستذله الأدنياء ، لتسابقوا الى تقويم امر اليتيم ، تسابقهم الى اللذة والنعيم(١) .

وقد أوصت الآيات الأولى من سورة النساء باليتيم وحذرت الوصى من اتلاف ماله . والأستاذ الامام يعلق على هذه الآيات

---

(١) تفسير جزء عم ص ١٢٣ .

بقوله : « وكان هؤلاء الأوصياء الجبناء الذين نعرفهم لم يسمعوا قول الله فى ذلك قط ، فقد كثرت فيهم وفى غيرهم الخيانة وأكل أموال اليتامى والسفهاء والأوقاف بالحيل حتى انه يمكننى أن أقول انه لا يوجد فى القطر المصرى عشرة أشخاص يصلحون للوصاية على اليتيم أو السفيه أو الوقف . وقد نص الفقهاء على أن النظر على الوقف كالوصاية على اليتيم . فانظروا الى هذه الدقة فى الآية الكريمة من الأمر باختبار اليتيم ودفع ماله اليه عند بلوغه رشده . ومن النهى عن أكل شىء منه بطرق الاسراف ومبادرة كبره ، ومن الأمر بالاشهاد عليه عند الدفع ثم التنبيه الى مراقبة الله تعالى التى تتناول جميع ذلك(١) .

## ٢ – حق الفـــــرد والمجتمـــــع :

وقد اهتم الأستاذ الامام كثيرا فى تفسيره باشعار الفرد بحق المجتمع عليه ، وأن الانسان لا يكون انسانا الا بانسه بالآخرين واهتمامه بمصالحهم والعمل على تخفيف حدة التوتر بين الأغنياء والفقراء وأن يكون المسلم حسن المعاملة مع أهله وجيرانه وذوى رحمه وقرابته .

قال فى تفسير قوله تعالى : « **واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين احسانا وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم ان الله لا يحب من كان مختالا فخورا** »(٢) .

اذا قام الانسان بحقوق الله تعالى فصحت عقيدته ، وصلحت أعماله ، وقام بحقوق الوالدين فصلح حالهما وحاله . تتكون بذلك

---

(١) تفسير المنار جـ٤ ص ٣٩١ .
(٢) سورة النساء آية ٣٦ .

وحدة البيوت الصغيرة المركبة من الوالدين والأولاد ، وبصلاح هذا البيت الصغير يحدث له قوة . فاذا شاون اهله البيوت الأخرى التى تنسب الى هذا البيت بالقرابة وعاونته هى أيضا بكون لكل من البيوت المتعاونة قوة كبرى يمكنه ان يحسن بها الى المحتاجين الذين ليس لهم بيوت تكفيهم مئونة الحاجة الى الناس الذين لا يجمعهم بهم النسب وهم الذين عطفهم على ذوى القربى : (( **واليتامى والمساكين** )) فان الله تعالى يوصى باليتامى فى مثل هذا المقام لأن اليتيم يهمل أمره بفقده الناصر القوى الغيور وهو الأب . او تكون تربيته ناقصة بالجهل الذى هو جناية على العقل . او فساد الأخلاق الذى هو جناية على النفس . وهو بجهله وفساد اخلاقه يكون شرا على اولاد الناس يعاشرهم فيسرى اليهم فساده وقلما تستطيع الام ان تربى اولادها تربية كاملة مهما اتسعت معارفها .و كذلك المساكين لا تنتظم الهيئة الاجتماعية الا بالعناية بهم وصلاح حالهم ،فان اهمل أمرهم الأغنياء كانوا بلاء وبيلا على الناس . وقلما ينظر الناس فى المسكنة الى غير العدم وصغر الكف ، والمهم معرفة سبب ذلك فان من الناس من يكون سبب عدمه وعوزه ضعفه وعجزه عن التكسب . او نزول الجوائح السماوية التى تذهب بماله من غير تقصير منه وهذا هو المسكين الحقيقى الذى تجب مواساته بالمال الذى يقع موقعا من كفايته ، ومنهم العادم الذى ما عدم المال الا بالاسراف والتبذير والمخيلة والفخفخة الباطلة . ومنهم العادم الذى ماعدم المال الا لكسله واهماله للكسب طمعا فيما فى ايدى الناس واتكالا عليهم . او بسلوكه فيه مسلك الغش والخيانة حتى يفضح سره ويظهر أمره فيحبط عمله .

فالمساكين على ضربين : مسكين معذور يساعد بالمال ينفقه أو يساعد على تحصيله بكسبه ان كان قادرا على ذلك .

ومسكين غير معذور يرشد الى تقصيره ولا يساعد على اسرافه وتبذيره ، بل يدل على طرق الكسب فان اتعظ وقبل النصح ، والا ترك أمره الى اولى الأمر والله بصير بالعباد(١) .

وواضح ان الامام يدعو الى تنظيم الاحسان حتى يثمر الثمرة المرجوة اما الكسالى والمسرفون فالاحسان اليهم تعطيل لمواهبهم وشل لعناصر الانتاج فى الأمة . ولذا يجب توجيههم ليكونوا مصدر خير واسعاد لا مصدر تأخر وكساد .

**٣ ـ الحكمة من تشريع العبادات :**

وبين الأستاذ الامام ان الحكمة من تشريع العبادات فى الاسلام هى تهذيب الروح وتربية الضمير وتقويم الخلق واصلاح السلوك الانسانى ليكون المسلم سلما لأخيه المسلم . فيغدو وقد سلم الناس من لسانه ويده ، ويكون المؤمن أمينا على أموال الناس واعراضهم .

وكل عبادة لا يحقق الغرض منها فهى مردودة ، لانها فقدت حياتها وقوامها ، والثمرة المرجوة منها .

قال معلقا على تفسير قوله تعالى :« **فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون . الذين هم يراءون ويمنعون الماعون** »

الماعون كل ما يستعان به . فأولئك الذين يصلون ولا يأتون من الأعمال الا ما يرى الناس ما لا يكلفهم بذل شىء من مالهم

---

(١) تفسير المنار جـ٥ ص ٩١ .

ولا يخشون منه ضررا يلحق بأبدانهم أو نقصا يلم بجاههم ثم يمنعون الناس معونتهم ولا ينهضون بباعث الرحمة الى سد حاجتهم وتوفير ما يكفل راحتهم وأمنهم وطمأنينتهم . أولئك لا تنفعهم صلاتهم ولا تخرجهم من حد المكذبين بالدين ، لا فرق فى ذلك بين من وسموا أنفسهم بسمة الاسلام أو غيره . فان حكم الله واحد لا محاباة فيه للأسماء المنتحلة التى لا قيمة لها الا بمعانيها الصحيحة المنطبقة على مراده تعالى من تحديد الأعمال وتقرير الشرائع ، فخاصة المصدق بالدين التى تميزه عمن سواه من المكذبين هى العدل والمرحمة وبذل المعروف للناس ، وخاصة المكذب التى يمتاز بها عن المصدقين هى احتقار حقوق الضعفاء وقلة الاهتمام بمن تلدغهم آلام الحاجة وحب الأثرة بالمال والتعزز بالقوة ومنع المعروف عن يستحقه من الناس ، فهل تجد نصا اصرح من هذا فى تعريف التصديق بالدين وبيان الصفات التى يعرف بها وفى شرح التكذيب بالدين وتفصيل لوازمه وما يتميز به عن التصديق ؟ . فهل للمسلمين أى الذين يزعمون أنهم يؤمنون بمحمد ( صلى الله عليه وسلم ) وبما جاء به ان يقيسوا أحوالهم وما يجدونه من انفسهم بما يتلونه فى هذه السورة الشريفة ليعرفوا هل هم من قسم المكذبين او المصدقين وليقلعوا عن الغرور برسم هذه الصلاة الذى لا أثر له الا فى ظواهر اعضائهم. وبهذا الجوع الذى يسمونه صياما ولا اثر له الا فى عبوس وجوههم ، وبذاءة السنتهم ، وضياع اوقاتهم فى اللهو والبطالة . وليرجعوا الى الحق من دينهم فيقيموا الصلاة ويحيوا صورتها بالخشوع وتطامن القوى الانسانية لقوة العلى الأعلى فلا يخرجون من الصلاة الا وهم ذاكرون انهم عبيد الله يلتمسون رضاه ، فى رعاية حقوق براياه ، ويجعلوا

من الصـــوم مؤدبا للشـــهوة ومهذبا للرغبة ورادعا للنفس عن الأثرة · فلا يكون فى صـومهم الا الخـير لأنفسـهم ولقومهم · ثم يؤدوا الزكاة المفروضـة ولا يبخلوا فيمـا ينفع الخاصـة والعامة : (( افلا يتدبرون القرآن أم على قلوب اقفالها )) ؟ أفلا ينظـرون الى ما نزل بهم من الضـعف والذلـة وتسـلط الأمم عليهم وانتقادها ارضـــهم من كل جانب ، فعلموا أن هذا هو عقاب الله عقاب الله للمكذبين . فيطلبوا النجاة من هذا كله يأخذ ســبيل المتصـــدقين وينزعوا عن الانخداع بما ســـولته لهم أوهام بعض من يدعى العلم منهم . فان العيان قد كذبهم وأظهر ان سنة الله فى الخلق لا تتبدل ، وان صـــورة الانتســـاب الى دين لا تغنى عن اتباع هديه الصحيح الذى يدل عليه النص بعد التواتر فى النقل ، وجادة التدبر من العقل(١) .

### ٤ ــ تقـــوية شـــخصية المســلم :

ولم يكن الاستاذ الامام يسـير فى تفسـيره فى دائرة مقفلة بعيدا عن عصـره وأحداث الحياة فى زمنه . بل انه تجاوب مع عصـــره فقد خب فى الحياة الاجتماعية ووضـــع . فراس الجمعية الخيرية الاســلامية ، وأذكى نار الثورة العرابية ، ورأس تحرير الوقائع المصرية .

فلابد أن يكون تفســـيره للقرآن متاثرا برغبته فى الاصلاح الاجتماعى ومحاربته لعيوب الامة التى خلفها الاســتعمار من الخنوع والتواكل والكســـل والنفاق وحب النفس والانانية ، محاولا فى نفس الوقت تقوية شــخصية المســلم وامدادها بما يؤكد ذاته وينمى مواهبه من حرية الفكر وســـعة الأفق والاهتمام

---

(١) تفسير جزء عم ص ١٦٧ .

بالوطن . ومساعدة المحتاج وكره الاحتلال وتوحيد الشعور بين الأمة الاسلامية .

فى سورة العاديات « يقسم الله بالخيل التى تعدو ويشتد عدوها حتى يخرج الشرر من حوافرها لتهجم على عدو وقت الصباح لتأخذه على غرة » .

وعند تفسير الأستاذ الامام لهذه السورة ينتهز الفرصة ليبين ما لفن ركوب الخيل من شأن فى الاسلام . لا باعتباره من قبيل الفنون الرياضية ، بل كاعداد حربى نافع للدفاع الوطنى .

وبعد أن ذكر الامام قوله تعالى : (( **واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم** )) ، واشار الى ما ورد من أحاديث نبوية فى دعوة المسلمين الى ان يكونوا فى مقدمة فرسان الأرض مهارة فى ركوب الخيل وان يتنافسوا فى قنية عقائلها . قال : من اعجب العجب ان ترى اما هذا كتابها، قد اهملت شأن الخيل والفروسية ، الى ان صار يشار الى راكبها منهم بالهزء والسخرية ، واخذت كرام الخيل تهجر بلادهم الى بلاد اخرى . اليس من أغرب ما يستغرب ان اناسا يزعمون أن هذا الكتاب كتابهم يكون طلاب العلوم الدينية منهم اشد الناس رهبة من ركوب الخيل ، وأبعدهم عن صفات الرجولية حتى كان من أحد اساتذتهم المشار اليهم بالبنان — عندما كنت اكلمه فى منافع بعض العلوم وفوائدها فى علم الدين أن قال : « اذا كان كل ما يفيد فى الدين نعلمه لطلبة العلم كان علينا أن نعلمهم ركوب الخيل » قال ذلك ليفحمنى وتقوم له الحجة على . كان تعليم ركوب الخيل مما لا يليق ولا ينبغى لطلبه العلم وهم يقولون ان العلماء ورثة الأنبياء فهل هذه الأعمال وهذه العقائد تتفق مع الايمان بهذا الكتاب(١) .

---

(١) تفسير جزء عم ص١٤٤ ـ ١٤٥ .

**٥ ـ الدعـــوة الى التعليم :**

وحض الامام على التعليم ودعا اليه فى كثير من مواضـــع تفســيره باعتبــاره من أهم الوســائل لاصلاح المجتمع المصرى .

وبين أن التعليم يعود على المجتمع بالتماســـــك والترابط . ويحقق الروح الجماعية بين الافراد ويرفع المســــتوى الثقافى والفكرى ، وبالتالى يعود على الوطن بالعز والارتقاء .

( أ ) وقد ذكر القرآن العلم فى أكثر من موضع . وحث النبى ( صلى الله عليه وسلم ) على طلب العلم . بل ان أول آية نزلت من القرآن تناولت شأن العلم . ولذلك نجد الامام عند تفسيره لهذه الآيات الأولى من ســـــورة اقرأ وهى « **اقرأ باســـم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الاكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم** » يبين الامام فى تفســـــيره فضـــــل العلم ويوضـــــح أنه « لا يوجد بيان أبرع ولا دليل أقطع على فضـــل القراءة والكتابة والعلم بجميع أنواعه من افتتاح الله كتابه ، وابتدائه الوحى بهذه الآيات الـــــباهرات . فان لم يهتد المســــــلمون بهذا الهدى . ولم ينبههم النظر فيه الى النهوض الى تمزيق تلك الحجب التى حجبت عن أبصـــــارهم نور العـــلم ، وكســــــر تلك الأبواب التى غلقها عليهم رؤساؤهم وحبســـوهم بها فى ظلمات من الجهل ، وان لم يسترشـدوا بفاتحة هذا الكتاب المبين . ولم يستضيئوا بهذا الضياء الساطع . فلا أرشدهم الله أبدا(١) .

(ب) وبين الامام أن التعليم ليس مجـــرد حشــــو الذهن بالمعلومات ولكنـــه الاهتمـــام بالشخصـــية وتربيتها وتهذيبها حتى

---

(١) تفسير جزء عم ص ١٢٦ .

تكون لبنة صالحة فى صرح الوطن . وبالتالى يؤدى التعليم الى خلق المواطن الصــــالح . فسبق الامام وزارة التربية والتعليم بخمســـين عاما حيث يقول : « ان الانسان لا يكون انســـانا حقيقيا الا بالتربية . وليست هى الا عبارة عن اتباع الاصـــول التى جاء بها الأنبياء والرســـلون من الأحكام والحكم والتعاليم .. تعلم الانســـان الصـــدق ، والامانة . ومحبة نفسه . فاذا تربى الانسان احب نفسه لأجل أن يحب غيره . واحب غيره لأجل أن يحب نفسه .

اذا تربى الانسان احس فى نفسه انه سعيد بوجود الآخر معه . ولكن نحن فى وسط لا يحس احدنا الا بانه شقى بوجود غيره . وقد ذهبت الثقة بيننا أدراج الرياح وخلفها الشـــكوك والريب والظنون الآثمة . المولدة للوساوس والأوهام . ولا شقاء للمرء أعظم من وجود ضميره فى هذا الشقاء .

ولو كنا متربين لا نبث فينا احســـاس واحد ، يؤلف بين شـــعورنا وحاجاتنا ، وحينئذ يحس كل فرد فينا بأن عليه وظيفة يؤديها لنفسه وغيره .

« ان العلم الحقيقى هو الذى يعلم الانسان العلاقة الموجودة بينه وبين غيره من أفراد جماعته . فهو اذا يعلم الانسان : من هو ؟ ومن معه ؟ فيتكون من ذلك شعور واحد . وروابط واحدة ، هى ما يسمونه بالاتحاد .

ألا أن الاتحاد ثمره لشـــجرة ذات فروع واوراق وجذوع وجذور ، وهى الأخلاق الفاضلة بمراتبها ، فعلى المسلمين ان يربوا انفسهم تربية اسلامية حقيقية، ليجنوا تلك الثمرة ، وبغير ذلك كل امل باطل وكل الأمانى أحلام واوهام . وكل احتجاج بغير سعى عجز . الناس فى كل الامم أكفاء فى التمثيل ولا نقص فى

الدنيا الا من جهة العقول والأخلاق ، وهى لا تكمل الا بالتربية . وما وراء ذلك من العلوم لا يبث فيها غير القلقلة والهذيان(١) » .

« والسبب فى فقر البلاد عدم سريان روح التربية الشرعية الفعلية ، التى تجعل احساس الانسان بمنافع بلاده كاحساسه بمنافع نفسه ، وشعوره بأضرار وطنه كشعوره بأضرار ذاته . ان لم نقل تجعل الاحساس الأول اقوى من الثانى ، وتزيد فى احساس الانسان بمنافعه ومضاره(٢) .

« وطالما تشوفت النفوس لان تكون التربية فى المدارس على هذا النمط المفيد الذى عول عليه جميع الأمم المتمدينة فى مبادىء تعاليمهم . فان من تتبع قوانين التعليم فى الممالك الاوروبية ، رآها بأسرها موجهة للابتداء بالتعاليم الدينية ، والاستمرار عليها الى ما يزيد على ست سنوات تقريبا(٣) » .

(جـ) ودعا الامام الى اصلاح برامج التعليم والعناية بالتعليم الدينى ، وبين أنه لا يكفى فى التعليم الدينى الاستظهار والحفظ لآيات القرآن بل لابد من العناية اولا بتوضيح العقيدة الاسلامية ، وتحبيبها الى النفوس حتى ينشأ المسلم محبا لربه مقتنعا بفضائل دينه ولا يتم ذلك الا عن طريق القدوة الحسنة ، والسلوك العملى السليم ، الذى يتفق مع هدى القرآن والسنة وأعمال الصحابة . ولذلك وضح الامام « أن اصلاح الجداول — فى التعليم — لا يتم بأن يدرج فى فنون المدارس الاسلامية بعض الكتب الفقهية ، مع بقاء التعليم على طرقه المعهودة فى المساجد ، وفى دروس بعض

---

(١) تاريخ الامام . جـ٢ ص ٤٦٩ .
(٢) المصدر السابق جـ٢ ص ١٤٤ .
(٣) المصدر السابق جـ٢ ص ٨١ .

العلماء . فان العلوم العملية اذا لم تبن على عقائد صحيحة وايمان صادق ، لا تلبث أن تضمحل ولئن ثبتت فانما تسوق الى اعمال خالية من النيات ، وخاوية من سر الاخلاص . فتكون اشبه شيء بالباطلة ، في عدم ترتب الأثر المطلوب عليها ، كما قدمنا .

فلابد ان يوجه النظر الى فن تقوى به العقيدة ، ويستحكم سلطانها على العقول ؛ ثم الى تربية تذكر بما تنال النفس من ذلك الفن . فيكون التذكار مستدفظا لما يصل اليها منه ، ثم الى فن التفقه الباطنى — الى فن الضمير — وهو ما تعرف به أحوال النفس وأخلاقها والمهلك منها : كالكذب والخيانة والنميمة والحسد والجبن ، وسائر الرذائل ، والمنجى منها : كالصدق والأمانة والرضا والشجاعة ، وسائر الخصائل ، ويضم الى ذلك باقى علم الحلال والحرام ، على ما هو مذكور فى الكتاب والسنة ومتفق عليه بين ائمة الملة الاسلامية ، ثم الى تربية تحفظ ذلك وتروض على العمل بما تعمل به .

« ثم يكون التعليم فى هذه الفنون المذكورة ، والتربية ، على وجه يتفق مع قواعدها ، مستندين الى الشرع الشريف ، بحيث نذكر مآخذها من القرآن والسنة الصحيحة وما صح أثره ومن أقوال الصحابة وعلماء السلف الأول ومن حذا حذوهم ، كحجة الاسلام الغزالى وأمثاله .

فالمقصد بالذات علمان ( علم الظاهر ، وعلم الباطن ) وهما أصلان ومجموعهما ركن الاصلاح ، والركن الآخر « التربية » بما يهديان اليه حتى تصير العلوم ملكة راسخة . تصدر عنها

الأفعال بلا تعجل ، ثم يتبعها فن آخر يقوى على الغرض منها هو فن التاريخ الديني خصوصا سيرة النبي ( صلى الله عليه وسلم ) وسيرة أصحابه ، والخلفاء الراشدين(١) ٠

( د )) وكان الأستاذ الامام من اشـــد الناس حرصا على تثقيف الفتيات المسلمات تثقيفا يعينهن على أداء رســالتهن في نهضــة البلاد الاســلامية(٢) .

وكان يرى أن الأم الجاهلة عاجزة عن تربية ابنائها ، وعن بث خصال الخير والفضيلة فيهم . « وانهما حين تقول لابنها خذ هذا الشيء واخفه عن الأعين ، تعلمه الأنانية . وقد تقول له اذا سألك اخوك فلا تخبره انك أخذت شيئا ، فتعلمه اخس خصال الرجال وهو الكذب(٣) » .

ولذلك دعا الى تعليم البنات ووضح ان القرآن والسنة دعوا الى تعليم المرأة لأن العلم محمود في ذاته ولأنه وسيلة الى الكمال ، ولتستطيع المرأة المسلمة ان تشرح أهداف الاســلام وآدابه . وتدافع عن عقائده ومثله في المجامع الدولية والمؤتمرات العالمية . ولتستطيع اقناع الخصوم ومناظرة أعداء الاسلام ٠ كما قال تعالى : (( **فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع ابناءنا وابناءكم ونساءنا ونساءكم وانفسنا وانفسكم ، ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين(٤)** )) ٠

---

(١) تاريخ الامام جـ٢ ص ٤٠٩ ـ ٤١١ ٠

(٢) عثمان أمين ـ رائد الفكر المصري ص ٢٠٧ ٠

(٣) دكتور محمد البهي محاضرات عن فلسفة محمد عبده لطلبة ليسانس دار العلوم عام ١٩٥٥ ٠

(٤) سورة آل عمران آية ٦١ ٠

وقد تأثر بدعوة الامام الى تعليم المرأة كثيرون — وان انحرف بعضهم بها .

وفى مقدمة من سار فى طريق الامام السيد رشيد رضا حيث يقول معلقا على تفسير الامام للآية السابقة :

« وفى الآية ما ترى من الحكم بمشاركة النساء فى الاجتماع للمباراة القومية والمناضلة الدينية . وهو مبنى على اعتبار المرأة كالرجل حتى فى الأمور العامة الا ما استثنى منها ككونها لا تباشر الحرب بنفسها بل يكون حظها من الجهاد خدمة المحاربين كمداواة الجرحى . وقد علمنا مما تقدم أن الحكمة فى الدعوة الى المباهلة هى اظهار الثقة بالاعتقاد واليقين فيه ، فلو لم يعلم الله ان المؤمنات على يقين فى اعتقادهن كالمؤمنين لما أشركهن معهم فى هذا الحكم فأين هذا من حال نسائنا اليوم . ومن اعتقاد جمهورنا فيما ينبغى أن يكن عليه ؟ لا علم لهن بحقائق الدين ولا بما بيننا وبين غيرنا من الخلاف والوفاق ولا مشاركة للرجال فى عمل الأعمال الدينية ولا الاجتماعية فهل فرض الاسلام على نساء الأغنياء ولا سيما فى المدن الا يعرفن غير التطرس والتطرز والتورن(١) . وعلى نساء الفقراء ، ولاسيما القرى والبوادى : ان يكن كالأتن الحاملة والبقر العاملة ؟ وهل حرم على هؤلاء واولئك علم الدنيا والدين . والاشتراك فى شىء من شئون العالمين ؟ كلا بل فسق الرجال عن امر ربهم فوضعوا النساء فى هذا الموضع بحكم قوتهم فصغرت نفوسهن وعزلت آدابهن وضعفت ديانتهن ونحفت انسانيتهن وصرن كالدواجن فى البيوت

---

(١) التطرس : التنوق فى الطعام والشراب . والتطرز فى اللباس توخى الفاخر النفيس منه . والتورن : المبالغة فى التطيب والتنعم .

او السوائم فى الصحراء . او السوانى على السواقى والآبار أو ذوات الحرث فى الحقول والغيطان ، غساعت تربية البنين والبنات ، وسرى الفساد الاجتماعى من الأفراد الى الجماعات فعم الاسر والعشائر والشعوب والقبائل ، ولبث المسلمون على هذا الجهل الغاضح أحقابا . حتى قام فيهم من يعيرهم باحتقار النساء واستعبادهن ويطالبونهم بتحريرهن ومشاركتهن فى العلم والادب وشئون الحياة . منهم من يطالب بهذا اتباعا لهدى الاسلام وما جاء به من الاصلاح ، ومنهم من يطالب به تقليدا لمدنية اوروبا . وقد استحسنت الدعوة الأولى بالقول دون العمل واجيبت الدعوة الأخرى بالعمل ، على ذم الاكثرين لها بالقول . فانشأ المسلمون يعلمون بناتهم القراءة والكتابة وبعض اللغات الأوروبية والعزف بالآلات اللهو وبعض اعمال اليد كالخياطة والتطريز ، ولكن هذا التعليم لا يصحبه شيء من التربية الدينية ولا من اصلاح الأخلاق والعادات ، بل هو من عوامل الانقلاب الاجتماعى الذى تجهل عاقبته .

### ٦ ــ محاربة الترف :

وحارب الاستاذ الامام الترف والبذخ والاسراف الذى كان متفشيا فى بلاط الحاكم ووجوه البلاد . وبين أهمية المال ، وانه قوام الدولة ، وشنع على علماء المساجد تزهيدهم الناس فى الدنيا حتى اخلدوا الى الأرض وانقطع جدهم ومجدهم . ففى تفسير قوله تعالى : (( **ولا تؤتوا السفهاء أموالكم** )) يقول : وانما قال اموالكم ولم يقل أموالهم مع ان الخطاب للأولياء والمال للسفهاء الذين فى ولايتهم للتنبيه على أن التكافل فى الأمة واعتبار مصلحة كل فرد من أفرادها عين مصلحة الآخرين . كما قلنا فى آيات أخرى .

(( **التى جعل الله لكم قواما** )) . وفى هذه الجملة من الآية تحريض على حفظ المال وتعريف بقيمته . فلا يجوز للمسلم ان يبذر أمواله ، وكان السلف من اشد الناس محافظة على ما فى أيديهم وأعرف الناس بتحصيل المال من وجوه الحلال ، فأين هذا مما نسمعه من خطباء مساجدنا من تزهيد الناس وغل ايديهم واغرائهم بالكسل والخمول . حتى صار المسلم يعدل عن الكسب الشريف الى الكسب المرذول ، من الغش والحيلة والخداع . ذلك ان الانسان ميال بطبعه الى الراحة . ثم انه لابد له من الكسب فيختار أقله سعيا وأخفه مئونة ، وهو اخسه وأبعده عن الشرف . على أن هذا التزهيد فى الدنيا من هؤلاء لم يأت بما يساق لأجله من الترغيب فى الآخرة والاستعداد لها . بل ان خطباءنا ووعاظنا قد زهدوا الناس وقطعوهم عن الآخرة فخسروا الدنيا والآخرة . وذلك هو الخسران المبين . وما ذلك الا لجهلهم وعدم عملهم بما يعظون به غيرهم ، والواجب على المسلم العارف بالاسلام أن يبين للناس الجمع بين الدنيا والآخرة(١) .

( أ ) وأنت تشاهد أن الامام يدعو أئمة المساجد أن يتجهوا اتجاها عمليا اجتماعيا فى خطبهم ووعظهم . وأن يكون الدين وسيلة للنهوض بالمجتمع . ودعوة لبذل الجهد وزيادة الانتاج . وتلاحظ الآن أن نغمة الزهد فى الدنيا والبعد عنها بدأت تنحسر من خطب الائمة ونرى أن خطب المسلمين تعالج اخص أحوال المسلمين ، وتلك بفضل توجيهات الامام وتلاميذه الذين حملوا فكرته وتأثروا بها ودعوا الناس اليها .

---

(١) تفسير المنار جـ٤ ص ٢٨٤ .

(ب) وممن تأثر بالامام ، السيد رشيد رضا ، حيث يقول معلقا على الآية السابقة : (( **ولا تؤتوا السفهاء اموالكم التى جعل الله لكم قياما** )) : ومعنى جعل الأموال قياما للناس أن تقوم وتثبت بها منافعهم ومرافقهم ولا يمكن ان يوجد فى الكلام ما يقوم مقام هذه الكلمة ويبلغ ما تصل اليه من البلاغة فى الحث على الاقتصاد وبيان فائدته ومنفعته ، والتنفير من الاسراف والتبذير الذى هو شأن السفهاء وبيان غائلته وسوء مغبته . فكأنه قال : ان منافعكم ومرافقكم الخاصة ومصالحكم العامة لاتزال قائمة ثابتة مادامت اموالكم فى ايدى الراشدين المقتصدين منكم الذين يحسنون تثميرها وتوفيرها ولا يتجاوزون حدود المصلحة فى انفاق ما ينفقونه منها . فاذا وقعت فى أيدى السفهاء المسرفين الذين يتجاوزون الحدود المشروعة والمعقولة يتداعى ما كان من تلك المنافع سالما ، ويسقط ما كان من تلك المصالح قائما . فهذا الدين هو دين الاقتصاد والاعتدال فى الاموال كالأمور كلها . ولذلك وصف الله تعالى المؤمنين بقوله ٢٥ : ٦٧ (( **والذين اذا انفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما** )) . وقد نهانا الله عن التبذير حتى فى مقام الانفاق وجعل المبذر كالشيطان مبالغا فى الكفر

وفى الأحاديث النبوية مثل ذلك فمنها (( **ما عال من اقتصد** ))(١) (( والاقتصاد فى النفقة نصف المعيشة والتودد الى الناس نصف العقل وحسن السؤال نصف العلم(٢) )) . (( **ومن فقه**

---

(١) مسند الامام احمد .

(٢) الطبرانى والبيهقى .

**الرجل رفقه فى معيشته(١) »** . « **ومن اقتصد أغناه الله، ومن بذر أفقره الله(٢) »** . « **ونعم المال الصالح للمرء الصالح(٣) »** .

( جـ ) وممن تأثر بالامام ايضا المرحوم الدكتور محمد عبدالله دراز حيث يقول(٤) فى تفسير قوله تعالى : « **ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما** » . لا تؤتوا السفهاء اموالكم . هذه الآية دستور عام ليس خاصا بالوصى أو الولى كأنها تقول ان المال وان كان ملكا لزيد أو عمرو ، الا أنه حق للدولة ، فالجماعة مسئولة عن اضاعة هذه الأموال . فالأمر عام ينادى — أيها الولى على الدولة لا تول رئيسا للمالية يبدد الأموال .

أيها الرجل لا تدفع مالك الى مبدد مبذر .. الخ .. فالمجموع موزع على المجموع والغرض منه الوحدة والتكافل .

« **التى جعل الله لكم قياما** » . هذه الجملة من أعجب الأوامر التى تأتى فى دستور روحى . فالمال مخ الحياة لأنه قوام الحياة . فهذه أعظم وصية لتثمير المال ومراعاة قيمته لأنه مقوم الحياة .

وليس ذلك شيئا غريبا عن روح القرآن . فأطول آية منه جمعت بين الكتابة والشهادة والصادر والوارد فى قوله تعالى :

---

(١) احمد والطبرانى .

(٢) البزار .

(٣) الامام احمد .

(٤) من محاضرات الدكتور محمد عبد الله دراز لطلبة الليسانس بكلية دار العلوم فى تفسير سورة النساء عام ١٩٥٥ .

**« يأيها الذين آمنوا اذا تداينتم بدين الى أجل مسمى فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله فليكتب وليملل الذى عليه الحق وليتق الله ربه ولا يبخس منه شيئا فان كان الذى عليه الحق سفيها أو ضعيفا أو لا يستطيع أن يمل هو فليملل وليه بالعدل واستشهدوا شهيدين من رجالكم فان لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل احداهما فتذكر احداهما الأخرى ولا يأب الشهداء اذا ما دعوا ولا تسئموا أن تكتبوه صغيرا أو كبيرا الى أجله ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى الا ترتابوا الا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح الا تكتبوها . واشهدوا اذا تبايعتم ولا يضار كاتب ولا شهيد وان تفعلوا فانه فسوق بكم واتقوا الله ويعلمكم الله والله بكل شىء عليم(١) » .**

## ٧ ـ اضـــرار تعـــدد الزوجات :

ويبين الأستاذ الامام مفاسد تعدد الزوجات واضراره بالمجتمع فى عصـــرنا ، وأن اباحة تعدد الزوجات مضيقة قد اشـــترط فيها ما يصعب تحقيقه فكأنه نهى عن كثرة الأزواج .

وذلك عند تفسير قوله تعـالى : **« وان خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فان خفتم الا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى الا تعدلوا(٢) »** .

ويعلق الأستاذ الامام على تفسير هذه الآية بقوله : جاء ذكر تعدد الزوجات فى ســـياق الكلام عن اليتامى والنهى عن اكل اموالهم ولو بواســطة الزوجية فقال ان احسستم من انفســكم

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٨٢ .

(٢) سورة النساء الآية ٣ .

الخوف من أكل مال الزوجة اليتيمة فعليكم ألا تتزوجوا بها فان الله تعالى جعل لكم مندوحة عن اليتامى بما اباحه لكم من الزواج بغيرهن الى أربع نسوة ولكن ان خفتم الا تعدلوا بين الزوجات أو الزوجتين فعليكم ان تلتزموا واحدة فقط والخوف من عدم العدل يصدق بالظن والشك بل يصدق بتوهمه أيضا ؛ ولكن الشرع قد يغتفر الوهم لأنه قلما يخلو منه علم بمثل هذه الأمور ، فالذى يباح له أن يتزوج ثانية أو أكثر هو الذى يثق من نفسه بالعدل بحيث لا يتردد فيه أو يظن ذلك ويكون التردد فيه ضعيفا(١) .

( أ ) فالأستاذ الامام يذهب الى أن الأصل فى الزواج الاقتصار على زوجة واحدة تكون سكنا وامنا ويترتب على ذلك الثقة والاطمئنان المتبادل .

وان التعدد ضرورة يلجأ اليها من خاف الجور على اليتيمة من الأوصياء . اى ان الآية صرفت نظرهم عن ظلم اليتيمة بالتوسيع عليهم فيما أحل الله من النساء مثنى وثلاث ورباع .

واذا خاف الانسان الجور أو الظلم وجب أن يقتصر على الواحدة ولما قال الله : (( **فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة** )) علله بقوله (( **ذلك أدنى الا تعولوا** )) اى أقرب من عدم الجور والظلم فجعل البعد عن الجور سببا فى التشريع وهذا مؤكد لاشتراط العدل ووجوب تحريه ومنبه الى أن العدل عزيز . وقد قال تعالى فى آية أخرى من هذه السورة : (( **ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم** )) وقد يحمل هذا على العدل فى ميل القلب ولولا ذلك لكان مجموع الآيتين منتجا عدم جواز التعدد بوجه ما ، ولما كان يظهر وجه قوله بعدما تقدم من الآية : (( **فلا**

---

(١) المنار جـ٤ ص ٣٤٨ .

تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة » والله يغفر للعبد ما لا يدخل تحت طاقته من ميل قلبه . وقد كان النبى ( صلى الله عليه وسلم ) يميل فى آخر عهده الى عائشة أكثر من سائر نسائه ولكنه لا يخصها بشيء دونهن أى بغير رضاهن وأذنهن وكان يقول اللهم هذا قسمى فيما أملك فلا تؤاخذنى فيما لا أملك ( أى ميل القلب )(١) .

(ب) ويرى الأستاذ الامام ان التعدد وان كانت له محاسنه فى عصر السلف حيث النفوس سليمة والقلوب نظيفة والجميع يمتثلون أمر الدين ويتقون رب العالمين . فان التعدد له مساوئه فى زمننا لكثرة مساوىء الناس ، وضعف أخلاقهم . بل ان أكثر المعددين لزوجاتهم لا هم لهم الا قضاء الشهوة والمتعة المؤقتة . والله لا يحب الذواقين ولا الذواقات .

فواجب العلماء النظر فى هذه المسألة من جديد ووضع رقابة على المعددين لنتأكد من تنفيذهم لما اوجبه الله من العدل . والبعد عن الجور أو الاقتصار على الواحدة . قال رحمه الله « كان للتعدد فى صدر الاسلام فوائد اهمها صلة النسب والصهر الذى تقوى به العصبية ولم يكن له من الضرر مثل ماله الآن لأن الدين كان متمكنا فى نفوس النساء والرجال وكان اذى الضرة لا يتجاوز ضرتها . أما اليوم فالضرر ينتقل من كل ضرة الى ولدها والى والده والى سائر اقاربه ، فهى تغرى بينهم العداوة والبغضاء : تغرى ولدها بعداوة اخوته وتغرى زوجها بهضم حقوق ولده من غيرها وهو بحماقته يطيع احب نسائه اليه فيدب الفساد فى العائلة كلها . ولو شئت تفصيل الرزايا والمصائب المتولدة من تعدد الزوجات

---

(١) تفسير المنار جـ٤ ص ٣٤٨ ، ٣٤٩ .

لاتيت بما تقشعر منه جلود المؤمنين فمنها السرقة والزنا والكذب والخيانة والجبن والتزوير بل منها القتل حتى قتل الولد والده والوالد واده ، والزوجة زوجها والزوج زوجته . كل ذلك واقع ثابت فى المحاكم ، وناهيك بتربية المراة التى لا تعرف قيمة الزوج ولا قيمة الولد وهى جاهلة بنفسها وجاهلة بدينها لا تعرف منه الا خرافات وضلالات تلقتها من امثالها يتبرأ منها كل كتاب منزل وكل نبى مرسل . فلو تربى النساء تربية دينية صحيحة يكون بها الدين هو صاحب السلطان الأعلى على قلوبهن بحيث يكون هو الحاكم على الغيرة لما كان هناك ضرر على الأمة من تعدد الزوجات ، وانما كان يكون ضرره مقصورا عليهن فى الغالب . اما والأمر على ما نرى ونسمع فلا سبيل الى تربية الأمة مع فشو تعدد الزوجات فيها . فيجب على العلماء النظر فى هذه المسألة خصوصا الحنفية منهم الذين بيدهم الأمر وعلى مذهبهم الحكم فهم لا ينكرون ان الدين انزل لمصلحة الناس وخيرهم وأن من اصوله منع الضرر والضرار ، فاذا ترتب على شىء مفسدة فى زمن لم تكن تلحقه فيما قبله . فلا شك فى وجوب تغيير الحكم وتطبيقه على الحالة الحاضرة : يعنى على قاعدة درء المفاسد مقدم على جلب المصالح . قال الامام وبهذا يعلم أن تعدد الزوجات محرم قطعا عند الخوف من عدم العدل(١) .

( ج ) وأنت ترى اهتمام الامام بالاصلاح الاجتماعى . وتراه يشخص الداء ويصف الدواء ولا يتحرج من الاجتهاد فرسم بذلك طريق الاصلاح والاجتهاد لمن جاء بعده ، وترى ذلك جيدا

---

(١) تفسير المنار ج٤ ص ٣٥٠ .

فى علاج السـيد رشـيد رضا لموضـوع التعدد ودفاعه عن وجهة النظر الاسلامية(١) .

وفى كلام المرحوم الدكتور محمد عبد الله دراز ، حيث يخبرنا ان النســاء فى المانيا يطالبن بتطبيق الشـريعة الاسـلامية فى التعدد للنقص الشـديد فى الرجال بعد الحرب . بل ويطالب البعض برأى غريب هو ان المراة لا تمكث مع زوجها اكثر من عام ثم تتركه لتنال حظها منه مواطنة أخرى فى عام ثان وهكذا .

وبين حكمة الاسـلام « فان أوروبا لا تبيح تعدد الزوجات بينمـا تبيح تعدد الخليـلات ولكن القرآن حـارب هـذه العشرة الا بين الزوج وزوجتـه « **محصـنات غير مسافحـات ولا متخذات اخـدان** »(٢) .

الا ما اعدل حكم الله ، ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون .

ويرى فضيلة الأستاذ الكبير الشـيخ محمد محمد المدنى عميد كلية الشـريعة الاسـلامية أن التعدد انما أبيح فى مثل حالة الوصى على اليتامى حيث يكون مضطرا للدخول عليهم ومراعاة شـئونهم وفيهم من تصـلح للزواج . وهو يخشى على نفسـه الفتنة . والمؤمن لا يرضى أن يكون فاتنا أو مفتونا . فأباح الله للرجل فى مثل ذلك الظرف أن يكون له أكثر من واحدة اذا أمن الجور ، وبذلك يجمع بين رعاية مصـلحة اليتامى على الوجه المطلوب وبين وقاية نفسـه ووقاية غيره من عوامل السـوء والفتنة . وبعد أن وضح هذا الرأى وبينه تبيينا كاملا قال :

---

(١) تفسير المنار جـ٤ ص ٣٥١ وما بعدها .

(٢) محاضرات فى تفسير سورة النساء لطلبة ليسانس دار العلوم عام ١٩٥٥ لفضيلة المرحوم الدكتور محمد عبد الله دراز .

وبذلك يتبين :

١ — أن تعدد الزوجات انما شـــرع لمثل هذه الغاية التى هى الرغبة فى القيام لليتامى بالقسـط تحقيقا لأمر الله ورعاية لمصلحـة اليتـامى أنفسـهم · وانه ليس مشروعا لمجرد ارضـاء النفس وتحقيق الرغبة فى النسـاء .

٢ — وانه بهذا التفسـير ليس غريبا عن موضـوع اليتامى ، ولا دخيلا فى أحكامهم فانه ذكر حلا لمشـلكة من مشـكلاتهم فى المجتمع حيث تقضى المصـلحة بأن يقوم عليهم وصى بالقسـط ، وتقضى الآداب الاسـلامية بأن يتحرج الرجل من الالتقاء بمن هن أجنبيات عنه .

٣ — وانه يمكن القياس على هذا الغرض بأن يباح التعدد اذا دعا داع اليه وأن يقيد التعدد اذا لم يكن له داع يشـبه ما ذكره القرآن الكريم من « اقامة القسط فى شأن اليتامى » .

٤ — وأن هذا كله مشـروط — مع توخى الغاية الشريفة — بأن يأمن الزوج عدم الجور . فاذا خـاف الجـور . وجب عليه الا يعدد(١) .

وليس فى الشـريعة ما يمنع ان يعهد بتقدير ظروف الناس فى التعدد الى هيئة رسـمية اجتماعية أو قضـائية ، وأن يقيد الناس فى التعدد بحكم هذه الهيئة جوازا أو منعا .

فان التعدد مباح بشرطين : أن يكون له مبرر وداع شريف معترف به شـرعا . وشـرط آخر هو الا يؤدى الى الجور وعدم العدل .

---

(١) كتاب المجتمع الاسلامى كما تنظمه سورة النساء لفضيلة الاستاذ محمد المدنى ص٢٧٢ ·

فموقف هذه الهيئة التأكد من تحقق الشرطين السابقين حتى لا يقع من عدم تحققهما ضرر يكرهه الله ولا يأذن به(١) ٠

وانت تشـــــاهد ان التفســـير بعد الاســتاذ الامام نهج منهجا اجتماعيا يتخذ من القرآن اســاسا لاصلاح المجتمع . فكانت سنة حسنة سنها الامام فله أجرها وأجر من عمل بها الى يوم القيـــامة .

## ٨ ــ آداب الســـــلوك :

واخيرا فقد رأيت تأثر الامام فى تفســـيره للقرآن الكريم برغبته الصـــادقة فى اصلاح المجتمع وانقاذ المجتمع المصـــرى المعاصـــر له من الهوة السحيقة التى كان يتردى فيها .

فربط الامام تفســـيره للقرآن بآداب الســـلوك والحياة الاجتماعية ، حتى لتخال وانت تقرأ تفســـيره انك امام مدرس لعلم الاجتماع . وحين كان يفســـر آيات تتناول الصـــلاة والزكاة والعبادات لا يفسرها تفسيرا لغويا جافا . بل يوضـــح جيدا صـــلة هذه الأوامر بالمجتمع . والقيمة الخلقية والاجتماعية والنفعية التى تعود على الناس من اتباعها . والاضـــرار التى تترتب على اهمالها . والطريقة التى اتبعها الاستاذ الأمام هى عين ما ينادى به اســـاتذة التربية وعلم النفس حين يقولون ان أحكم خطة للتربية الدينية ربطها بالمجتمع . والمقارنة بين الســلوك السيىء وما يترتب عليه من الآثار المؤلمة لصـــاحبه فى نفســه

---

(١) كتاب المجتمع الاسلامى كما تنظمه سورة النساء لفضيلة الاستاذ محمد محمد المدنى ٠

وبين من يحيطون به . والسلوك الحميد وما يترتب عليه من الفوائد العظيمة لصاحبه عند الناس وعند رب الناس(١) .

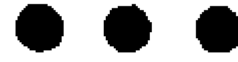
وفى آخر سورة الفجر ذكر القرآن اهل السوء ثم ثنى بذكر أهل الخير فى قوله تعالى : (( **يا ايتها النفس المطمئنة ارجعى الى ربك راضية مرضية فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى** )) .

وقد قارن الامام بين السلوكين . وبين اضرار السلوك السيىء وقيمة السلوك السوى لصاحبه وللمجتمع الذى يحيط به فقال : « بعد أن ذكر حال الانسان . وقد خلى وطبعه وحرصه وجشعه ، واستولت عليه رغبات جسمه ، وخرجت به عن سلطان العقل وحكمه . ثم ذكر عاقبته وما يصير اليه فى الحياة الأخرى . انتقل بنا الى ذكر الانسان اذا ارتقى عن ذلك الطبع ، وترفع عن مواقع الحيوانية . واستعلى برغائبه الى المطامح الروحانية . فكان فى الغنى شاكرا لا يتناول الا الحق ولا يمنع صاحب الحق حقا . ولا يترك العناية بأمر اليتيم ، ويطعم المسكين ، ويحمل غيره على الاقتداء به فيما هو خير له ولمن حوله ، وكان فى الفقر صابرا لا يمد يده الى ما ليس من حقه ولا يأتى الدنية ولا يطلب لغيره الرزية ، ولا يغفل شأن اليتيم ولا يغفل عما يألم له المسكين . فاذا لم تمكنه المعونة بالمال امكنه المساعدة بالمقال . وبهذا يستحق وصف المطمئن فانه راكن الى ربه فى جميع أمره ، واقف عند شرعه ثابت القدم بمعرفة الحق والسلوك فى سبيله لا تزعزعه الشهوات ، ولا تضطرب به الرغبات . ويستحق أن يخاطب باسم النفس التى هى روح تنزع الى ما يليق بالروح

---

(١) التربية الدينية فى المرحلة الابتدائية ، صحيفة التربية ، عدد مايو سنة ١٩٥٥ .

ولا ينادى باســم الانســان الذى يشــير الى ما فى تكوينه من النزعة الحيوانيــة لأنه لم يسلطهــا عليــه بل استخدمها لتكميــل نفســــه وارجاعها الى معهدها المقدس فكانت جديرة بجوار ربها وهى راضــية بعملهــا فى الدنيــا وبمرجعها فى الآخرة لأنهــا لم تكن قط ساخطــة · لا هى تســخط عملهــا فى غناهــا ،ولا تسخط حالهــا فى فقرها ، ولا تسخط صنيع ربها بها ، وهى مرضــية لأن من كانوا معها فى الدنيــا راضــون عنها لحسن صنعها والله راض عنها لصلاح عملها(١) ·



(١) تفسير جزء عم ص ٨٦ ·

# الباب الثالث

# مدرسة الأستاذ الامام فى التفسير

# مدرســة الأستاذ الامام فى التفســير

**تمهيـــــــد :**

كان الأستاذ الامام صــاحب مدرســة فى الاصــلاح الدينى عموما وفى تفســـير القرآن على وجه الخصوص . واستطاع الامام محمد عبده ان يجرد تفســير القرآن من كثير من الشوائب التى علقت به فكان تفســـيره فتحا جديدا فى عالم التفســير ومرحلة من مراحل تطوره اســـتطاع الامام ان يرسى قواعدها وأن يضع أساسها ويبث مفاهيمها فى نفوس اتباعه ومريديه .

وحمل لواء النهضــة فى التفســير تلاميذه من بعده . وفى مقدمتهم السيد رشــيد رضــا صــاحب المنار . وفى هذا الباب من الرســالة نحاول ان نتتبع الأثر الذى تركه الامام فى تفسير القرآن . وان نقارن بين تفسير المنار للشيخ محمد عبده ، وتفسير المنار لتلميذه السيد رشيد رضا .

فقد فســر الامام فى المنار ســورة البقرة وآل عمران وجزءا من ســورة النســاء ثم اكمل الســيد رشــيد رضا تفسير المنار لاثنى عشــر جزءا من القرآن الكريم .

وكثير من الناس يلتبس عليهم الأمر فيسندون تفسير المنار جميعه الشيخ محمد عبده .

بل ان هذا الخطأ قد وقع فيه اساتذة متخصصون من العرب ووقع فيه أيضا المستشرق الكبير جولد تسيهر فى كتابه مذاهب التفسير الاسلامى حيث اسند الى الامام محمد عبده كلام تلميذه السيد رشيد رضا ٠

ونحن نلتمس له العذر لأن لغته غير عربية فاشتبه عليه كلام الأستاذ بكلام تلميذه لأن الاثنين من مدرسة واحدة ويحسن بنا أن ننقل بين يدى هذا البحث جزءا من مقدمة تفسير المنار التى كتبها السيد رشيد رضا ٠ لأنها تلقى ضوءا على تاريخ تفسير المنار وتوضح كلام الامام من كلام تلميذه .

**قال السيد رشيد رضا فى مقدمة المنار :**

« كان من سوء حظ المسلمين أن أكثر ما كتب فى التفسير يشغل قارئه عن مقاصد القرآن العالية وهدايته السامية فمنها ما يشغله عن القرآن بمباحث الاعراب وقواعد النحو ونكت المعانى ومصطلحات البيان ٠

ومنها ما يصرفه عنه بجدل المتكلمين وتخريجات الاصوليين ، واستنباط الفقهاء المقلدين وتأويلات المتصوفين وتعصب الفرق والمذاهب ، بعضها على بعض ، وبعضها يلفته عنه بكثرة الروايات وما مزجت به من خرافات الاسرائيليات ٠ . وقد زاد الفخر الرازى صارفا آخر عن القرآن هو ما يورده فى تفسيره من العلوم الرياضية والطبيعية وغيرها من العلوم الحادثة فى الملة على ما كانت عليه فى عهده كالهيئة الفلكية اليونانية وغيرها ، وقلده بعض المعاصرين بايراد مثل ذلك من علوم هذا العصر وفنونه الكثيرة الواسعة فهو يذكر فيما يسميه تفسير الآية فصولا طويلة — بمناسبة كلمة مفردة

كالسماء والارض – فكانت الحاجة شديدة الى تفسير تتوجه العناية الأولى فيه الى هداية القرآن على الوجه الذى يتفق مع الآيات الكريمة المنزلة فى وصفه وما انزل لأجله من الانذار والتبشير والهداية والاصلاح وهو ما نرى تفصيل الكلام عليه فى المقدمة المقتبسة من دروس شيخنا الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده رحمه الله تعالى واحسن جزاءه .

ثم الى العناية الى مقتضى حال هذا العصر فى سهولة التعبير ومراعاة افهام صنوف القارئين . وكشف شبهات المشتغلين بالفلسفة والعلوم الطبيعية وغيرها ، الى غير ذلك مما نراه قريبا وهو ما يسره الله بفضله لهذا العاجز وهاك موجزا من نبأ تيسيره له » .

واذا قرأنا هذا الموجز الذى كتبه السيد رشيد رضا اتضحت امامنا سلسلة الاصلاح الدينى على هذا النحو :

١ – كان السيد جمال الدين الأفغانى اساس النهضة الإسلامية الحديثة ورجل الاصلاح الذى نفخ فى هذا الشرق من روحه الفياضة فدبت فيه الحياة وعادت اليه ذكريات أمجاده وماضيه العريق .

٢ – حمل راية الاصلاح تلميذه وصديقه الشيخ محمد عبده وكان اصلاحه دينيا اجتماعيا ، واهتم لذلك بتفسير القرآن الكريم وجعله اساسا لتربيته ونهضته الاجتماعية وافكاره التربوية للنهوض بالأمة المصرية والاسلامية .

٣ – كان السيد رشيد رضا صوفيا ناشئا بقرية القلمون بطرابلس الشام وقرأ العروة الوثقى فتحول تصوفه السلبى الى رغبة فى الجهاد ، وانتقل من رجل صالح الى عالم مصلح . وحضر الى مصر ولازم الشيخ محمد عبده ملازمة التلميذ المخلص

واتخذه الشيخ أخا ورفيقا ومقررا لدروســـه وترجمانا لنشــــر تعـــاليمه .

٤ ـ خالف السيد رشيد رضا منهج أمامه وأستاذه بيد أنها مخالفة فى طريقة عرض الفكرة وليست فى أساس الفكرة او المنهج وصرح بذلك السيد رشيد رضا فى مقدمته المنار فقال :

« هذا واننى لما استقللت بالعمل بعد وفاته خالفت منهجه رحمه الله تعالى بالتوسع فيما يتعلق بالآية من السنة الصحيحـة سواء كان تفسيرا لها أو فى حكمها ، وفى تحقيق بعض المفردات او الجمـل اللغوية والمســائل الخلافيــة بين العلماء · وفى الاكثـار من شــــواهد الآيات فى الســـور المختلفـــة وفى بعض الاستطرادات لتحقيق مســـائل تشـــتد حاجة المسلمين الى تحقيقها بما يثبتهم بهداية دينهم فى هـذا العصر او يقوى حجتهم على خصومهم من الكفار والمبتدعة او يحل بعض المشـــكلات التى أعيا حلها بما يطمئن به القلب وتســـكن اليه النفس .. وأستحسـن للقارىء أن يقرأ الفصـــول الاســـتطرادية الطويلة وحدها فى غير الوقت الذى يقرأ فيه التفســـير لتدبر القـــرآن والاهتداء به فى نفســـه وفى النهوض باصلاح أمته وتجديد شباب ملته » .

واذا كان الباب السابق قد بين منهج الامام محمد عبده فى تفســـير القرآن الـكريم · فان هـذا البـــاب سيوضـــح منهـــج تلميذه السيد رشيد رضـا ، ويبين مدى التطور الذى طرأ على تفسير المنار بعد وفاة الأستاذ الامام .

# خصـــائص تفســـير المنـــار

للسيد رشيد رضا

**الخاصة الأولى :** التحقيق العلمي ·

**الخاصة الثانية :** تأثر صاحب المنار بابن كثير ·

**الخاصة الثالثة :** تأثر صاحب المنار بالغزالي ·

**الخاصة الرابعة :** التوسـع والاطالة ·

**الخاصة الخامسة :** بيان السنن الاجتماعية وأسباب التطورات التاريخيـة واسـتنباط ذلك من آيـات القرآن الكريم ·

الخاصة الأولى :

# التحقيق العلمي

تميز السيد رشيد رضا بالعلم الغزير والمعرفة المتنوعة ويعتبر حجة فى البحوث الفقهية والتشريعية وأصول الفقه ومعرفة رجال الحديث وأقوال المفسرين وعلوم القرآن ·

« وكان الذى يدهش فى الشيخ رشيد رضا رسوخ قدمه فى مختلف العلوم حتى اذا نظرت اليه فى علم منها وعلمت مبلغ احاطته فيه ظننته متخصصا فى ذلك العلم وحده كأنه انفرد به ·

والحال أن له فى سائر العلوم الملكة نفسها فكان اذا أمسك القلم تدفق نحوا وصرفا ولغة وبيانا وبديعا وفقها وحديثا وتفسيرا وتوحيدا وأصولا وكل ذلك فى نسق واحد ·

هو وان كان لا يسامى جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده فى العلوم العقلية فقد سبقهما فى مزية الكتابة وفيض القلم اذ كانا يؤثران تنبيه العقول ، وايقاظ الهمم من طريق الخطابة والمحادثة وكانت مجالس جمال الدين لا يمر منها مجلس الا كان أشبه بمحادثة تاريخية تسجل ألفاظها وتحفظ جوامع كلمها ·

وكانت مجالس محمد عبده يقدر السامع أن يكتبها باسرها لا يزيد منها حرفا من شدة احكامها وكأنما هي فصول مكتوبة يقرؤها قاريء · وكأنما هي نفثات سحر في استيلائها على الأفكار وطالما خرج السامعون منها نشاوى تترنح أعطافهم · فأما السيد رشيد فانصرف بكليته الى أعمال القلم وصار يكتب في الساعات ما لا يقدر أن يسوده غيره في الأسابيع حتى لو قيل ان محصول قلمه قد يتوزع على عشرة كتاب كبار ويصيب كلا منهم نصيب وافر لم يكن في ذلك أدنى غلو · لأن سهولة الكتابة التي كانت عند صاحب المنار بما أوتي من اجتماع القوتين الحافظة والحاكمة · وانتظام المتنين المطبوع والمسموع كانت آية باهرة لا يتمارى فيها الا حاسد أو معاند ·

وتفسير السيد رشيد رضا للقرآن الكريم هو وحده كاف ليخلده بين علماء هذه الأمة »(١) ·

لقد كان الأستاذ محمد عبده مفسرا للقرآن ولكن روح الاصلاح والرغبة فيه كانت مسيطرة على تفسيره ·

ولعل كثرة مشاغل الامام وتنوع خدماته لم تهييء له الاستقرار اللازم للتعمق في البحث والتبحر في التاليف ·

بينما كان السيد رشيد رضا عالما مستقرا مؤلفا بطبعه متنوع الثقافة يغلب على تاليفه الطابع العملي والبحث العميق وقد حذق فن التأليف وأجاده ونوع في تصانيفه بما جعلها شائقة محببة ·

واذا نظرنا الى الزمن الذى عاش فيه السيد رضا رأينا ان

---

(١) رشيد رضا او اخاء اربعين سنة — شكيب ارسلان مطبعة ابن زيدون دمشق — سنة ١٩٣٧م — ص ٢٥٥ ·

العلوم والترجمة قد ازدهرت فيه واثرت فى كل وجوه النشــاط ، وظهر النقد الأدبى بأصوله وقواعده ٠

واستفاد السيد رشيد من العلوم الجديدة فى عهده ونهل منها وانطلق ذلك على أطراف قلمه وظهر فى طريف بحوثه ٠

ونرى السيد رشيد يروى آراء الأستاذ الامام ويكرر اعجابه بها ولكن أمانة العلم ورسوخ القدم فى علوم الشريعة جعلت السيد رشيد ينقد آراء الامام نقد الصيرف الخبير بالدراهم وهذه أمثلــة توضح ذلك النقد ٠

١ ـ رأى الشيخ محمد عبده أن ســورة الفاتحـــة هى أول ما نزل من القرآن على الاطلاق ٠ ولم يستثن قوله تعــالى : (( اقرأ باسم ربك الذى خلق )) واســتدل على ذلك بأن مقتضى الســنة الالهية فى هذا الكون أن يظهر ســبحانه الشىء مجملا ثم يتبعه التفصيل بعد ذلك تدريجيا ٠

وما مثل الهداية الالهية الا مثل البذرة والشجرة العظيمة فهى فى بدايتها مادة حياة تحتوى على جميع أصولها ثم تنمو بالتدريج حتى تتسق فروعها بعد أن تعظم دوحتها ثم تجود عليك بثمرهـــا والفاتحة مشتملة على مجمل القرآن وبيان ذلك أن القرآن ما نزل الا لأجل هذه الأمور :

أولا : التوحيد ٠

ثانيا : وعد المتقين ووعيد العصاة والمخالفين ٠

ثالثا : العبادة التى تحيى التوحيد فى القلب وتثبته ٠

رابعا : بيان طريق الســعادة الموصـــل الى نعيم الدنيــا والآخرة ٠

خامسا : قصص السابقين للعظة والاعتبار ٠

والفاتحة مشتملة على هذه الخمسة اجمـالا بغير ما شـك ولا ريب فكان نزولها أولا موافقا لسنة الله فى الابداع جديرة بأن تسمى أم الكتاب ٠

كما تقول ان النواة أم النخلة فان النواة مشتملة على شجرة النخلة كلها حقيقة ٠

والسيد رشيد ينقل عن الاتقـان آراء عن أول مانـزل من القرآن ٠

أحدها : اقرأ باسم ربك ، رواه الشيخان وغيرهما ٠

ثانيهما: يأيها المدثر ، رواه الشيخان وغيرهما ٠

ثالثها : سورة الفاتحة ٠

ثم ينقل ترجيح الامام لهذا الرأى الأخير وتبينه الحكمة الالهية فى اجمال الفاتحة أولا ثم تفصيل القرآن بعدها ٠

ويعلق السيد رشيد على ما رآه الامام فيقول : « ان نـزول أول سورة العلق قبل الفاتحة لا ينافى هذه الحكم التى بينها الامام لأنه تمهيد للوحى المجمل والمفصل خاص بحال النبى ( صـلى الله عليه وسلم ) واعلام له بأن يكون — وهو أمى — قارئا بعناية الله ومخرجا للأميين من اميتهم الى العلم بالقلم أى الكتابة وفى ذلك استجابة لدعوة ابراهيم ٢ : ١٢٨ « ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم » .

فسر الأستاذ الامام الكتاب بالكتابة ثم كانت الفاتحـة أول

سورة نزلت كاملة وامر النبى بجعلها أول القرآن وانعقد على ذلك الاجماع(١) ٠

ونلاحظ أن رأى السيد رشيد أقوى لموافقته لكتب السنة الصحيحة ، أما رأى الامام فقد اعتمد فيه على بيان الحكمة الالهية فى الاجمال ثم التفصيل وهو منزع غريب فى ترتيب السور كما قال السيد رشيد رضا ٠

٢ ــ كان السيد رشيد رضا عالما ضليعا فى حديث رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) رواية ودراية وكان متأثرا بابن كثير فى ايراد الأحاديث المتعلقة بالآية والآيات المتعلقة بها وربما رفض تفسير الامام للآية بناء على ما صح عنده من الحديث ٠

ان هذا التلميذ النابه مع اعجابه بامامه وقوة صداقته له الى حد منقطع النظير ، لم يمنعه ذلك من ترجيح الحق حيثما كان ، وذلك دليل على خصوبة الفكر وقوة الشخصية ٠

« قال السيد رشيد رضا فى مقدمته لكتابه « تاريخ الأستاذ الامام » فاذا رأى القارىء أننى على اعجابى بسعة علومه ورسوخه فى معارفه التى كان بها جديرا بلقب الأستاذ الامام ٠ الذى قبله واجازه المرأى العام ، اثبت أنه كان مقصرا فى علوم الحديث من حيث الرواية والحفظ والجرح والتعديل كغيره من علماء الأزهر ٠

واننى على اعجابى باخلاقه التى كان بها حقيقا بزعامة الاصلاح والتجديد للأمة والملة ، صرحت بأنه كان كأستاذه لا يخلو من الحدة ، وما يقابلها من الضعف بشدة الرحمة والمبالغة فى الورع المغريتين لصاحبهما ، بايثارهما على المصلحة العامة ٠ واننى على اعجابى بقوة تدينه وحسن تعبده ومحافظته على تهجده ،

---

(١) تفسير المنار جـ١ ص ٣٤ ــ ٣٨ ٠

صرحت بأنه كان يجمع بين الصلاتين فى الحضر احياناً ترخصاً اجتهاديا خالف فيه المذاهب الأربعة ، ولكنه وافق حديثاً صحيحا اخذ به غيرهم من الأئمة ٠

اذا راى القارىء هذا أو ذاك أيقن انني لم أكن محابيا له فى هذا التاريخ ولا سالكا فيه مسالك الشعراء ولا أنصـــار المذاهب حين يرسمون لزعمائهم صورا مكبرة مزينة مجملة بما يظهر محاســـنهم ويخفى مساوئهم أو يبدل سيئاتهم حسنات ٠

وعلم أن كل ما انتقد يصح أن يقال فيه : « حسنات الأبـــرار سيئات المقربين » ٠

وانني وايم الحق لم اطلع له على عمل ينافي العفة والنزاهة ولا الورع والشرف ، ولا هفوة تدل على كامن حقد أو حسد فهـو اكمل من عرفت من البشر دينا وأدبا ونفسا وعقلا وعلما وعمـــلا وصدقا واخلاصا(١) ٠

٣ ــ وتميز السيد رشـــيد رضـــا ٠ فى تعليقه على آراء الامام بالأدب الجم واللباقة فى التعبير حين يرفض رأى الامام او يرجـح رأيا مرجوحا عنده أو العكس ٠

فى تفسير قوله تعالى : (( **لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين** )) ٠

قال الأستاذ الامام فى تفسيرها : « نطقت كتب السير بـــأن بعض الذين كانوا يدخلون الاســـلام كان يقع منهم قبل الاطمئنـــان بالايمان اغترار بعزة الكافرين وقوتهم وشوكتهم فيوالونهم ويركنون اليهم وهذا أمر طبيعى فى البشر ٠٠ قال الامام وذكروا فى سبب

---

(١) تاريخ الاستاذ الامام جـ١ ص ٦ ٠

نزول الآية أنها نزلت فى حاطب بن أبى بلتعة ، وقصته معروفة . وقيل انها نزلت فى ابن ابى سلول «زعيم المنافقين» وقيل فى جماعة من الصحابة كانوا يوالون اليهود . ومهما كان السبب فى نزولها فانا نعلم أن من طبيعة الاجتماع فى كل دعوة أن يوجد فى المستجيبين لها القوى والضعيف على أن مظـــاهر القوة والعـــزة تغر بعض الصادقين ، وتؤثر فى نفوس بعض المخلصين فما بالك بغيرهم ؟ ولذلك نهى الله تعالى المؤمنين عن اتخاذ الأولياء من الكافرين . وقد ورد بمعنى هذه الآية آيات أخرى ، فلابد من تفسيرها تفسيرا تتفق به معانيها .

والسيد رشيد رضا يعلق على تفسير الامام للآية بقوله :

« اقول : قصة حاطب التى اشار اليها مسندة فى الصحيحين وغيرهما ملخصها : أن حاطبا كتب كتابا لقريش يخبرهـــم فيـــه باستعداد النبى صلى الله عليه وسلم للزحف على مكة اذ كان يتجهز لفتحها وكان يكتم ذلك ليبغت قريشا على غير استعداد منها فتضطر الى قبول الصلح وما كان يريد حربا ..

ولما أرسل حاطب خطابه خفية الى قريش مع احدى الجوارى اخبر الله نبيه بذلك فارسل فى اثرها من أحضر الخطاب . وفى ذلك يقول الله تعـالى : (( **يأيها الذين آمنوا لا تتخـذوا عدوى وعدوكم أوليــاء** )) .

وبعد أن يذكر السيد رشيد القصة يستمر فى تعليقه بقوله : « ولم أر أحدا قال ان الآية التى تفسرها نزلت فى قصة حاطب فلعل ما قاله الأستاذ الامام سهو سببه أن هذه الآية وما أنزل فى قصـــة حاطب يشتركان فى النهى عن موالاة الكافرين(١) .

---

(١) تفسير المنار جـ٣ ص ٢٧٦ .

وأنت تلاحظ أدب السيد رشيد حين أراد أن يرفض كـــلام الامام قال : لعله سهو ، ثم التمس له العذر فى هذا السهو ٠

٤ ــ ولم يكن نقد السيد رشيد رضا وتصحيحه يعتمد على كونه حجة فى الحديث فقط ٠ بل كان يعتمد أيضا على ذوق بصير وقلب متفتح يدرك قبول المعنى أو رفضه ٠

ولذلك كان يروى كلاما نقله ابن جرير الطبرى المؤرخ العظيم ثم ينقده ويفنده ٠

جاء فى تفسير المنـــار تحت عنوان « **خلق الطير من الطين** » عند تفسير قوله تعالى فى قصة المسيح « **ويعلمه الكتاب والحكمـة والتوراة والانجيل ورســولا الى بنى اسرائيل انى قد جئتكم بآية من ربكم أنى اخلق لكم من الطين كهيئة الطير فانفخ فيها فيكون طيرا باذن الله** » ٠

قال الأستاذ الامام : الخلق التقدير والترتيـب لا الانشــــاء والاختراع ، ويقرب أن يكون هذا اجماعا من المفسرين وفســـره الجلال هنا بالتصوير لأنه من التقدير ٠٠٠ الخ ٠

ويعلق السيد رشيد رضـــا بقوله : « هــذا ما قاله الأســـتاذ الامام ٠ ومن الغريب أن ابن جرير يروى عن ابن اســـــحق « أن عيسى صلوات الله عليه جلس يوما مع غلمان من الكتاب فأخـذ طينا ثم قال اجعل لكم من هذا الطين طائرا ٠ قالوا أو تستـــطيع ذلك ؟ قال نعم باذن ربى ثم هيأه حتى اذا جعله فى هيئة الطائـــر نفخ فيه ، ثم قال كن طائرا باذن الله فخرج يطير من بين كفيـــه » فكانه اتخذ آية الله على رسالته العوية للصبيان ٠ والحاصل أنـــه ليس عندنا نقل صحيح بوقوع خلق الطير بل ولا عند النصـــارى الذين يتناقلون وقوع سائر الآيات المذكورة فى الآية إلا ما فى انجيل

الصبا او الطفولة من نحو ما قال ابن اسحق وهو من الأناجيل غير القانونية عندهم ·

ولعل سورة المائدة أدنى الى الدلالة على الوقوع من هذه الآية وهى : « ٥ : ١١٠ **اذ قال الله ياعيسى ابن مريم اذكر نعمتى عليك وعلى والدتك اذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس فى المهد وكهلا واذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل ، واذ تخلق من الطين كهيئة الطير باذنى فتنفخ فيها فتكون طيرا باذنى وتبرىء الأكمه والأبرص باذنى واذ تخرج الموتى باذنى واذ كففت بنى اسرائيل عنك اذ جئتهم بالبينات** » ·

فان جعل ذلك كله متعلق النعمة يؤذن بوقوعه ، الا ان يقال ان جعل هذه الآيات مما يجرى على يديه عند طلبه منه والحاجة الى تحديه به من اجل النعم واعظمها ولكن هذا خلاف الظاهر ·

وانت تشاهد :

( أ ) أن السيد رشيد يسير على نهج امامه فى الوقوف عند لفظ الآية وعدم الزيادة فى تفصيلات يتوقف التصديق بها على نقل يحتج به ·

(ب) وانه مع ذلك خبير بما يتعلق بموضوع الآية من آيات مماثلة أو روايات فى الحديث أو كلام فى الكتب المقدسة وهو يروى ويقارن ويمحص وينقد ·

( جـ ) ومع كونه صرح أن الآية الأخيرة تؤذن بوقوع الخلق من الطين الا انه دقيق فى التعبير لأنه صرح سابقا : انه ليس عندنا نقل صحيح بوقوع خلق الطير يؤكد ماتؤذن به الآية ·

وينقله الى درجة الحصول بالفعل ·

( د ) وهو يرفض كلام ابن اسحق ويراه غريبا لأنه يحول المعجزة الى العوبة يتظاهر بها عيسى امام الصبيان ·

٥ ـ وأحيانا يعرض صاحب المنار افكار الامام فيبسطها ويوضحها توضيحا كاملا حتى يهيأ لك انه صاحب الفكرة والتوضيح، ولعل ذلك هو سبب اتهام بعض العلماء للسيد رشيد فيما نسبه من آراء للامام وقولهم انه افترى على الامام مالم يقله ·

مع أن صاحب المنار رجل ثقة فى الحديث ، معروف بالصدق وهو لم يوافق الامام فى كل ما حكاه عنه · بل كان يرد رأى الامام اذا رأى أنه مجانب للصواب · وقد مرت بنا قصة آدم عليه السلام · وذكر الامام هناك أنها اشارة الى الأطوار الفطرية الثلاثة للبشر وهى طور الطفولية وطور التمييز الناقص وطور الرشد والاستواء · قال الأستاذ الامام : كان تدرج الانسان فى حياته الاجتماعية ابتدأ ساذجا سليم الفطرة قويم الوجهة مقتصرا فى طلب حاجاته على القصد والعدل ، متعاونا علم دفع ما عساه يصيبه من مزعجات الكون وهذا هو العصر الذى يذكره جميع طوائف البشر ويسمونه بالذهبى · ثم لم يكفه هذا النعيم المرفه فمد بعض أفراده أيديهم الى تناول ما ليس لهم ، طاعة للشهوة ، وميلا مع خيال اللذة ، وتنبه من ذلك ما كان نائما فى نفوس سائرهم فثار النزاع وعظم الخلاف واستنزل الشقاء وهذا هو الطور الثانى وهو معروف فى تاريخ الأمم · ثم جاء الطور الثالث وهو طور العقل والتدبر ووزن الخير والشر بميزان النظر والفكر ، وتحديد حدود للأعمال تنتهى اليها نزعات الشهوات ، ويقف عندها سير الرغبات وهو طور التوبة والهداية ان شاء الله ·

ولكن السيد رشيد لا يقبل هذا الكلام على علاته فيقول : « ان توبة آدم عليه السلام بناء على تفسير القصة بحمل الكلام على

الحقيقة قد كانت بالرجوع الى الله واعترافه مع حواء بظلمهما لأنفسهما وطلبهما المغفرة والرحمة منه تعالى ، لا بمجرد تدبير العقل ووزن الخير والشر بميزان الفكر الخ ما قاله شيخنا هنا تبعا لبعض علماء الاجتماع من المؤرخين • وهو قد بين فى بحث الحاجة الى الرسالة من رسالة التوحيد ان عقل البشر لا يستقل بوضع حدود للأعمال تنتهى اليها نزعات الشهوات ، ويقف عندها سير الأهواء والرغبات ، بل لابد له من تشريع الهى لذلك • ولكنه أوجز هنا فترك المسألة مبهمة مظلمة ، واننا نرى ان طور العقل والفكر قد بلغ فى هذه العصور مرتقى لم يعرف فى التاريخ ما يقربه ووضع علماؤه وحكماؤه شرائع وقوانين لايقاف التنازع والتخاصم عند حد لايتفاقم شره ، ثم نرى أعلم هذه الأمم ودولها مبعث الشرور والشقاوة ، والخبث والرياء والحروب والفتن ، فلا هداية الا هداية الدين الالهى الذى تذعن له الأنفس بمحض العبودية لله تعالى(١) •

ان السيد رشيد رضا راو أمين ، روى أفكار الامام وشرحها وبسطها ومدح الصواب منها وأطراه ونبه على الخطأ • ومن يدرى ماذا كان يصبح مصير آراء الامام فى التفسير لو لم ينقلها لنا السيد رشيد •

لقد ضاعت مذاهب ائمة اعلام لأن تلاميذهم لم يقوموا بنشرها •

بينما انتشرت مذاهب ائمة أقل منهم حين عينت لها وسائل النشر • وقد وقف الامام الشافعى على قبر الامام الليث بن سعد فقال : الليث افقه من مالك غير أن أصحابه لم يقوموا به ، وقال

(١) تفسير المنار جـ١ ص ٢٨٤ •

الشافعي أيضا : مالك شيخي والليث أفقه من مالك غير أن أصحابه ضيعوه ·

وقديما قال النقاد ، ان المعاني والأفكار عامة وشائعة وقد يعبر الشاعر او الكاتب عن المعنى فينسب اليه ويصبح ملكا له · فقيام الأمم على الأخلاق فكرة قديمة ، ولكن شوقي حين عبر عنها أصبحت كأنها ملك له ونسبت اليه لبيته المشهور :

**وانمــا الأمم الأخــلاق ما بقيت    فان هموا ذهبت اخلاقهم ذهبوا**

ان واجبنا أن نقابل جهود السيد رشيد في نشر افكار الامــام بالشكر والوفاء والاعتراف بالفضل لأهله ، لا بالكنود والجحود ·

٦ ــ وقد كان السيد رشيد رضا محدثا وفقيها ·

وقد اشتهر اناس بالحديث ولا فقه لهم · واشتهر قوم بالفقه وكانوا ضعافا في الحديث ·

أما السيد رشيد فقد جمع بين الحسنيين ، فكــان حجــة في الحديث وكان فذا جديدا في بحوثه الفقهية وفتاويه التي رد بهــا على اسئلة وجهت اليه في المنار .

وهو لذلك ربما رد تفسير المفسرين للآية لأن ظواهر الأحاديث الواردة في الموضوع تأباه · ثم لايلبث أن يلتمس للمفسرين مخرجا مما وقعوا فيه ·

في تفســير قوله تعــالي : (( **اذ قال الله ياعيسى انى متوفيك ورافعك الى ومطهرك من الذين كفروا** )) · قال السيد رشــيد ·· فالمتبادر من الآية انى مميتك وجاعلك بعد الموت في مكان رفيــــع عندي ، كما قال تعالى في ادريس عليه السلام ١٩ : ٥٢ (( **ورفعنـاه مكانا عليا** )) والله تعالى يضيف اليه ما يكون فيه الأبرار من عــالم

الغيب قبل البعث وبعده كما قال فى الشهداء ٣ : ١٦٩ (( **احياء عند ربهم** » وقال ٥٤ : ٥٤ (( **أن المتقين فى جنات ونهر فى مقعد صدق عند مليك مقتدر** )) وإما تطهره من الذين كفروا فهو انجاؤه مما كانوا يرمونه به أو يرومونه منه ويريدونه به من الشر ٠

هذا ما يفهمه القارىء الخالى الذهن من الروايات والأقوال ، لأنه هو المتبادر من العبارة ٠ وقد أيدناه بالشواهد من الآيـــات ، ولكن المفسرين قد حولوا الكلام عن ظاهره لينطبق على ما اعطتهم الروايات من كون عيسى رفع الى السماء بجسده ، وهاك ما قاله الأستاذ الامام فى ذلك ٠

« يقول بعض المفسرين «انى متوفيك» أى منومك ، وبعضهم : انى قابضك من الأرض بروحك وجسدك « ورافعك الى » بيان لهذا التوفى ، وبعضهم : انى أنجيك من هؤلاء المعتدين فلا يتمكنون من قتلك وأميتك حتف انفك ثم أرفعك الى ، ونســـب هذا القــول الى الجمهور ، وقال : للعلماء ههنا طريقتان ، احداهما وهى المشهورة أنه رفع حيا بجسده وروحه ٠ وأنه سينزل فى آخر الزمان فيحكـم بين الناس بشريعتنا ثم يتوفاه الله تعالى ٠ ولهم فى حياته الثانيــة على الأرض كلام طويل معروف ٠

وأجاب هؤلاء عما يرد عليهم من مخالفة القرآن فى تقديم الرفع فى التوفى بأن الواو لاتفيد ترتيبا أقوال : وفاتهم أن مخالفة الترتيب فى الذكر للترتيب فى الوجود لا يأتى فى الكـلام البليغ الا لنكتـة ولا نكتة ، هنا لتقديم التوفى على الرفع اذ الرفع هو الأهم لـما فيه من البشارة بالنجاة ورفعة المكانة ٠

قال : والطريقة الثانية أن الآية على ظاهرها وان التوفى على الظاهر المتبادر وهو الاماتة العادية ، وأن الرفع يكون بعده وهو

رفع الروح ، ولا بدع فى اطلاق الخطاب على شخص وارادة روحه ، فان الروح هى حقيقة الانسان والجسد كالثوب المستعار ، فانه يزيد وينقص ويتغير والانسان انسان لأن روحه هـى هـى ٠ قال : « ولصاحب هذه الطريقة فى حديث الرفع والنزول فى آخر الزمان تخريجان أحدهما انه حديث آحاد متعلق بأمر اعتقادى لأنـه من أمور الغيب ، والأمور الاعتقادية لايؤخـذ فيهـا الا بالقطعى لأن المطلوب فيها هو اليقين ، وليس فى الباب حديث متواتر ٠

وثانيهما تأويل نزوله وحكمه في الأرض بغلبة روحه وسـر رسالته على الناس وهو ما غلب في تعليمه من الأمر بالرحمة والمحبة والسلم والأخذ بمقاصد الشريعة دون الوقـوف عند ظواهـرها والتمسك بقشورها دون لبابها ، وهو حكمتها وماشرعت لأجله ٠

فالمسيح عليه السلام لم يـأت لليهود بشـريعة جديدة ولكنه جاءهم بما يزحزحهم عن الجمود على ظواهر الفاظ شريعة موسى عليه السلام ويوقفهم على فقهها والمراد منها ٠ ويأمرهم بمراعاته وبما يجذبهم الى عالم الأرواح بتحرى كمال الآداب ، أى ولما كان أصحاب الشريعة الأخيرة قد جمدوا على ظواهر الفاظها بل والفاظ من كتب فيها معبرا عن رأيه وفهمه ، وكان ذلك مزهقا لروحها ذاهبا بحكمتها كان لابد من اصلاح عيسوى يبين لهم أسرار الشريعـة وروح الدين وأدبه الحقيقى ٠ وكل ذلك مطوى فى القـرآن الذى حجبوا عنه بالتقليد الذى هو آفة الحق وعد والدين فى كل زمان ٠ فزمان عيسى على هذا التأويل هو الزمان الذى يأخذ الناس فيـه بروح الدين والشريعة الاسلامية لاصلاح السرائـر من غير تقييد بالرسوم والظواهر ٠

هذا ماقاله الأستاذ الامام فى الدرس مع بسط وايضـاح ، ولكن ظواهر الأحاديث الواردة في تلك تاباه ، ولأهل هذا التاويل أن

يقولوا : ان هذه الاحاديث قد نقلت بالمعنى كأكثر الاحاديث ، والناقل المعنى ينقل ما فهمه · وسئل عن المسيح الدجال وقتل عيسى لـــه فقال : ان الدجال رمز للخرافات والدجل والقبائح التى تزول بتقرير الشريعة على وجهها والأخذ بأسرارها وحكمها · وان القرآن أعظم هاد الى هذه الحكم والأسرار وسنة الرسول عليه الصلاة والسلام مبينة لذلك فلا حاجة للبشر الى اصلاح وراء الرجوع الى ذلك(١) » ·

وترى من هذا النقل أن الشيخ رشيد منظم فى ســرده لآراء السابقين ، ومحقق حين يرد على بعضها أو يعرضها بما هو اقوى منها · وفقيه فى فهمه لأسرار الشريعة وروح الدين وكلياته ، فلله دره عالما ·

وعند تفسير الامام لقوله تعالى : « **وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر** » قال : اى ويباح لكم الأكل والشرب كالمباشرة عامة الليل حتى يتبين لكـــم بياض الفجر ، فمتى تبين وجب الصيام · وما أحســـن التعبير عن أول طلوع الفجر بالخيطين · والخيط الأبيض هو أول ما يبدو من الفجر الصادق ، فمتى اسفر لا يظهر وجه لتسميته خيطا ، فما ذهب اليه بعض السلف كالأعمش من أن ابتداء الصوم من وقت الاسفار تنافيه عبارة القرآن : وعلق السيد رشيد بقوله : هذا ما كتبه أولا وهو غير دقيق وسأفصله فى الاستدراك والايضاح الذى تراه بعد تمام تفسير الآية · ثم استدرك عليه ببحث عنوانه ( مسألة بدء الصيام وهل هو طلوع الفجر أم تبين بياض النهار للناس (٢) ·

---

(١) تفسير المنار جـ٢ ص ٣١٦ وما بعدها ·

(٢) انظر تفسير المنار جـ١ ص ١٧٨ ، ١٨٠ ·

الخاصة الثانية :

# تأثر صاحب المنار بابن كثير

كان الحافظ ابن كثير حجة فى الحديث والتفسير . وقد طبع صاحب المنار تفسير ابن كثير ونشره فى البلاد العربية والاسلامية(١) ، وتفسير ابن كثير تفسير سنى سلفى ( وهو من افيد كتب التفسير بالرواية يفسر القرآن بالقرآن ثم بالأحاديث المشهورة فى دواوين المحدثين بأسانيدها ، ويتكلم على أسانيدها جرحا وتعديلا ، فيبين ما فيها من غرابة أو نكارة أو شذوذ غالبا ، ثم يذكر آثار الصحابة والتابعين(٢) قال السيوطى فيه : « لم يؤلف على نمطه مثله » .

وقد قرأ ابن كثير على شيخ الاسلام تقى الدين ابن تيمية المتوفى سنة ٧٢٨ هـ كثيرا ولازمه واحبه وانتفع بعلومه(٣) ، واشتهر ابن كثير بالضبط والتحرير وانتهت اليه رياسة العلم فى التاريخ

---

(١) رشيد رضا او اخاء اربعين سنة : شكيب ارسلان القاهرة ١٩٣٧ .

(٢) الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث : تأليف أحمد محمد شاكر ص ١٦ .

(٣) نفس المرجع السابق .

والحديث والتفسير وكان أحفظ أقرانه لمتون الأحاديث وأعرفهم بجرحها ورجالها وصحيحها وسقيمها وكان اقرانه وشيوخه يشهدون له بذلك ٠

وقال المؤرخ الشهير ابن تغرى بردى : « الشيخ الامام العلامة عماد الدين ابو الفداء ٠٠ لازم الاشتغال ، ودأب وحصل وكتب ، وبرع فى الفقه والتفسير والحديث وجمع وصنف ، ودرس وحدث وألف ، وكان له اطلاع عظيم فى الحديث والتفسير والفقه والعربية وغير ذلك ، وأفتى ودرس الى أن توفى » ٠

١ ـ وقلما تمر آية فى تفسير ابن كثير الا ويروى ما يتعلق بها او يناسبها من احاديث ثم يخرج هذه الأحاديث ويبين درجتها ثم يشرح الآية شرحا مبسطا معقولا ٠ ويطيل فى آيات لها مناسبات خاصة مثل آية الكرسى ليذكر ما ورد فى فضلها ٠ والآراء المأثورة فى تفسيرها ٠

٢ ـ واذا كانت هناك احاديث مأثورة يخالف ظاهرها مضمون الآية فانه يورد هذه الأحاديث ويوفق بينها وبين الآية ٠

فعند تفسيره لقوله تعالى : (( **تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات** )) يفسر الآية ثم يروى حديث الصحيحين فى ذلك وهو : « اختصم رجلان : رجل من المسلمين ورجل من اليهود ، فقال المسلم والذى فضل محمدا على العالمين ٠ فقال اليهودى والذى فضل موسى على العالمين ٠ فلطم المسلم اليهودى فاشتكى اليهودى للنبى ( صلى الله عليه وسلم ) فقال صلى الله عليه وسلم لأصحابه : لاتفضلونى على موسى

ولاتفضلونى على الأنبياء فان الناس يصعقون يوم القايمة فأصعق معهم فأكون أول من يفيق ، فاذا موسى باطش بساق العرش فلا أدرى أكان ممن صعق فأفاق قبلى أو كان ممن استثنى الله » ٠

فالآية صريحة فى تفضيل بعض الرسل على بعض والحديث ينهى عن تفضيله ( صلى الله عليه وسلم ) على موسى أو على الأنبياء ٠ ولكن ابن كثير يدفع هذا الاشكال فيقول « ان تخريجه من خمسة وجوه ٠ ثم يروى هذه الوجوه »(١) ٠

٣ ــ وكان ابن كثير خبيرا بالتاريخ وله فيه كتاب يسمى « البداية والنهاية » ذكر فيه قصص الأنبياء والأمم الماضية على ماجاء فى القرآن الكريم والأخبار الصحيحة ، وبين الغرائب والمناكير والاسرائيليات(٢) ، ثم يحقق السيرة النبوية والتاريخ الاسلامى الى زمنه ، ثم ينقل الفتن واشراط الساعة والملاحم واحوال الآخرة ٠

ولذلك تراه يذكر ما يتعلق بالآية من احداث تاريخية كما فى تفسير قوله تعالى : « **هو الذى انزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن ام الكتاب واخر متشابهات فاما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تاويله وما يعلم تاويله الا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر الا اولو الألباب** »(٣) ٠

---

(١) تفسير ابن كثير جـ١ ص ٣٠٤ ٠

(٢) ص ١٦ الباعث شرح اختصار علوم الحديث للحافظ ابن كثير ( ٧٠١ ــ ٧٧٤ هـ ) ٠

(٣) آل عمران ، آية ٧ ٠

يروى ابن كثير عن مسند الامام أحمد ان رسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) قال : اذا رأيتم الذين يجادلون فى آيات الله فهم الذين عناهم الله فاحذروهم .

وعن النبى ( صلى الله عليه وسلم ) هـم الخوارج .. أول ما ظهر منهم عند تقسيمه ( صلى الله عليه وسلم ) غنائم حنين فقال له أحدهم(١) اعدل . فقال ( صلى الله عليه وسلم ) لقد خبت وخسرت ان لم أكن أعدل أيأمننى على أهل الأرض ولا تأمنون ؟ . فقال عمر أو خالد دعنى أضرب عنقه ، فقال عليه السلام : دعه فانه يخرج من ضئضىء هذا أى من جنسه قوم يحقر احدكم صلاته الى صلاتهم وقراءاته الى قراءتهم يخرجون من الدين كما يخرج السهم من الرمية فأينما لقيتموهم فاقتلوهم فان فى قتلهم أجرا لمن قتلهم » .

ثم كان ظهورهم أيام على بن ابى طالب ( رضى الله عنه ) وقتلهم بالنهروان ثم تشعبت منهم شعوب وقبائل وآراء وأهواء ومقالات ونحل كثيرة منتشرة ثم انبعث القدرية ثم المعتزلة ثم الجهمية وغير ذلك من البدع التى أخبر عنها الصادق ( صلى الله عليه وسلم ) فى قوله : « ستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها فى النار الا واحدة قالوا وما هم يا رسول الله ؟ قال من كان على ما أنا عليه واصحابى » أخرجه الحاكم فى مستدركه .

فابن كثير يهتم بتاريخ نزول الآية وما يدور حولها من أحاديث نبوية شريفة . وما يتعلق بها من اسئلة وجهت لرسول الله ( صلى الله عليه وسلم ) عنها أو حوادث تاريخية توضح تأويلها قبل نزول الوحى أو عنده أو بعده فى العصور التالية لنزول الرسالة .

---

(١) هو ابو الخويصرة بقر الله خاصرته .

٤ ـ ولم يكن ابن كثير مفسرا ومحدثا فحسب بل كان فقيها أيضا ولذلك كان يورد آراء الفقهاء عند تفسيره لآيات الأحكام مثل قوله تعالى : **((الطلاق مرتان فامساك بمعروف أو تسريح باحسان))** فنراه يفصل التفريعات الفقهية فى مسائل الطلاق والخلع ويورد الأحاديث النبوية المتعلقة بأحكامها بكثرة كثيرة .

والخلاصة :

١ ـ أن تفسير ابن كثير تفسير مهتم بالرواية(١) .

٢ ـ ويحاول أن يوفق بين الآية وما أثر من أحاديث تخالفها فى الظاهر .

٣ ـ وهو مؤرخ يذكر ما يتعلق بالآية من تاريخ سابق أو لاحق .

٤ ـ وهو مهتم بايراد التفريعات الفقهية عند تفسيره لآيات الأحكام .

وقد طبع صاحب المنار تفسير ابن كثير وتأثر به فى هذه الأشياء وان تميز مع هذا بطابعه وسننقل اك الشواهد على ذلك من تفسير المنار .

١ ـ صاحب المنار مهتم برواية الأحاديث التى تتعلق بالآية :

لقد كان صاحب المنار حجة فى الحديث . كما كان ابن كثير من رجال الحديث وتشاهد العناية برواية الحديث وتخريجه ظاهره فى تفسير المنار . فمثلا عند تفسير قوله تعالى : **(( لن تنالوا البر**

---

(١) يقول ابن كثير فى مقدمة تفسيره « ان خير ما فسر القرآن القرآن ثم السنة ثم قول الصحابة ثم اقوال التابعين اذا كانت متفقة فان اختلفوا فليس احدهم حجة على الآخر .

**حتى تنفقوا مما تحبون »** أورد السيد رشيد رضا الكثير من الأحاديث والآثار والأخبار المتعلقة بهذه الآية مقتفيا فى ذلك أثر ابن كثير ·

٢ ـ وصاحب المنار مهتم بالتوفيق بين الآيـــة وما أثر من أحاديث تخالف الآية فى الظاهر مثل ابن كثير ·

وقد مر بنا ذلك عند تفسيره لقوله تعالى : **« اذ قال الله ياعيسى انى متوفيك ورافعك الى ومطهرك من الذين كفروا »** · فقد فسر الآية ثم حكى ما قاله الامام وما نقله عن المفسرين ثم علق قائلا : « هذا ما قاله الأستاذ الامام فى الدرس مع بسط وايضاح ولكن ظواهـر الأحاديث تاباه ، ولأهل هذا التاويل أن يقولوا : ان هذه الأحاديث قد نقلت بالمعنى كأكثر الأحاديث والناقل للمعنى ينقل مافهمه(١) ·

٣ ـ وصاحب المنار محقق لحوادث التاريخ التى تتعلق بالآية كابن كثير ·

(أ) فعند تفسيره لقصة نوح(٢) عليه السلام علق على تفسيره لها بعلاوات أربع ، العلاوة الثانية منها كانت عن حادثة الطوفان فى القرآن والتوراة والتاريخ القديم ·

ثم حقق أخبار الطوفان فى الأمم القديمة ونقدها ومحصها ·

واتبع حديثه عن الطوفان بقوله : « وهذه المسائل التاريخية ليست من مقاصد القرآن ولذلك لم يبينها بنص قطعى ، فنحن نقول بما تقدم انه ظاهر النصوص ولا نتخذه عقيدة دينية قطعيـــة ، فان

---

(١) جـ٣ ص ٣١٦ تفسير المنار ، وانظر جـ٢ ص ١٥٢ من تفسير المنـار تجده يوفق بين قوله تعالى ( وان تصوموا خير لكم ) وقوله ( صلى الله عليه وسلم ) ليس من البر الصيام فى السفر ·

(٢) جـ١٢ ص ١٠٥ تفسير المنار ·

اثبت علم الجيولوجية خلافه لايضرنا ، لأنه لا ينقض نصـــا قطعيا عندنا »(١) .

(ب) ونقل صاحب المنار عن الزمخشرى رواية تثبت أن الذبيح اسحق ، ثم نقد هذه الرواية وزيفها من الناحية التاريخية :

قال الزمخشرى : روى أن اخوة يوسف لما دخلوا عليه أدوا اليه كتاب يعقوب : « من يعقوب اسرائيل الله بن اسحاق ذبيح الله ابن ابراهيم خليل الله الى عزيز مصر . اما بعد فانا اهـــل بيت موكل بنا البلاء ، أما جدى فشدت يداه ورجلاه ورمى به فى النار ليحرق فنجاه الله وجعلت النار عليه بردا وسلاما ، وأما أبى فوضع السكين على قفاه ليقتل ففداه الله ، وأما انا فكان لى ابن وكان أحب أولادى الى فذهب به اخوته الى البرية ثم أتونى بقميصه ملطخـا بالدم وقالوا قد أكله الذئب فذهبت عيناى من بكائى عليه ثم كان لى ابن وكان أخاه من أمه وكنت أتسلى به فذهبوا به ثم رجعوا وقالوا انه سرق وانك حسبته لذلك ، وانا أهل بيت لا نسرق ولا نلد سارقا فان رددته على والا دعوت عليك دعوه تدرك السابع من ولـــدك والسلام » . فلما قرأ يوسف الكتاب لم يتمالك وعيل صبره وكتب الجواب : اصـــبر كما صـــبروا ، تظفر كما ظفروا . انتهى قول الزمخشرى واقره ابن المنير وغيره عليه بل أتبعوه فيه .

واقول ان الرواية التى ذكرها فى كتاب يعقوب ( ع.م ) الى عزيز مصر من الاسرائيليات الباطلة وأسلوبه اسلامى مصنوع . ومن أغراض كعب الأحبار ووهب بن منبه المروى عنه فيه اقنـاع المسلمين بأن الذبيح اسحق لا اسماعيل خلافا للمتواتر عند العـرب الذى أقره الاسلام وجعلت الأضاحى وهى سنة ابراهيم فى فداء ولده

---

(١) تفسير المنار جـ١٢ ص ١٠٥ ، ١٠٩ .

اسماعيل من مناسك الحج حيث فداه الله فى منى من ضواحى مكة وطن اسماعيل ، فبث زنادقة اليهود فى التفسير المأثور أن الذبيح اسحاق وقد صار هذا مذهبا يؤخذ بالتقليد ويحرف لأجله تفسير القرآن ، فان القصة فى سورة الصافات صريحة فى أن الذبيح هو ولد ابراهيم الأول ( اسماعيل ) وأن الله قد بشره على احسانه فيها بولده الثانى ( اسحاق ) اذ قال فى آخرها ٢٢ : ١٠٦ (( **ان هذا لهو البلاء المبين** )) ١٠٧ وفديناه بذبح عظيم ــ الى قوله ــ ١١٢ (( **وبشرناه باسحق نبيا من الصالحين** ))(١) ٠

( حـ ) واحيانا يفسر صاحب المنار الآية ثم ينقل التفاسير السابقة لها فى تسلسل تاريخى ٠ قال فى تفسير قوله تعالى : (( **ولا تركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار** )) ٠

اى ولا تستندوا الى الذين ظلموا من قومكم المشركين ولا من غيرهم فتجعلوهم ركنا لكم تعتمدون عليهم فتقرونهم على ظلمهم ، وتوالونهم فى سياستكم الحربية وأعمالكم المالية فان الظالمين بعضهم أولياء بعض ٠

ثم ينكر تحقيقا لغويا عن الركون ٠ ومنه يظهر سعة باعه ودقة فهمه ، وحسن ذوقه فى تحريره للمعانى اللغوية ثم يعلق على التفسير قائلا :

« نموذج من قصور أقوال المفسرين وغلطهم فى تفسير الآية » : الرواية المأثورة والمعتمدون عليها :

١ ــ روى الامام ابن جرير المتوفى سنة ٣١٠ عن ابن عباس

---

(١) تفسير سورة يوسف للسيد رشيد رضا : بقلم محمد بهجت البيطار ص ١١ ٠ وقارن ذلك بما ورد فى كتاب مذاهب التفسير الاسلامى ترجمة دكتور عبد الحليم النجار ص ١٠٠ ٠

( رضى الله عنه ) . أنه فسر الآية بالركون الى الشرك ( وهو أقوى ماروى فيها ) .

٢ ـ وقال أبو بكر الجصاص الحنفى المتوفى سنة ٣٧٠ فى تفسيره ( أحكام القرآن ) .

٣ ـ وقال الزمخشرى المعتزلى المتوفى سنة ٥٢٨ فى كشافه بعد نكر القراءات فى الآية .

٤ ـ وقال القاضى أبو بكر العربى المالكى المتوف سنة ٥٤٣ فى أحكام القرآن : وتبعه القرطبى المتوفى سنة ٦٧١ فى تفسيره جامع أحكام القرآن فنقل كلامه بدون عزو اليه ولم يزد عليه .

٥ ـ وقال أبو على الفضل بن الحسن الطوسى الشيعى المتوفى سنة ٥٦١ هـ فى تفسيره مجمع البيان .

٦ ـ وقال فخر الدين الرازى الشافعى المتوفى ٦٠٦ هـ فى تفسيره الكبير مفاتيح الغيب ..

٧ ـ وقال القاضى ناصر الدين عبد الله عمر البيضاوى الشافعى المتوفى سنة ٦٨٥ هـ ..

٨ ـ وقال عبد الله بن أحمد النسفى الحنفى المتوفى سنة ٧٠١ فى تفسيره مدارك التنزيل ..

٩ ـ وقال أبو السعود شيخ الاسلام مفتى دولة الروم العثمانية المتوفى سنة ٩٧٣ فى كتابه ارشاد العقل السليم .

١٠ ـ وقال السيد محمود الآلوسى مفتى الحنفية فى بغداد ( بعد أن كان شافعيا ) فى تفسيره روح المعانى ..

١١ ـ واختتم هذه النقول بما أورده السيد محمد صديق حسن خان نائب ملك بهوبال ( الهند ) المتوف سنة ١٣٠٧ فى تفسيره

« فتح البيان فى مقاصد القرآن الذى أودعه تفسير أستاذه القاضى الشوكانى المسمى ( بفتح القدير ) ٠

« وقد اختلفت أيضا الأئمة من المفسرين فى هذه الآية هـــل هى خاصة بالمشركين أو عامة ؟ فقيل خاصة ، وان معنى الآية النهى عن الركون الى المشركين وانهم المرادون بالذين ظلموا ، وقد روى ذلك عن ابن عباس ، وقيل انها عامة فى الظلمة من غير فرق بيـن كافر ومسلم وهذا هو الظاهر من الآية ، ولو فرضنا أن سبب النزول هم المشركون لكان الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ٠

وقد اكتفيت بذكر المفسرين ولم انكر آراءهم فى تفسير الآية لأن مرادى بيان عناية صاحب المنار بالتسلسل التاريخى لتفســـير الآية ، وملاحظاته على تطور التفسير بتطور الزمن ٠

٤ ــ وصاحب المنار مهتم بالبحوث الفقهية التى تتعلق بآيات الأحكام كابن كثير ويمتاز عنه بالتوسع والتنظيم ٠

( أ ) فبعد ان فسر قوله تعالى : (( يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ولا جنبا الا عابرى سبيل حتى تغتسلوا وان كنتم مرضى او على سفر او جاء احد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا فامســحوا بوجوهــكم وايديــكم ان الله كــان عفــوا غفــورا )) النساء ٤٣ ٠

قال واننا نختم تفسير الآية بمسائل فى أحكام التيمم(١) لابد منها وذكر عشر مسائل :

المسالة الأولى : معنى التيمم اللغوى والشرعى ٠

المسالة الثانية : محل التيمم ٠

---

(١) تفسير المنار جـ٥ ص ١٢٣ ــ ١٣٥ ٠

المسألة الثالثة : التيمم ضربة واحدة ولا ترتيب فيه ٠

المسألة الرابعة : ما هو الصعيد ؟

المسألة الخامسة : التيمم من الحدثين لفاقد الماء المسافر والمقيم فيه سواء ٠

المسألة السادسة : في كون المتيمم لا يعيد الصلاة اذا وجد الماء ٠

المسألة السابعة : الرواية فى تيمم المسافر مع وجود الماء ٠

المسألة الثامنة : التيمم من الجراح والبرد ٠

المسألة التاسعة : التيمم كالوضوء في الوقت وقبله وفى استباحة عدة صلوات به ٠

المسألة العاشرة : فى حكمة التيمم ٠

(ب) ولصاحب المنار أبحاث متعددة فى العبادات واصول الفقه(١) ٠

ويمتاز فى بحوثه الفقهية بالتجديد والبعد عن التقليد ، وترجيح ما يناسب مصالح الناس وتجنب الحيل والتعصب ٠ « وكان صاحب المنار يعقد فى كل عدد من المنار بابا للمراسلات ( الأسئلة والأجوبة الدينية ) ينشر فيه مسائل واردة من كل جوانب العالم الاسلامى مع الجواب عليها ، ليثبت نظرياته فى ضوء

---

(١) انظر تفسير المنار جـ٥ من ص ١٦٨ ـ ٢٢٢ تجد بحثا فى اصول التشريع : الكتاب والسنة والاجماع والقياس والمصالح المرسلة ٠ وفى ص ١٥٤ ـ ١٦٨ جـ٦ تجد بحثا فى منزلة السنة من الكتاب ٠ وانظر ص ٢٠٠ جـ٤ ٠

الأحوال الواقعية الجارية . والظاهر أن جانبا كبيرا من هذه الأسئلة مصنوع ، حصل اعداده على حسب الأجوبة المقصود بيانها .

وهذا فن من فنون التحرير في كل مكان ، اصطنعه لنفسه أيضا رئيس التحرير السوري المصري . ولست مجانبا للصواب اذا قررت أن السؤال التالي مع جوابه قد أعدا على عمد لابراز القصور في حالات الفقه ومسائله في ضوء مثال لافت للنظر :

ذكرت المجلة أن سيدا من تونس وجه السؤال التالي الى محرر المنار :

« عندنا ماجل(١) في دارنا يجتمع فيه المطر من السطوح فنستعمله في العادة والعبادة . وقد وقع فيه فرخ حمام ميت وكان الوقت صيفا والماء فيه قليلا . فتغير لونه وريحه وتعذر علينا اخراج الفرخ منه فتركنا استعماله حتى جاء الشتاء وامتلأ الماجل بالماء وزال التغير من لونه ورائحته وعاد زلالا نقيا ، فسألنا سادتنا الحنفية عنه ، فقالوا : لابد من نزح ماء الماجل كله . وسألنا سادتنا المالكية ، فقالوا لابد من اخراج الطير أو ما بقي منه في الماء ليجوز استعماله في العادة والعبادة . وفي ذلك مشقة علينا كبيرة ونحن مضطرون لاستعمال هذا الماء . وقد قصدنا مذهب سادتنا الشافعية لعلنا نجد فيه رحمة فأفيدونا رحمكم الله .

ولكن شيخنا الذي يعالج مع ذلك السؤال برمته ، في أسلوب قوي التندر ، يستطيع أن يأتي بحل مطمئن على مذهب الشافعية :

« مذهب الشافعية أن الماء اذا بلغ قلتين لا ينجس الا بتغير طعمه أو لونه أو ريحه من النجاسة . فلو كان الماء متنجسا لوقوع

---

(١) الماجل في اللغة كل ماء في اصل جبل او دار ولعل اهل تونس يطلقونه على الصهريج .

نجاسة فيه وهو قليل ثم زاد حتى بلغ قلتين يطهر ، ولو كان المتجدد متنجسا ايضا ، بل ولو كان مائعا نجس العين ، والقلتان ستمائة رطل بالبغـدادى وتبلغ بالمساحـة نحو ذراع وربع طولا وعرضا وعمقا .

ولاشك أن ما جلكم أوسع من ذلك ، فهو طاهر حتما . هذا وان الله تعالى أمرنا بازالة النجاسة ليطهرنا لا ليعنتنا وهو يريد بنا اليسر لا يريد بنا العسر ، وما جعل علينا فى الدين من حرج . والنجاسة التى نهينا عنها هى القاذورات التى تنفر منها الطبـاع السليمة فهل يعقل أن ماجلا عظيما وحوضا كبيرا فيه ماء صاف نقى لا تغير فيه يحكم عليه بالنجاسة لتدقيق بعض الفقهاء فى الحدود التى وضعوها للاصطلاحات الشرعية ، ويلزم لهذا التدقيق اعنات أهل بيت من المسلمين وايقاعهم فى الحرج والعسر اللذين نفاهمـا الله تعالى(١) » .

( حـ ) ويمتاز صاحب المنار فى بحوثه الفقهية ببيان أسـرار العبادات وحكمتها وفوائدها . على نمط ماصنع الغزالى فى كتابه احياء علوم الدين . فقد تحدث صاحب المنار عن الصيام عند تفسيره لقوله تعالى : « **يأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون** »(٢) .

واستغرق تفسير آيات الصيام خمسين صحيفة(٣) ، ويضع صاحب المنار فى أعلى الصحيفة عنوانا لما يبحث فيها مثل :

---

(١) مذاهب التفسير الاسلامى ـ د. عبد الحليم النجار ص ٣٦١ .
(٢) البقرة آية ١٨٤ .
(٣) تفسير المنار جـ٢ من ص ١٤٣ الى ١٩٤ .

١ ـ فوائد الصيام الدينية والاجتماعية والصحية ٠

٢ ـ صيام المريض والمسافر ٠

٣ ـ روح الصيام وما تجب مراعاته والتنزه عنه فيه ٠

٤ ـ فرض الفدية على من يفطر للمشقة الدائمة ٠

٥ ـ التطوع فى الصيام وكون الصيام خيرا ، انزال القرآن فى رمضان ٠

٦ ـ مزية القرآن على سائر الكتب السماوية ٠

٧ ـ سلف المسلمين وخلفهم فى هداية القرآن ٠

٨ ـ بدء انزال القرآن فى ليلة القدر المباركة من رمضان ٠

٩ ـ التقدير للصلوات الخمس وصيام شهر فى جهتى القطبين ٠

١٠ ـ تعليل الرخصة فى الصيام بيسر الدين وعدم العسر فيه ٠

١١ ـ بلاغة القرآن وايجازه فى تعليل الاحكام ٠

١٢ ـ معنى قرب الله من عباده والمراد من اخبارهم به ٠

١٣ ـ معنى الأمر بالاستجابة لله وبالايمان به ٠

١٤ ـ حل الرفث الى النساء فى ليلة الصيام ٠

١٥ ـ معنى الرفث ونزاهة القرآن فى كناياته ٠

١٦ ـ الأمر بمباشرة النساء ليلة الصيام للاباحة ٠

١٧ ـ بدء نهار الصيام ونهايته والنهى عن مباشرة المعتكف ٠

١٨ ـ النهى عن قرب حدود الله وعن اعتدائها ٠

وفى نهاية تفسير آيات الصيام عقد فصولا لتحقيق شـــائك مسائله فقال « استدراك وايضاح لتفسير آيات الصيام ، وتحقيق الحق فيما اختلف فيه منها اجتهاد العلماء » ٠

١ ـ مسألة بدء الصيام وهل هو طلوع الفجر أم تبين بياض النهار ٠

٢ ـ ومسألة تعجيل الفطر وتأخير السحور وما بينه وبيـــن صلاة الفجر ٠

٣ ـ ومسألة تحديد مواقيت الصلاة والصيام والحج والعيدين فى الافطار والعمل بالحساب القطعى ٠

٤ ـ ٠٠ فصل فيما يفطر الصائم ومالا يفطره ٠

ملخص من رسـالة شيخ الاسـلام احمد تقى الدين بن تيمية نشرت فى المجلد ٣١ من المنار(١) ٠

ومن هذه العناوين يتبين لك عمق البحث وخصوبته وشمول اطرافه لجميع مسائل الموضـوع ٠ وتراه يورد آراء السـابقين عند تحقيقه لمسائل الخلاف حتى يهيأ لك انك تدرس الصيام فى أحد كتب الفقه أو الخلاف ٠ وان كان فى ذلك من عيب فهو الاطالة المملة التى تستهلك جهد القارىء ونشاطه ٠ ولذلك نصح صاحب المنـار قارئه « ان يقرأ الفصول الاستطرادية وحدها فى غير الوقت الذى يقـرأ فيه التفسير »(٢) ٠

---

(١) تفسير المنار جـ١ ص ١٨٨ ٠

(٢) تفسير المنار جـ١ ص ١٦ ٠

٥ ـ صاحب المنار متأثر بابن تيمية كما تأثر به ابن كثير ·

كان ابن كثير تلميذا لتقى الدين أحمد بن تيمية وقرأ عليه كثيرا ولازمه وأحبه وانتفع بعلومه(١) ·

وكان صاحب المنار من مدرسة ابن تمية التى دعت الى الاجتهاد · وحاربت التقليد والتعصب للمذاهب · ونقل السيد رشيد فى تفسير المنار فصولا كاملة وبحوثا مستوفاة من كتب ابن تيمية . وقال « ان كتب ابن تيمية وابن القيم أنفع كتب الكلام ، وان هذين الشيخين هما الجديران بلقب شيخ الاسلام »(٢) ·

وفى الصحيفة السابقة رأيت أنه نقل فصلا كاملا عنوانه « فصل فيما يفطر الصائم ومالا يفطره ، ملخص من رسالة شيخ الاسلام أحمد تقى الدين بن تيمية نشرت فى المجلد ٣١ من المنار »(٣) ·

وقد تأثر صاحب المنار أيضا بوارث ابن تيمية وراويته وتلميذه ابن القيم الجوزية . وساق نصوصا متفرقة من كتبه ، وأخرج فصولا مطولة من مؤلفاته لتأييد آرائه فى تفسير المنار ، فعند تفسيره لقوله تعالى : (( **ويوم يحشرهم جميعا يا معشر الجن قد استكثرتم من الانس وقال أولياؤهم من الانس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذى أجلت لنا قال النار مثواكم خالدين فيها الا ما شاء الله ان ربك حكيم عليم** ))(٤) ·

---

(١) الباعث الحديث شرح اختصار علوم الحديث ابن كثير ـ تأليف الاستاذ احمد محمد شاكر ص ١٦ ·

(٢) المنار جـ٦ ص ٨٩١ ·

(٣) تفسير المنار جـ٢ ص ١٨٨ ·

(٤) سورة الانعام آية ١٢٨ ·

حكى الروايات الواردة فى انتهاء عذاب النـار(١) . وقـال صاحب المنار : على هذه الروايات ، بنيت الأقوال فى أبدية النـار وعدم نهايتها وفى ضده .

تفصيل ابن القيم للمسالة :

وقد استوفى ذلك بالاسهاب المحقق ابن القيم فى كتابه حادى الأرواح .

ونقل عنه السيد رشيد رضا حجج القائلين بدوام النار وعدم نهايتها والرد عليهم . ثم نقل عنه فصلا طويلا عنوانه :

فصل(٢) : (( **ونحن نذكر الفرق بين دوام الجنة والنار شرعا وعقلا وذلك يظهر من وجوه** )) ونقل عنه خمسة وعشرين وجها فى الفرق بينهما .

وهذا الفصل نموذج لكثير من الفصول التى ينقلها صاحب المنار عن كتب ابن تيمية وابن القيم أو يحيل عليها(٣) ، وهو يحيل بوجه خاص وتاكيد ظاهر على كتاب اعلام الموقعين لابن القيـم الجوزية فى مسائل الاجتهاد والفصل فى المواريث التشريعية(٤) .

وعمد صاحب المنار الى اخراج الكثير من كتب ابن تيمية وابن القيم كدليل على أنه لم يرتجل نظرياته بالهوى والاختيار الذاتى . بل هى تقف مع هذه الحجج فى اتصال اسلامى شريف المقصد مطرد الحلقات بل اتصال مرتبط أيضا بالسلف من الحنبليين .

---

(١) مثل نقل الالوسى عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : يأتى على جهنم يوم ما فيها من ابن آدم احد تصفق ابوابها كانها ابواب الموحدين .

(٢) تفسير المنار جـ٨ من ص ٨١ الى ٩٩ .

(٣) تفسير المنار جـ ٨ ص ٢٥٦ .

(٤) المنـار جـ٦ ص ٨٩١ .

ولن يصعب حقا على من عرفوا تاريخ الأدب الدينى للاسلام أن يلاحظوا ان تأثير كتب ابن تيمية وتلميذه ابن القيم الجوزية ، ذلك التأثير الذى ابرز عمله الخفى حركة الوهابيين · يتجلى دون نكير أصلا فى وجهات النظر التى تقود حرب حزب المنار على الحالة العقدية السائدة وعلى الروح الدينية العامة المرتبطة بهذه الحالة · فان هنا كما هناك اطراحا لطبيعة التقيد بالمذاهب الأربعة ، والتقليد الذى يتطلبه ذلك ، وهنا كما هناك رجوع الى السنة والى السنة وحدها من حيث هى الميزان المعتمد فحسب فى تنظيم الحياة الدينية ، وهنا كما هناك حرب عنيفة على البدع جميعا ، وعلى الأخص لاستئصال تعظيم الأولياء والمخلفات وما يقترن بذلك من عادات خرافية ذميمة(١) ·

وقد كان السيد رشيد يطبع كتب ابن تيمية وابن القيم لحساب الملك سعود · وفى خطاب ارسله الى شكيب أرسلان ذكر فيه المصروفات المطلوبة منه · وختمه بقوله « وجملة القول ان كدين الواجب على اداؤه هذا العام لبنك مصر والبنك المرهونة له الدار تسعمائة جنيه مصرى · والايراد الرسمى الثابت المعد لذلك هو مطبوعات جلالة الملك وفى الحقيقة يجب علينا السعى لغيرها »(٢) ·

وأرى أن صاحب المنار كان يجامل ملك الحجاز حين يقول : « وذكر بعض الفقهاء أنه يجب هدم ما بنى من المساجد والقباب على قبور كثير من الائمة وآل البيت وأئمة الفقه وغيرهم من الصالحين ،

---

(١) مذاهب التفسير الاسلامى ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار ــ مكتبة الخانجى ص ٣٦٦ ·

(٢) رشيد رضا : او اخاء اربعين سنة لشكيب ارسلان ، مطبعة ابن زيدون بدمشق سنة ١٩٣٧م ص ٥١٩ ·

وارتكبوا فيها المحظورات الكثيرة التى يعد بعضها من الشـــرك الصحيح وبعضها من البدع والمعاصى ولا سيما المعاصى التى تفعل تدينا وتقربا وتوصلا الى الله تعالى كمـــا ترى فى كتاب الزواجر للفقيه ابن حجر من فقهاء الشافعية وغيره من كتبهم ، وفى كثير من كتب الحنابلة ، ويحتجون بهدم النبى ( صلى الله عليه وسلم ) لمسجد الضرار »(١) ٠

ان ما علم من السيد رشيد من سعة الأفق ومراعاة المصـــالح العامة للمسلمين كان يجب أن يبعد به عن مثل هذا القول ٠

والخلاصة أن صاحب المنار كان متأثرا بابن كثير فى تفسيره للقرآن من حيث الاهتمام بالرواية والتوفيق بين النصوص المتخالفة فى الظاهر . والعناية بأحداث التاريخ المتعلقة بالقرآن ، والاهتمام بالتفريعات الفقهية والأبحاث الأصولية ، وتأثر الاثنان بابن تيمية ٠ فنزعا منزع المدرســة السلفية ، وطبع السيد رشيد لملك الحجــاز مؤلفات المدرسة السلفية لتأييد مذهب الوهابيين فى الحجـــاز ٠ وتأثر به فى هذا جماعة أنصار السنة بمصر ٠

وكثيرا ما كان صاحب المنار ينقل آراء ابن كثير فى سياق الاكبار والاعجاب . خصوصا فى المتشابه من القرآن وما تعددت فيه آراء المفسرين(٢) .

---

(١) تفسير المنار جـ١ ص ٤٢٣ ٠
(٢) تفسير المنار جـ٨ ص ٣٣٦ ٠

الخاصة الثالثة :

# تأثر صاحب المنار بالغزالى

## ١ - نبذة عن حياة الغزالى :

هو محمد بن محمد بن محمد بن احمد الطوسى وكنيته أبو حامد الغزالى · وهو غنى عن كل تعريف من ناحية تأثيره فى التفكير الاسلامى ·

ولد بطوس ، احدى مدن خراسان سنة ٤٥٠ هـ ، وكان شافعى المذهب ويذكر صاحب عيون الأنباء « أنه لم يكن للطائفة الشافعية مثيل له فى عصره ، وكان علما من الأعلام الذين يشار اليهم فى وقته » ·

وقد ذهب الى بغداد سنة ٤٨٤ هـ للتدريس بالمدرسة النظامية وكان ذلك فى الرابعة والثلاثين من عمره ·

ولما اخذ يلقى دروسه فيها أعجب به أهل العراق ، ولكنه لم يلبث أن سئم بغداد وحياة أربع سنوات فى سنة ٤٨٨هـ · ويرجع سأمه منها وعدم رضاه عن نفسه الى أن أزمة نفسية جامحة دعته الى الرغبة فى الزهد والانقطاع عن الناس ثم اضطرته أن يترك مظاهر الغرور والشهرة ، الى حياة التأمل وصفاء النفس عشر

سنوات أو يزيد . وفى ذلك يقول الغزالى : « ثم لما أحسست بعجزى وسقط بالكلية اختيارى ، التجأت الى الله تعـالى التجاء العاجز المضطر الذى لا حيلة له . فاجابنى الذى يجيب المضطر اذا دعاه وسهل على قلبى الاعراض عن الجاه والمال والأولاد والأصحاب ».

وترك الغزالى بغداد بعد أن تصدق بماله الا ما ادخره من القليل الذى يئوده ويكفل قوت أولاده ، ثم قصد الى الشام وأقـام بهـا .

وآثر العزلة والرياضة على الطريقة الصوفية ، فكان يعتكف فى مسجد دمشق ويصعد نهاره الى المنارة القريبة من الجامـع ويغلق على نفسه بابها يتأمل ويتعبد ثم رحـل الى بيت المقدس ، ويذكر انه كان يدخل الصخرة كل يوم ويغلق بابها على نفسه كشأنه فى مغارة مسجد دمشق .

ومن العسير على المؤرخ أن يحدد الأماكن التى ارتادها أبو حامد منذ سنة ٤٨٤ حتى سنة ٤٩٩ هـ تحديدا تاريخيا دقيقا اذ كان كثير الانتقال يبحث عن العزلة ليخلو فيها بنفسه وهواجسه .

وقد وصف لنا هذه الفترة الغامضة من حياته فقال : « ودمت على ذلك بمقدار عشر سنين وانكشف لى أثناء هذه الخلوات أمور لا يمكن احصاؤها واستقصاؤها » ومن المحتمـل انه الف فى هـذه الفترة كتاب احياء علوم الدين وكثيرا من الكتب التى كانت تهدف الى بيان عظمة الاسلام وتفوقه على جميع الديانات الأخرى ، والتى حق بسببها أن يسمى حجة الاسلام .

واضطر أبو حامد الى قطع عزلته والعودة الى نشر العلـم والدفاع عن الدين بسبب ما رآه من ضعف الايمان لدى معاصريه ومن كثرة الشبه التى اثارها أعداء الاسـلام وأصـدقاؤه من الجهال .

وقد حدد الغزالى عزلته الطويلة فقال : « وكان الخروج من بغداد فى ذى القعدة سنة ٤٨٨ وبلغت مدة العزلة احدى عشرة سنة وهذه حركة قدرها الله سبحانه وهى من عجائب تقديراته التى لم يكن لها انقداح فى القلب فى هذه العزلة كما لم يكن الخروج من بغداد والنزوع عن تلك الأموال مما خطر اصلا بالبال » ٠

واخيرا غادر أبو حامد المدرسة النظامية وعاد الى طوس وانشا حلقة صوفية وقضى فيها ما بقى من عمره فى التأمل والعبادة حتى توفى رحمه الله في يوم الاثنين ١٤ من جمادى الثانية سنة ٥٠٥ هـ(١) ٠

## ٢ ـ كتاب احياء علوم الدين :

هذا كتاب من الكتب الخالدة ، ولا نظير له فى بيان عظمة الاسلام ، وتفصيل مناهجه التعليمية والتربوية والأخلاقية ٠ وقد اشتمل الكتاب على أربعة مجلدات :

**المجلد الأول** : ربع العبادات ٠

**المجلد الثاني** : ربع العادات ٠

**المجلد الثالث** : ربع المهلكات ٠

**المجلد الرابع** : ربع المنجيات ٠

وقد اخرجته لجنة الثقافة الاسلامية ، فى طبعة بيضاء مصقولة سنة ١٣٥٧ هـ ٠ وقسمته الى اجزاء مجموعها ستة عشر جزءا تقع فى أربع وثلاثين وثلاث آلاف صحيفة ٠

---

(١) الدكتور محمود قاسم ، استاذ الفلسفة بكلية دار العلوم ، محاضرات عام ١٩٥٥ بالكلية ٠

فى المجلد الأول : أسرار العبادات وحكمتها وتفصيلات واسعة وبحوث شائقة وعميقة حول الصلاة والصيام والزكاة والحج .

وفى المجلد الثانى : آداب العادات من الأكل والكسب والمعاش والنكاح والسفر والصحبة ، والأمر بالمعروف ، والخلال والحرام .

وفى المجلد الثالث : ربع المهلكات وهى : كتاب شرح عجائب القلب ورياضة النفس وكتاب كسر الشهوتين وكتاب آفات اللسان . وكتاب ذم الغضب . وكتاب ذم الدنيا . وكتاب ذم البخل . وكتاب ذم الجاه . وكتاب ذم الكبر والعجب ، وكتاب ذم الغرور .

والمجلد الرابع فيه ربع المنجيات : وهى كتاب التوبة . وكتاب الصبر والشكر . وكتاب الخوف والرجاء . وكتاب الفقر والزهد . وكتاب التوحيد والتوكل . وكتاب المحبة والشوق والأنس والرضا بالله تعالى . وكتاب النية والاخلاص . وكتاب المراقبة والمحاسبة ، وكتاب التفكر . وكتاب ذكر الموت .

٣ ـ وقد تأثر صاحب المنار بهذا الكتاب منذ نشأته الأولى وصرح بذلك فقال :

« وكانت أعجب كتب التصوف الى احياء علوم الدين لحجة الاسلام أبى حامد الغزالى ، فهو الذى طالعته كلـه وكنت أكثر مراجعته وقراءة بعض أبوابه عودا على بدء ، ثم صرت اقـرؤه للناس ، وكان له أكبر التأثير فى دينى وأخلاقى وعلمى ، وانه لتأثير نافع فى أكثره ضار فى أقله . وقد عالجت الضار منه بعد العلم به »(١) .

---

(١) رشيد رضا او اخاء اربعين سنة ، شكيب ارسلان ، مطبعة ابـن زيدون بدمشق . سنة ١٩٣٧م ص ٣٦ .

ومن الضار عدم الدقة فى رواية الحديث . وقد نبغ صاحب المنار فى رواية الحديث ونقد الغزالى فى ذلك .

واستفاد السيد رشيد من أفكار الغزالى ٠ لأنـــه قاد أعنف الحروب على التقليد وعلى الزوائد المتفرعة عن الفقه ، وسخر من ضروب التعمق فى افتراض الصور والأحوال ومن فروق المذاهب ، كما القى وزنا راجحا للتشبع بمعنى التهذيب الخلقى والعمل بروح التشريع فى تعاطى الدين بدلا من اداء العبادات على وجه صورى آلى ٠ فكتبه فى هذا المعنى هى المصدر الذى يؤخذ عنه ، اذا عارضت مدرسة المنار الروح الصورية السائدة للمذهب السنى المحافظ ، حتى فى تناول أسس الاسلام الخمسة ، فاقامت فى وجهها المطـــالب الخلقية التهذيبية السائدة فى القرآن والحديث(١) ٠

٤ ــ ونقل صاحب المنار كثيرا من ابواب الاحياء ، اما بنصها واما بمعناها ٠

فنقل رأيه فى التوبة وحدها ٠ والركن الثانى فيما عنه التوبة وهى الذنوب صغائرها وكبائرها(٢) ، عند تفسيره لقوله تعالى : « ان تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما »(٣) ٠ فتحدث صاحب المنار عن اختلاف العلماء فى الصغائر والكبائر ٠ ثم نقل رأى الغزالى فى السيئات وانواعها وتقسيمها فقال :

« قال الغزالى فى بيان الركن الثانى وهو تمام التوبة وشروطها ودوامها » ٠ ونقل رأيه فى المعاصى وبيان أنها سم قاتل ٠ وكيفية التوبة عنها بالندم على الماضى والاقلاع عن الذنب فى الحال ،

---

(١) مذاهب التفسير الاسلامى ، ترجمة د٠ عبد الحليم النجار ص ٣٦٨ مكتبة الخانجى بمصر سنة ١٩٥٥ م ٠
(٢) تفسير المنار جـ٥ ص ٥٣ ٠
(٣) سورة النساء آية ٣١ ٠

والعزم على الاستقامة فى المستقبل · ثم أبدى اعجابه بالغزالى لدقة فهمه لحكمة القرآن وتطبيقه على فطرة الاسلام(١) ·

مقارنة : ــ

واذا قارنت بعض موضوعات المنار بنظيرها فى أبواب الاحياء وجدت مطابقة تامة واتفاقا فى التفاصيل ومن أمثلة ذلك :

« محبة العبد لله تعالى »

فقد كتب السيد رشيد رضا عند تفسير قوله تعالى : « **قل ان كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله** » كلاما فى حب العبد لربه وانه أسمى الغايات ومن شغل به فهو السعيد حقا(٢) ·

وهذا الكلام نقله صاحب المنار عن الغزالى بتصرف واختصار ولم يعزه اليه ·

فقد كتب الغزالى عن محبة العبد لله تعالى اثنتى عشرة ومائة صحيفة فى الجزء الرابع من الاحيــاء بعنوان : « كتاب المحبــة والشوق والأنس والرضا » ورغم تأثر صاحب المنار بالغزالى فى فهم الدين فهما تهذيبيا خلقيا ، الا أنه نقده فى شطحاته الصوفية وعدم الدقة فى رواية الحديث ، فعند تفسير المنار لقوله تعالــى : « **يأيهــا الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحــل الله لكــم** » ·

---

(١) المنار جـ٥ ص ٥٤ ، ٥٥ ·
(٢) المنار جـ٣ من ص ٢٨٤ الى ص ٢٨٧ ·

وضح السيد رشيد : كمال الاسلام وتوسطه فى القيام بحق البدن وحق الروح ونقد الغزالى لتطرفه فى فهم الزهد ، وبين أن الموضوع الذى كتبه بعنوان : ( بيـان فضيلة الجوع وذم الشبع )(١) أكثر أحاديثه لا يعرف المحدثون له أصلا ، وبعضها ضعيف أو موضوع ·

ثم اراد صاحب المنار ان يفحم الغزالى ومن لف لفه من الزهاد والمتصوفين فنقل من النصوص والآثار ما يؤيد منهج الاسلام فى السماحة والتوسط · ويخطىء الصوفية فى خروجهم عن الاعتـدال فى العبادة ، والمبالغة فى الزهد والتوكل ·

وعند تفسير صاحب المنار للتوكل بين انه الأخذ فى الأسباب ثم الاعتماد على الله تعالى ·

ونقد الغزالى لمبالغته فى التواكل والاستسلام وبين أن ذلك تواكل وعجز « فليس من التواكل الخروج على سنة الله أصلا »(٢)·

وفى الباب حديث الرجل الذى جاء الى النبى (صلى الله عليه وسلم) واراد ان يترك ناقته وفى رواية انه قال أاعقلها وأتوكل أم اطلقها ؟ ، فقال النبى ( صلى الله عليه وسلم ) « اعقلها وتوكل » .

والقارىء للمنار يلاحظ أن صاحبه ينقل آراء الغزالى فى كثير من الموضوعات وفى جميع أجزاء المنار · ففى الجزء الثالث مثـلا نقل رايه فى اسـباب اختلاف المسـلمين(٣) · ورأيـه فى النقدين

---

(١) المنار جـ٧ ص ٣١ وما بعدها .
(٢) تفسير المنار جـ٤ ص ٢٠٧ ، ص ٢٠٨ .
(٣) المنار جـ٣ ص ١٢ ·

والربا(١) ،ورأيه فى صفات الله تعـالى(٢) ، ورايـه فى الشـكر والتوكل(٣) ٠

وهى آراء حسنة فى مجموعها ، وضارة فى القليل منها ٠ غير أن صاحب المنار مدح الحسن منها واطراه ، ونبه الى الضار منها لنتجنبه ٠

فاصاحب المنار من الله احسن الجزاء والمثوبة ٠

---

(١) المنار جـ٣ ص ١١٠ ٠
(٢) المنار جـ٤ ص ١٩٩ ٠
(٣) المنار جـ٢ ص ٢٩ ٠

الخاصة الرابعة :

# التوســـع والاطـــالة

١ - كان السيد رشيد رضا عالما ضليعا فى نواحى المعرفة الاسلامية ·

وكان يطيل فى بعض البحوث المتعلقة بالآية طولا مملا يستهلك نشاط القارىء ويلوى ذهنه عن متابعة الآيات القرآنية ·

لقد فسر السيد رشيد رضا اثنى عشر جزءا من القرآن الكريم وقعت فى ستة آلاف صحيفة(١) فمتوسط صحائف الجزء الواحد خمسمائة صحيفة ·

ومعنى ذلك أنه لو أكمل تفسير القرآن لوقع تفسيره فى خمسة عشر ألف صحيفة ·

وهذا العدد الضخم من شأنه أن يزهد الناس فى ذلك التفسير العظيم · وأن يحجب الجمهور عن الانتفاع به ·

---

(١) عدد صفحات الجزء الاول من تفسير المنار : ٤٩٢ صحيفة والثانى : ٤٩٨ ، والثالث ، ٣٧٦ ، والرابع : ٤٨١ ، والخامس ٤٧٦ ، والسادس ٤٩٢ والسابع ٦٧٢ والثامن ٥٢٣ والتاسع ٦٨٨ والعاشر ٥٠٠ ، والحادى عشر ٥١١ ، والثانى عشر ٣٢٤ ، فعدد الجميع ٦٠٣٢ صحيفة ·

لقد طبعت جريدة الشعب تفسير جزء عم للأستاذ الامام خمس طبعات متوالية في زمن متقارب وكانت كل طبعة تقدر بالآلاف المؤلفة وما ان تخرج الطبعة الى السوق حتى يتلقفها الناس ٠ لأنه تفسير مختصر وقريب من الشعب(١) ٠ أما تفسير المنار فقد حشــدت فيه بحوث استطرادية كانت تصل الى ٥٠ صحيفة والى ٧٥ صحيفة ٠

وقد عاب صاحب المنار على غيره من المفسرين الاستطرادات الخارجة عن التفسير كما عاب على الفخر بحوثه الطويلة المتنوعة عن السماء والأرض والفلك والهيئة ٠ بيد أنه وقع فيما عاب على غيره ٠

ومن الانصاف أن نذكر أن بحوث الفخر الرازى وغيره لم تكن لها صلة بالتفسير ٠

اما بحوث صاحب المنار فكانت لها صلات تربطها بتفســير القرآن واهداف الاسلام ومطالب العصر ، وعلم الاجتماع وغير ذلك .

وانى انصح من يقرأ تفسير المنار أن يقرأ قبله تفسيرا مختصرا مثل تفســير لنسفى الذى يقع فيه تفسـير جزء القــرآن فى ٣٥ صحيفة .

أو مثل « فى ظلال القرآن » الذى يعــرض الأفكار العامــة للآيات فى ترابط وتسلسل وروحانية تمس القلب . ويقع تفسير الجزء فى ٩٠ صحيفة ، وبعد أن يقرأ التفســير المختصر يستطيع أن يتابع تفسير المنار ويستفيد مما فيه من درر غالية قد تبعد أحيانا وتأخذ جهدا فى البحث عنها والاحاطة بها ولكنها بعد ذلك ثمينة وقيمة ومفيدة .

---

(١) ثمن تفسير جزء عم ٢٠ قرشا اما ثمن تفسير المنار فهو خمســة جنيهات ، ولعل ذلك من أسباب ترك الناس لتفسير المنار ٠

٣ ـ نموذج من بحوث المنار :

١ ـ فى الجزء الخامس من تفسير المنار بحث فى أصول الشريعة الاسلامية وهى :

أ ـ الكتاب ، ب ـ السنة ، جـ ـ الاجماع ، د ـ القياس ، هـ ـ المصالح المرسلة ·

وتحدث عنها فى اثنتى عشرة مسالة استغرقت أربعا وخمسين صحيفة(١) ·

٢ ـ فى الجزء السادس بحث فى منزلة السنة من الكتاب استغرق أربع عشرة صحيفة(٢) ·

٣ ـ فى الجزء السابع : بحث فى يسر الاسلام ، وفى القياس وكلام العلماء فيه · والمصالح المرسلة وأشهر أئمة الاصلاح فى الاسلام من علماء الحديث والفقه وكتبهم النافعة(٣) ، واستغرق هذا البحث سبعا وسبعين صحيفة(٤) ·

٤ ـ فى الجزء التاسع : بحث فى السحر استغرق ثمان وأربعين صحيفة(٥) ·

---

(١) من صفحة ١٦٨ ـ ٢٢٢ جـ٥ ·

(٢) من صفحة ١٥٤ ـ ١٦٨ جـ٦ ·

(٣) وهم ابن حزم مجدد القرن الخامس : وكتابه المغنى ، والعز بن عبد السلام ، وابن تيمية ق٧ · وتلميذه ابن القيم والحافظ احمد بن حجر العسقلانى وكتابه فتح البارى فى ق٩ · ومحمد بن على الشوكانى وكتابه نيل الاوطار وارشاد الفحول ( فى تحقيق الحق من علم الاصول ) فى ق١٢ · انظر ص ١٤٥ جـ٧ ·

(٤) من ١٢٥ ـ ٢٠٢ جـ٧ ·

(٥) من ص ٣٦ ـ ٨٤ جـ٩ ·

٥ ـ فى الجزء الثامن : بحث فى مفاسد اللواط واضراره : استغرق أربع عشرة صحيفة(١) ٠

وقد علل السيد رشيد رضا اطالته فى هذه البحوث والاستطرادات بانها كانت لتحقيق مسائل تشتد حاجة المسلمين الى تحقيقها بما يثبتهم بهداية دينهم فى هذا العصر أو يقوى حجتهم على خصومهم من الكفار والمبتدعة أو يحل بعض المشكلات التى أعيا حلها بما يطمئن به القلب وتسكن اليه النفس وأنصح للقارىء أن يقرأ الفصول الاستطرادية وحدها فى غير الوقت الذى يقرأ فيه التفسير »(٢) ٠

٣ ـ واذا نحن نظرنا الى العصر الذى عاش فيه السيد رشيد رضا التمسنا له بعض العذر فى هذه الاطالة ، فقد كانت لها أهداف شرحها ٠ وحققت هذه الاطالة هذه الأهداف ولا تزال تحققها ٠

فبحوث المنار مرجع ممتاز لكبار العلماء والباحثين والمهتمين بالدين ٠ وحجة للمسلمين على خصومهم من الملحدين والمبتدعين ٠ وفيها بيان لمبادىء الدين وتوضيح لأهداف القرآن الكريم ٠

---

(١) من ص ٥٠٨ ـ ٥٢٢ جـ٨ ٠

(٢) تفسير المنار جـ١ ص ١٦ ٠

الخاصـــــة الخامســـــة :

# بيان السنن الاجتماعيـــة واســـباب التطـورات التاريخيـــة

## واســـــتنباط ذلك من آيات القرآن الكريم

### ١ ــ ايقـــاظ المســـلمين :

كان السيد رشيد رضا ــ كاستاذه الامام ــ شديد الرغبة فى ايقاظ المسلمين وبعث هممهم .

وقد بين الأستاذ الامام أن لقواعد الاجتماع والعمران قوانين صارمة لا تقل فى دقتها واضطرادها عن القوانين الطبيعية .

وزاد السيد رشيد على أستاذه الاكثار من الشواهد والأمثلة التى رآها تؤيد سنة الله فى الخلق وأن قيام الأمم ونصرها او هزيمتها مرتهن باعمالها وسلوكها . وهذه الخاصة ابرز الخصائص والسمات التى تميز تفسير المنار .

وقد وضع أساس ذلك الأستاذ الامام . وتوسع السيد رشيد فى هذه الخاصة توسعا ملموسا يكاد يطغى على جميع الخصائص الاخرى ، مدفوعا فى ذلك بارشاد أمامه ، وصفاء

نفسه ، وكثرة مشاهداته . وحالة المسلمين الراهنة التى جعلتهم يحولون القرآن الى تمائم وتعاويذ تجلب النصر وتدفع الضر .

« ذكر الأستاذ الامام أنه لما كان فى أوروبا مر على بلاد المجر وزار دار الآثار فيها فمما وجده محفوظا فى ذلك المتحف قميص الوزير « كوبريلى مصطفى باشا » وهو آخر قائد عثمانى حارب تلك البلاد وبعد قتله تقلص عنها ظل السلطنة العثمانية سنة ١١٠٢ للهجرة .

قال الأستاذ الامام انه رأى ذلك القميص وقد نقشت عليه الآيات القرآنية وخاتم الامام الغزالى واستعاذة الجلجلوتية وأمثال ذلك من الطلاسم وغريب الخواتيم(١) .

## ٢ ــ سنن الاجتماع :

ورث السيد رشيد رضا امامه ونمى هذا الميراث حتى اصبح ثروة كبيرة خالدة .

قال صاحب المنار فى تفسير قوله تعالى : « **يامعشر الجن والانس الم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا شهدنا على أنفسنا وغرتهم الحياة الدنيا وشهدوا على انفسهم انهم كانوا كافرين** » الأنعام١٣٠ .

وعقاب(٢) الله تعالى للأمم وكذا للأفراد فى الدنيا والآخرة أنواع منه ما يسمى عذاب الاستئصال لمن عاندوا الرسل بعد أن جاءوهم بما اقترحوا عليهم من الآيات الكونية وانذارهم الهلاك اذا لم يؤمنوا بعد تأييد الله اياهم بها كعاد وثمود وقوم لوط ، فسنة

---

(١) على هامش التفسير : عبد القادر المغربى : موضوع القرآن .

(٢) تفسير المنار جـ٨ ص ١١٠ .

الله فى ذلك خاصة وقد انقطعت بانقطاع الرسل ، اذ ليست جارية عن سائر سنن الاجتماع . ومنه هلاك الامم بما يغلب عليها من الظلم أو الفسق او الفجور الذى يفسد الأخلاق ويقطع روابط الاجتماع ويجعل باس الأمة بينها شديدا فيكون ذلك سببا اجتماعيا لسلب استقلالها وذهاب ملكها بحسب سنن الاجتماع وقد أنذرنا الله هذا فى كتابه وعلى لسان رسوله كما شرحنا من قبل . فيراجع تفصيل ذلك فيما مضى من التفسير(١) .

ويستمر السيد رشيد رضا فى تعليقه على الآية بقوله :

« ثم أن هذه الآية وما فى معناها من الآيات ــ كآية هود ــ من قواعد علم الاجتماع البشرى الذى لايزال فى طور الوضع والتدوين . وهو العلم بسنن الله تعالى فى قوة الامم والشعوب وضعفها وعزها وذلها وغناها وفقرها . وبداوتها وحضارتها واعمالها ونحو ذلك ، وفائدة هذا العلم فى الأمم كفائدة علم النحو والبيان فى حفظ اللغة . وفى القرآن الحكيم اهم قواعده واصوله وقد سبق بعض الحكماء المسلمين الى بيان بعضها وبدا ابن خلدون بجعله علما مدونا يرتقى بالتدريج كغيره من العلوم والفنون .

ولكن استفاد غير المسلمين مما كتبه فى ذلك وبنوا عليه ووسعوه فكان من العلوم التى سادوا بها على المسلمين الذين لم يستفيدوا من هداية القرآن العليا فى اقامة أمر ملكهم وحضارتهم على ما ارشدهم اليه من القواعد وسنن الله تعالى فيمن قبلهم ولا يزالون معرضين عن هذا الرشاد والهداية على شدة حاجتهم اليها بسبب ما وصل اليه تنازع البقاء بين الأمم فى هذا العصر .

---

(١) يراجع فى جزء التفسير ٧ ص ٣٠٨ ، ٤٩٣ وكذلك لفظ الامم والعذاب والجزاء وسنة الله فى فهرس الجزء السابع وفهارس سائر الاجزاء : ١٠ هـ نقلا عن حاشية تفسير المنار .

وانا نرى بعضهم يعزى نفسه عن ضعف أمته ويعتذر عن تقصيرها بالقدر الذى يفهمه مقلوبا بمعنى الجبر او يسليها بأن هذا من علامات الساعة وارتكس بعضهم فى حماة جهله بالاسلام حتى ارتدوا عنه سرا او جهرا زاعمين ان تعاليمه هى التى اضعفتهم واضاعت عليهم ملكهم . والتمسوا هداية غير هدايته ليقيموا بها دنياهم فخسروا الدنيا والآخرة ، وذلك هو الخسران المبين .

### ٣ ــ سنن الله فى تفسير المنار :

ونلاحظ أن كلام السيد رشيد رضا عن علم الاجتماع كلام فنى دقيق لم يتطرق اليه الخلل ولا الفساد بعد مرور عشرات السنين . فابن خلدون هو الذى دون اساس علم الاجتماع ووضع اهم قوانينه وقواعده .

واستفاد الغربيون من كلامه وادعوا أن « دور كايم » مؤسس علم الاجتماع مع أن « دور كايم » ومدرسته عيال على ابن خلدون ومقدمته وقد اكثر صاحب المنار من ذكر أمثلة علم الاجتماع وقواعده وبين قوانين الدول فى قيامها ونهوضها وتأخيرها وسقوطها . وأن الله لا يحابى فردا ولا أمة . وانما يخضع الجميع لسنن الله ولن تجد لسنة الله تبديلا . وقد ذكر هذه المعانى أكثر من مائة مرة فى تفسيره بأساليب متغيرة ومتجددة .

وما عليك الا أن تتصفح تفسير المنار أو عناوين الصفحات أو تفسير الآيات الاجتماعية والكونية والتاريخية أو تراجع فهارس أجزاء المنار فى لفظ الأمم والجزاء وسنة الله لتشاهد أن القوانين الاجتماعية تحتل مكانا ملحوظا فى هذا التفسير .

وسأنقل هنا ما جاء فى فهارس اجزاء المنار عن سنن الله لتتبين حقيقة ذلك :

## ســــــنن الله فى فهارس تفسير المنار

### فى فهـــرس الجـــزء الثـــانى



### فى فهـــرس الجـــزء الثـــالث

## فى فهرس الجزء الرابع

## فى فهرس الجزء الخامس



## فى فهرس الجزء السادس



## فى فهرس الجزء السابع

## فى فهرس الجزء الثامن

## فى فهرس الجزء التاسع

في فهرس الجزء الحادى عشـــر



في فهرس الجزء الثانى عشر

٤ ـ هــدف صــاحب المنــار :

والآن لعلك لاحظت طول الفهرس فضـــلا عن موضوعات الفهرس وعذر السيد رشيد فى الاكثار من هذه الموضوعات . هو حالة العصر الذى عاش فيه . فقد كان المسلمون فى بوادر نهضة واراد هو ان يسهم فى هذه النهضة من جهة ، وان يجعلها تسير على أساس من هدى الاسلام ولا تنجرف مع تيار الغرب من جهة اخــــرى .

« نبين أن كتاب الله يشتمل على جميع الحقائق : التى تعبر عنها الآراء الحديثة فى الفلسفة والاجتماع(١) » .

« واقل ما تعتمده مدرسة المنار فرضا ثابتا لتفسير القرآن على وجه صـــائب هو أن القرآن لا يمكن أن يحتوى على تعليم يتعارض مع حقائق العلم ، بل يشتمل كتاب الله على النظريات العلمية للقرنين التاسع عشر والعشرين وان خفى ذلك على انظار السطحيين . وانما ينبغى على المرء ان يقراه بعينين مفتوحتين ، ويفهمه بعقل سليم ، خالص من الأحكام السابقة(٢) .

« ولا تستشعر مدرسة المنار خوفا ولا خشية على الاسلام امام العلم فهى تعلم جيدا أن كثيرا ممن يصطنع العلم على الطريقة الاوروبية يطرح تعاليم الدين ظهريا متابعة لما اصطنعه .

ولكن السبب فى هذا هو انه لم يعرف الاسلام ولم يتعلمه قبل العلم الأوروبى ولا بعده . ولهذا نطـــالب علماء ديننا بأن يجتهدوا فى جعل زمام تعليم العلوم الكونية بأيديهم . لأننا نثق

---

(١) مذاهب التفسير الاسلامى ص ٢٧٥ .
(٢) المرجع السابق .

أتم الثقة فى انه لا يمكن أن يرجع عن الاسلام من عرفه . وكيف يختار الظلمة من عاش فى النور »(١) .

هذه الفكرة تتكرر دائما باطراد ، على صـــــور كثيرة فى التصريحات المنهجية لمدرسة محمد عبده ولاسيما فى تطبيقها على الناحيتين التاريخية والعلمية الطبيعية .

فالقرآن قبل كل شىء ينطق بأن النمو التاريخى والاجتماعى للأمم يسير على سنن ثابتة . ففى كل مكان يوجه القرآن فيه النظر الى سنة الاولين ( فى الآية ٣٨ من سورة الأنفال ) أو يعبر فى سياقه عن فكرة كهذه الفكرة الكثيرة الورود « **سنة الله فى الذين خلوا من قبل وان تجد لسنة الله تبديلا** » ( فى الآية ٦٢ من سورة الأحزاب مثلا ) يؤخذ النص دائما دليلا على اثبات هذه الحقيقة الواقعــة »(٢) .

فسنة الله التى لا تتبدل ولا تتحول هى القانون السائد فى التاريخ .

ومن هنا كانت دراسة التاريخ احدى المصالح البالغة اقصى الأهمية فى رعاية الاســلام الحقة . وتقدم البواعث الكثيرة ، التى تحث على النظر فى ذلك ، آيات القرآن التى تقص مصاير الأمم السابقة وسوء عاقبة ما اقترفوه من آثام(٣) . ففى ذلك اشارات وبيانات تاريخية . واستخدم هذا التفسير تنبيها مشددا لعلماء الرسوم والأمر(٤) . والدوائر الحاكمــة ( الأمراء والســلاطين )

---

(١) تفسير المنار جـ٤ ص ٤٥٢ .
(٢) المنار جـ٦ ص ٥٥ .
(٣) المنار جـ٥ ص ٦٩٣ .
(٤) المنار جـ٨ ص ٤١ ــ ٦٧ .

لتحميلهم وزر الاهمال فى التربية التاريخية وتقصيرهم بذلك فى اداء واجب الاسلام(١) ٠

وبهذه الروح يشرح تفسير محمد عبده ومدرسته — بكثرة نسبيا — نظريات حديثة فى القرآن وعلى الأخص نظريات دارون ، ولنقف مثلا عند تفسير الآية ٤٩ وما بعدها من سورة البقرة : **« كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين ٠٠ »** فان التفسير يتجه فى أنظاره العامة الى ان هذه الآيات تتضمن نظريتى « تنازع البقاء » و « الانتخاب الطبيعى »(٢) ٠ كذلك يراد استخدام الآيتين ٢٥٢ من نفس السورة . **« ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد »** ، ١٧ من سورة الرعد : **« فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض »** ٠

والجمل المكررة كثيرا : **« والعاقبة للمتقين »** ( فى الآية ١٢٨ من سورة الاعراف مثلا ) و : **« ان الله لا يصلح عمل المفسدين »** ( فى الآية ٨١ من سورة يونس ) الخ ، تحمل بكل جد على بقاء الأصلح(٣) ٠ فهذا ارشاد الى تنازع البقاء والدفاع عن الحق ، وانه ينتهى ببقاء الأمثل وحفظ الأفضل(٤) ٠

## ٥ — عيب هذا المنهج :

وهذا المنهج الاجتماعى مفيد للمسلمين حقا . ولكن العيب فيه هو حمل آيات القرآن على النظريات الحديثة ، وهذا عيب وقع فيه السابقون من المفسرين كالفخر الرازى ، وحذر منه

---

(١) المنار جـ٨ ص ٨٩ ٠

(٢) المنار جـ٨ ص ٩٢٩ — ٩٣٠ ٠

(٣) المنار جـ٩ ص ٦٠ ٠

(٤) مذاهب التفسير الاسلامى ترجمة دكتور عبد الحليم النجار من ص ٣٧٥ الى ص ٣٨٣ ٠

الامام وصاحب المنار ثم وقع صاحب المنار فيما حذر منه . فالقرآن لم ينزل ليكون كتاب اجتماع أو تاريخ ولكنه اشار الى القوانين المفيدة فيهما تحقيقا للعبرة والهداية .

ثم ان هذه النظريات الحديثة متطورة ومتغيرة وتظهر قوانين جديدة تبطل النظريات القديمة ، وهذا يستدعى بطلان التفسير او بطلان القرآن عند بطلان النظرية التى جاء بها . والله تعالى يقول : (( **لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد** )) .

ان القرآن يجب أن يظل هكذا اماما يقتدى به ولا يقتدى بغيره ونموذجا يقاس عليه ولا يقاس بغيره . واذا ذكرنا نظريات حديثة فى التفسير نقول انها توافق ما تشير اليه الآية ويكون هذا رأيا منا ، فاذا اخطأت النظرية اخطأ رأينا ولم يخطىء كتاب الله .

وعلى كل فالشيخ رشـيد مجتهد له أجره ونيته . والنبى ( صلى الله عليه وسلم ) يقول : (( **وانما الاعمال بالنيات وانما لكل امرىء ما نوى فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله . ومن كانت هجرته الى دنيا يصيبها او امرأة يتزوجها فهجرته الى ما هاجر اليه(١)** )) .

فللشيخ رشيد رضا حسن النية وحسن المثوبة من الله تعالى على نبوغه وتفوقه ، وانه بز علماء التفسير جميعهم فى ابراز القرآن الكريم للناس معجزة دائمة . وهداية عامة شاملة وسـعادة لهم فى دينهم ودنياهم . تقرأ طائفة من التفسير فتحس فى خلال القراءة أن من ورائك سوطا من أسواط الحق يسوقك الى الفضيلة

---

(١) رواه البخـــارى .

ويردعك عن الرذيلة وأن صلتك بكتاب الله تعالى وتعلقك به فى هدايته وفقه معانيه هى أغلى شىء فى هذه الحياة . وأعظم شىء ساقه الله اليك ، كما تحس فى ذلك التفسير أنك فى دائرة من المعارف الالهية الكبرى(١) » .

والحمد لله أولا وآخرا ، والشكر لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، وصل اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

انتهى العمل منه ليلة الجمعة المباركة ٢٦ من جمادى الأول ١٣٧٩ هـ ٢٧ من نوفمبر ١٩٥٩ م بمسجد الامام الشافعى بالقاهرة .

**عبد الله محمود شحاتة**

**وتمت مراجعة الطبعة الثالثة صباح الأربعاء ٢٤ ذو القعدة سنة ١٤٢٠ هـ الموافق ١ مارس سنة ٢٠٠٠ م بمدينة المقطم بالقاهرة ، والله ولى التوفيق .**

---

(١) من تقريظ الشيخ محمد احمد العدوى لكتاب الوحى المحمدى . انظر ص ٢١٧ من كتاب الوحى المحمدى للسيد رشيد رضا .

# مراجـــع البحـــث


**الامام محمد عبده ، ورشيد رضا :**

تفسير القرآن الحكيم ، الشهير بتفسير المنار · القاهـرة ـ المنار ·

**الامام فخر الدين محمد الرازى :**

مفاتيح الغيب · الشهير بالتفسير الكبير ـ القاهرة ·

**الامام ابن جرير الطبرى :**

جامع البيان فى تفسير القرآن ـ القاهرة : الاميرية ط١ سنة ١٣٢٣هـ ·

**عبد الله بن احمد النسفى :**

تفسير القرآن الجليل ، الشهير بتفسير النسفى ، القاهـــرة الحسينية المصرية ·

**الحافظ اسماعيل بن كثير :**

تفسير القرآن العظيم ·

القاهرة ، دار احياء الكتب العربية ·

**محمد بن احمد القرطبى :**

الجامع لأحكام القرآن

القاهرة ، دار الكتب المصرية ·

**محمود بن عمرو الزمخشرى :**

تفسير الكشاف ٠

**جلال الدين المحلى وجلال الدين السيوطى :**

تفسير الجلالين ٠

المطبعة العربية ١٩٥٣م ٠

**سليمان عمرو العجيلى الشهير بالجمل :**

حاشية « الفتوحات الالهية » على الجلالين ـ عيسى البابى الحلبى ٠

**محمد الآلوسي البغدادى :**

روح المعانى ـ ادارة الطباعة المنيرية ٠

**عبد الجليل عيسى :**

تيسير التفسير ط١ ١٩٥٨

**الدكتور محمد عبد الله دراز :**

النبأ العظيم ، نظرات جديدة فى القرآن الكريم ١٩٥٧م ٠

**محمد محمد المدنى :**

المجتمع الاسلامى كما تنظمه سورة النساء مخيمر ١٩٥٧م ٠

**محمود شلتوت :**

تفسير القرآن الكريم ٠

**محمد البهى :**

الفكر الاسلامى المعاصر وصلته بالاستعمار الغربى ، مخيمر ١٩٥٧م ٠

**عثمان امين :**
رائد الفكر المصرى الامام محمد عبده ـ مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٥م ٠

**الامام محمد عبده :**
الاسلام والنصرانية مع العلم والمدنية : المنار ١٣٤١هـ ٠
تفسير جزء عم المنار ١٣٢٩هـ ٠

**محمود شلتوت :**
منهج القرآن فى بناء المجتمع ، دار الكتاب العربى ١٣٧٥هـ ٠

**المستشرق جولد تسهير :**
مذاهب التفسير الاسلامى : ترجمة الدكتور عبد المنعم النجار : السنة المحمدية ١٣٧٤ هـ ١٩٥٥م ٠

**محمد كامل الفقى :**
الأزهر وأثره فى النهضة الأدبية الحديثة ، المنيرية ١٣٧٥ هـ ١٩٥٦ م ٠

**محمد الغزالى :**
نظرات فى القرآن : مؤسسة الخانجى ١٣٧٧ هـ ١٩٥٨م ٠

**سيد قطب :**
فى ظلال القرآن : دار احياء الكتب العربية ٠

**محمد ابو زهرة :**
محاضرات فى النصرانية : مخيمر ١٣٦٨ هـ ١٩٤٩ م ٠

**بدر الدين بن على الحنبلى البعلى :**
مختصر الفتاوى المصرية لابن تيمية : السنة المحمدية ١٣٦٨هـ ١٩٤٩م ٠

**الامام ابن القيم الجوزية :**

تفسير سورة الكافرون والمعوذتين : السنة المحمدية ١٣٦٨ هـ ١٩٤٩ م ٠

**محمد الخضرى :**

نور اليقين فى سيرة سيد المرســـلين ، مصطفى محمد ، ط٤ ١٣٤٤ هـ ١٩٢٦م ٠

**الامام أبو حامد الغزالى :**

احياء علوم الدين : نشر الثقافة الاسلامية ١٣٥٧ هـ ٠

**عباس محمود العقاد :**

الله ٠

**محمود قاسم :**

المنطق الحديث ومناهج البحث : الأنجلو المصرية ١٩٥٣ م ٠

**رشيد رضا :**

تاريخ الأستاذ الامام محمد عبده : المنار ١٩٣١م ٠

**رشيد رضا :**

الوحى المحمدى : المنار ١٣٦٧ هـ ١٩٤٨م ٠

**عبد الرحمن بن محمد بن خلدون :**

مقدمة ابن خلدون ، شرح وتعليق الدكتور على عبد الواحد وافى : لجنة البيان العربى ١٣٧٦هـ ١٩٥٧م ٠

**محمد محمد المدنى :**

مناهج التفكير فى الشريعة الاسلامية ، احمد مخيمر ١٩٥٧م ٠

**محمد بن محمد الأمير :**

حاشية على شرح عبد السلام بن ابراهيم المالكى لجوهــــرة التوحيد للامام اللقانى ٠
مصطفى البابى الحلبى ١٣٦٨هـ ١٩٤٨م ٠

**رشيد رضا :**

تفسير سورة الفاتحة وست سور من خواتيم القرآن ، المنــار ١٣٦٧هـ ٠
شبهات النصارى وحجج الاسلام ، المنار ١٣٦٧هـ ٠

**محمد عبد الله دراز :**

محاضرات فى تفسير سورة النساء لطلبة ليسانس دار العلوم عام ١٩٥٥م ٠

**شكيب ارسلان :**

رشيد رضا ، أو اخاء اربعين سنة ، ١٩٣٧م ٠

**الحافظ اسماعيل بن كثير :**

الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث ، صبيح ٠

**حسن البنا :**

تفسير سورة الفاتحة والآيات الأولى من سورة البقرة ٠ مجلة الشـهاب العدد الاول المحرم ١٣٦٧ هـ والأعداد التالية ٠

**عبد القادر المغربى :**

تفسير جزء تبارك : المطبعة الأميرية ١٣٧٦هـ ١٩٤٧ م ٠
على هامش التفسير ٠

**على حسب الله :**

اصول التشريع الاسلامى ٠

**عبد الوهاب خلاف :**
مصادر التشريع الاسلامى ٠

**احمد محمد جلال :**
مع المفسرين والكتاب ٠

**السيد أحمد خليل :**
نشأة التفسير فى الكتب المقدسة والقرآن ٠

**المستشرق الدكتور آرثر جفرى :**
مقدمتان من علوم القرآن ٠

**امين الخولى :**
التفسير معالم حياته : منهجه اليوم ٠

**الامام محمد بن ادريس الشافعى :**
أحكام القرآن ٠
الرسالة ٠

# الفهـــرس

| الموضـــوع | الصفحة |
|---|---|

| الموضوع | الصفحة |
| --- | --- |

| الموضوع | الصفحة |
|---|---|

| الموضوع | الصفحة |
| --- | --- |

# صدر من هذه السلسلة

١٩ ـ مصر القديمة وقصة توحيد القطرين ،
د. احمد محمود صابون ، ١٩٨٨
٢٠ ـ دراسات فى وثائق ثورة ١٩١٩ : المراسلات السرية بين سعد زغلول وعبد الرحمن فهمى ،
د. محمد انيس ، ط ٢ ، ١٩٨٨
٢١ ـ التصوف فى مصر ابان العصر العثمانى ، ج ١ ،
د. توفيق الطويل ، ١٩٨٨
٢٢ ـ نظرات فى تاريخ مصر ،
جمال بدوى ، ١٩٨٨.
٢٣ ـ التصوف فى مصر ابان العصر العثمانى ج ٢ ، امام التصوف فى مصر : الشعرانى ،
د. توفيق الطويل ، ١٩٨٨
٢٤ ـ الصحافة الوفدية والقضايا الوطنية ( ١٩١٩ ـ ١٩٣٦ ) ،
د. نجوى كامل ، ١٩٨٩
٢٥ ـ المجتمع الاسلامى والغرب ،
تاليف : هاملتون جب وهارولد بووين : ترجمة : د. احمد عبد الرحيم مصطفى ، ١٩٨٩
٢٦ ـ تاريخ الفكر التربوى فى مصر الحديثة ،
د. سعد اسماعيل على ، ١٩٨٩
٢٧ ـ فتح العرب لمصر ، ج ١ ،
تالف : الفريد ج . بتلر ،
ترجمة : محمد فريد أبو حديد ١٩٨٩
٢٨ ـ فتح العرب لمصر ، ج ٢ ،
تاليف : الفريد ج . بتلر ،
ترجمة : محمد فريد ابو حديد ١٩٨٩
٢٩ ـ مصر فى عصر الاخشيديين ،
د. سيدة اسماعيل كاشف ، ١٩٨٩
٣٠ ـ الموظفون فى مصر فى عصر محمد على ،
د. حلمى احمد شلبى ، ١٩٨٩
٣١ ـ خمسون شخصية مصرية وشخصية ،
شكرى القاضى ، ١٩٨٩
٣٢ ـ هؤلاء الرجال من مصر ، ج ٢ ،
لمعى المطيعى ، ١٩٨٩
٣٣ ـ مصر وقضايا الجنوب الافريقى : نظرة على الأوضاع الراهنة ورؤية مستقبلية ،
د. خالد محمود الكومى ، ١٩٨٩
٣٤ ـ تاريخ العلاقات المصرية المغربية ، منذ مطلع العصور الحديثة حتى عام ١٩١٢ ،
د. يونان رزق ، محمد مزين ، ١٩٩٠
٣٥ ـ اعلام الموسيقى المصرية عبر ١٥٠ سنة ،
عبد الحميد توفيق زكى ، ١٩٩٠
٣٦ ـ المجتمع الاسلامى والغرب ، ج ٢ ،
تاليف : هاملتون بووين : ترجمة

د. احمد عبد الرحيم مصطفى ، ١٩٩٠

٣٧ ـ الشيخ على يوسف وجريدة المؤيد : تاريخ الحركة الوطنية فى ربع قرن ،
د. سليمان صالح ، ١٩٩٠

٣٨ ـ فصول من تاريخ مصر الاقتصادى والاجتماعى فى العصر العثمانى ،
د. عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم ، ١٩٩٠

٣٩ ـ قصة احتلال محمد على لليونان ( ١٨٢٤ ـ ١٨٢٧ )
د. جميل عبيد ، ١٩٩٠

٤٠ ـ الأسلحة الفاسدة ودورها فى حرب فلسطين ١٩٤٨ ،
د. عبد المنعم الدسوقى الجميعى ، ١٩٩٠

٤١ ـ محمد فريد : الموقف والمأساة رؤية عصرية ،
د. رفعت السعيد ، ١٩٩١

٤٢ ـ تكوين مصر عبر العصور ،
محمد شفيق غربال ، ط ٢ ، ١٩٩٠

٤٣ ـ رحلة فى عقول مصرية ،
ابراهيم عبد العزيز ، ١٩٩٠

٤٤ ـ الأوقاف والحياة الاقتصادية فى مصر فى العصر العثمانى ،
د. محمد عفيفى ، ١٩٩١

٤٥ ـ الحروب الصليبية ، جـ ١ ،
تألف : وليم الصورى ، ترجمة وتقديم د. حسن حبشى ، ١٩٩١

٤٦ ـ تاريخ العلاقات المصرية الأمريكية ( ١٩٣٩ ـ ١٩٥٧ ) ،
ترجمة : د. عبد الرؤوف أحمد عمرو ، ١٩٩١

٤٧ ـ تاريخ القضاء المصرى الحديث ،
د. لطيفة محمد سالم ، ١٩٩١

٤٨ ـ الفلاح المصرى بين العصر القبطى والعصر الاسلامى ،
د. زبيدة عطا ، ١٩٩١

٤٩ ـ العلاقات المصرية الاسرائيلية ( ١٩٤٨ ـ ١٩٧٩ )
د. عبد العظيم رمضان ، ١٩٩٢

٥٠ ـ الصحافة المصرية والقضايا الوطنية ( ١٩٤٦ ـ ١٩٥٤ )
د. سهير اسكندر ، ١٩٩٢

٥١ ـ تاريخ المدارس فى مصر الاسلامية، ( أبحاث الندوة التى اقامتها لجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى للثقافة ، فى ابريل ١٩٩١ ) أعدها للنشر : د. عبد العظيم رمضان ، ١٩٩٢

٥٢ ـ مصر فى كتابات الرحالة والقناصل الفرنسيين ، فى القرن الثامن عشر ،
د. الهام محمد على ذهنى ، ١٩٩٢

٥٣ ـ اربعة مؤرخين واربعة مؤلفات من دولة المماليك الجراكسة ،
د. محمد كمال الدين عز الدين على ، ١٩٩٢

٥٤ ـ الاقباط في مصر في العصر العثماني ،
د. محمد عفيفي ، ١٩٩٢

٥٥ ـ الحروب الصليبية جـ ٢ ،
تاليف : وليم الصوري : ترجمة وتعليق : د. حسن حبشي ،
١٩٩٢

٥٦ ـ المجتمع الريفي في عصر محمد علي : دراسة عن اقليم المنوفية ،
د. حلمي احمد شلبي ، ١٩٩٢

٥٧ ـ مصر الاسلامية واهل الذمة ،
د. سيدة اسماعيل كاشف ،
١٩٩٢

٥٨ ـ احمد حلمي سجين الحرية والصحافة ،
د. ابراهيم عبد الله المسلمي ،
١٩٩٣

٥٩ ـ الراسمالية الصناعية في مصر ، من التمصير الى التاميم ( ١٩٥٧ ـ ١٩٦١ )
د. عبد السلام عبد الحليم عامر ، ١٩٩٣

٦٠ ـ المعاصرون من رواد الموسيقى العربية ،
عبد الحميد توفيق زكي ، ١٩٩٣

٦١ ـ تاريخ الاسكندرية في العصر الحديث ،
د. عبد العظيم رمضان ، ١٩٩٣

٦٢ ـ هؤلاء الرجال من مصر ، جـ ٣ ،
لمعي المطيعي ، ١٩٩٣

٦٣ ـ موسوعة تاريخ مصر عبر العصور : تاريخ مصر الاسلامية ،
تاليف : د. سيدة اسماعيل كاشف ، جمال الدين سرور ، وسعيد عبد الفتاح عاشور ، اعدها للنشر : د. عبد العظيم رمضان ، ١٩٩٣

٦٤ ـ مصر وحقوق الانسان ، بين الحقيقة والافتراء دراسة وثائقية ،
د. محمد نعمان جلال ، ١٩٩٣

٦٥ ـ موقف الصحافة المصرية من الصهيونية ( ١٨٩٧ ـ ١٩١٧ )
سهام نصار ، ١٩٩٣

٦٦ ـ المرأة في مصر في العصر الفاطمي ،
د. نريمان عبد الكريم احمد ،
١٩٩٣

٦٧ ـ مساعي السلام العربية الاسرائيلية : الاصول التاريخية ،
( ابحاث الندوة التي اقامتها لجنة التاريخ والآثار بالمجلس الاعلى للثقافة ، بالاشتراك مع قسم التاريخ بكلية البنات جامعة عين شمس ، في ابريل ١٩٩٣ ) ،
اعدها للنشر : د. عبد العظيم رمضان ، ١٩٩٣

٦٨ ـ الحروب الصليبية ، جـ ٣ ،
تاليف : وليم الصوري ، ترجمة وتعليق : د.حسن حبشي ، ١٩٩٣

٦٩ ـ ثروة موسى ودورها في الحياة المصرية ( ١٨٨٦ ـ ١٩٥١ ) ،
د. محمد ابو الاسعاد ، ١٩٩٤

٧٠ - اهل الذمة فى الاسلام ،
تاليف : ا.س. ترتون ، ترجمة
وتعليق : د.حسن حبشى ط ٢ ،
١٩٩٤ .
٧١ - مذكرات اللورد كلين ( ١٩٣٤ - ١٩٤٦ ) ،
اعداد : تريفور ايفانز ، ترجمة :
د. عبد الرؤوف أحمد عمرو ،
١٩٩٤
٧٢ - رؤية الرحالة المسلمين للاحوال المالية والاقتصادية لمصر فى العصر الفاطمى ( ٣٥٨ - ٥٦٧ هـ )
امينة احمد امام ، ١٩٩٤
٧٣ - تاريخ جامعة القاهرة ،
د. رؤوف عباس حامد ، ١٩٩٤
٧٤ - تاريخ الطب والصيدلة المصرية ، جـ ١ ، فى العصر الفرعونى ،
د. سمير يحيى الجمال ، ١٩٩٤
٧٥ - اهل الذمة فى مصر ، فى العصر الفاطمى الاول ،
د. سلام شافعى محمود ، ١٩٩٥
٧٦ - دور التعليم المصرى فى النضال الوطنى ( زمن الاحتلال البريطانى ) ،
د. سعيد اسماعيل على ، ١٩٩٥
٧٧ - الحروب الصليبية ، جـ ٤ ،
تاليف : وليم الصورى ، ترجمة
وتعليق : د. حسن حبشى ، ١٩٩٤
٧٨ - تاريخ الصحافة السكندرية ( ١٨٧٣ - ١٨٩٩ )
نعمات احمد عثمان ، ١٩٩٥ .
٧٩ - تاريخ الطرق الصوفية فى مصر ، فى القرن التاسع عشر ،
تاليف : فريد دى يونج ، ترجمة
عبد الحميد فهمى الجمال ،
١٩٩٥
٨٠ - قناة السويس والتنافس الاستعمارى الاوربى ( ١٨٨٢ - ١٩٠٤ )
د. السيد حسين جلال ، ١٩٩٥
٨١ - تاريخ السياسة والصحافة المصرية ، من هزيمة يونيو الى نصر اكتوبر ،
د. رمزى ميخائيل ، ١٩٩٥
٨٢ - مصر فى فجر الاسلام ، من الفتح العربى الى قيام الدولة الطولونية ،
د. سيدة اسماعيل كاشف ،
ط ٢ ، ١٩٩٤ .
٨٣ - مذكرتى فى نصف قرن ، جـ ١ ،
احمد شفيق باشا ، ط ٢ ،
١٩٩٤
٨٤ - مذكراتى فى نصف قرن ، جـ ٢ ، القسم الاول ،
احمد شفيق باشا ، ط ٢ ،
١٩٩٥
٨٥ - تاريخ الاذاعة المصرية : دراسة تاريخية ( ١٩٣٤ - ١٩٥٢ ) ،
د. حلمى احمد شلبى ، ١٩٩٥

٨٦ ـ تاريخ التجارة المصرية فى عصر الحرية الاقتصادية ( ١٨٤٠ ـ ١٩١٤)
د. أحمد الشربينى ، ١٩٩٥
٨٧ ـ مذكرات اللورد كلين ، جـ ١ ، ( ١٩٣٤ ـ ١٩٤٦ ) ،
اعداد : تريفور ايفانز ، ترجمة وتحقيق : د. عبد الرؤوف أحمد عمرو ، ١٩٩٥.
٨٨ ـ التـذوق الموسيقى وتاريخ الموسيقى المصرية ،
عبد الحميد توفيق زكى ، ١٩٩٥
٨٩ ـ تاريخ الموانىء المصرية فى العصر العثمانى ،
د. عبد الحميد حامد سليمان ، ١٩٩٥.
٩٠ ـ معاملة غير المسلمين فى الدولة الاسلامية ،
د. نريمان عبد الكريم أحمد ، ١٩٩٦.
٩١ ـ تاريخ مصر الحديثة والشرق الأوسط ،
تأليف : بيتر مانسفيلد ، ترجمة: عبد الحميد فهمى الجمال ، ١٩٩٦
٩٢ ـ الصحافة الوفدية والقضايا الوطنية ( ١٩١٩ ـ ١٩٣٦ ) جـ ٢ ،
نجوى كامل ، ١٩٩٦
٩٣ ـ قضايا عربية فى البرلمان المصرى ( ١٩٢٤ـ ١٩٥٨ ) ،
د. نبيه بيومى عبد الله ، ١٩٩٦
٩٤ ـ الصحافة المصرية والقضايا الوطنية ( ١٩٤٦ ـ ١٩٥٤ ) ، جـ ٢ ،
د. سهير أسكندر ، ١٩٩٦
٩٥ ـ مصر وافريقيا .. الجذور التاريخية الافريقية المعاصرة ،
( أبحاث الندوة التى اقامتها لجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى للثقافة بالاشتراك مع معهد البحوث والدراسات الافريقية بجامعة القاهرة ) ، أعدها للنشر ، د. عبد العظيم رمضان
٩٦ ـ عبد الناصر والحرب العربية الباردة ( ١٩٥٨ ـ ١٩٧٠ ) ،
تأليف : مالكولم كير ، ترجمة : د. عبد الرؤوف أحمد عمرو
٩٧ ـ العربان ودورهم فى المجتمع المصرى فى النصف الاول من القرن التاسع عشر ،
د. ايمان محمد عبد المنعم عامر
٩٨ ـ هيكل والسياسة الاسبوعية ،
د. محمد سيد محمد
٩٩ ـ تاريخ الطب والصيدلة المصرية ( العصر اليونانى ـ الرومانى ) جـ ٢ ،
د. سمير يحيى الجمال
١٠٠ ـ موسوعة تاريخ مصر عبر العصور : تاريخ مصر القديمة ،
أ. د. عبد العزيز صالح ، أ. د. جمال مختار ، أ.د. محمد

ابراهيم بكر ، أ.د. ابراهيم نصحى ، أ. د. فاروق القاضى ، أعدها للنشر : أ. د. عبد العظيم رمضان .

١٠١ ـ ثورة يوليو والحقيقة الغائبة ،
اللواء/ مصطفى عبد المجيد نصير ،
اللواء/ عبدالحميد كفافى ،
اللواء/ سعد عبد الحفيظ ،
السفير/ جمال منصور

١٠٢ ـ المقطم جريدة الاحتلال البريطانى فى مصر ( ١٨٨٩ ـ ١٩٥٢ ) ،
د. تيسير أبو عرجة

١٠٣ ـ رؤية الجبرتى لبعض قضايا عصره ،
د. على بركات

١٠٤ ـ تاريخ العمال الزراعيين فى مصر ( ١٩١٤ ـ ١٩٥٢ ) ،
د. فاطمة علم الدين عبد الواحد

١٠٥ ـ السلطة السياسية فى مصر وقضية الديمقراطية ( ١٨٠٥ ـ ١٩٨٧ ) ،
د. أحمد فارس عبد المنعم

١٠٦ ـ الشيخ على يوسف وجريدة المؤيد : تاريخ الحركة الوطنية فى ربع قرن ، جـ ٢ ،
د. سليمان صالح

١٠٧ ـ الأصولية الإسلامية فى العصر الحديث
تأليف : دليب هيرو ، ترجمة : عبد الحميد الجمال

١٠٨ ـ مصر للمصريين ، جـ ٦ ،
سليم خليل النقاش

١٠٩ ـ مصر للمصريين ، جـ ٥ ،
سليم خليل النقاش

١١٠ ـ مصادرة الأملاك فى الدولة الإسلامية ( عصر سلاطين المماليك ) ، جـ ١ ،
د. البيومى اسماعيل الشربينى

١١٢ ـ اسماعيل باشا صدقى ،
د. محمد محمد الجوادى

١١٣ ـ الزبير باشا ودوره فى السودان ( فى عصر الحكم المصرى ) ،
د. اسماعيل عز الدين

١١٤ ـ دراسات اجتماعية فى تاريخ مصر ،
أحمد رشدى صالح

١١٥ ـ مذكراتى فى نصف قرن ، جـ ٢ ،
أحمد شفيق باشا

١١٦ ـ أديب اسحق ( عاشق الحرية ) ،
علاء الدين وحيد

١١٧ ـ تاريخ القضاء فى مصر العثمانية ( ١٥١٧ ـ ١٧٩٨ ) ،
عبد الرازق ابراهيم عيسى

١١٨ ـ النظم المالية فى مصر والشام زمن سلاطين المماليك ،
د. البيومى اسماعيل الشربينى

١١٩ ـ النقابات فى مصر الرومانية « دراسة وثائقية »
حسين محمد أحمد يوسف

١٢٠ ـ يوميات من التاريخ المصرى الحديث ( ١٧٧٥ ـ ١٩٥٢ ) ،
لويس جرجس

١٢١ ـ الجلاء ووحدة وادى النيل ( ١٧٧٥ ـ ١٩٥٢ ) ،
محمد عبد الحميد الحناوى

١٢٢ ـ مصر للمصريين جـ ٦ ،
سليم خليل النقاش

١٢٣ ـ السيد احمد البدوى ،
د. سعيد عبد الفتاح عاشور

١٢٤ ـ العلاقات المصرية الباكستانية فى نصف قرن ،
د. محمد نعمان جلال

١٢٥ ـ مصر للمصريين جـ ٧ ،
سليم خليل النقاش

١٢٦ ـ مصر للمصريين جـ ٨ ،
سليم خليل النقاش

١٢٧ ـ مقدمات الوحدة المصرية السورية ( ١٩٤٢ ـ ١٩٥٨ ) ،
ابراهيم محمد محمد ابراهيم

١٢٨ ـ معارك صحفية ،
جمال بدوى

١٢٩ ـ الدين العام ( واثره فى تطور الاقتصاد المصرى ) ( ١٨٧٦ ـ ١٩٤٣ ) ،
د. يحيى محمد محمود

١٣٠ ـ تاريخ نقابات الفنانين فى مصر ( ١٩٨٧ ـ ١٩٩٧ ) ،
سمير فريد

١٣١ ـ الولايات المتحدة وثورة يوليو ١٩٥٢ ( ١٩٥٢ ـ ١٩٥٨ ) ،
تأليف : جابل ماير ، ترجمة : د. عبد الرءوف أحمد عمرو

١٣٢ ـ دار المندوب السامى فى مصر جـ ١ ،
د. ماجدة محمد محمود

١٣٣ ـ دار المندوب السامى فى مصر جـ ٢ ،
د. ماجدة محمد محمود

١٣٤ ـ الحملة الفرنسية على مصر فى ضوء مخطوط عثمانى للدارندلى،
بقلم : عزت حسن افندى الدارندلى ، ترجمة :جمال سعيد عبد الغنى

١٣٥ ـ اليهود فى مصر المملوكية ( فى ضوء وثائق الجنيزة ) ( ٦٤٨ ـ ٩٢٣ هـ/١٢٥٠ ـ ١٥١٧ م ) ،
د. محاسن محمد الوقاد

١٣٦ ـ أوراق يوسف صديق ،
تقديم : أ.د. عبد العظيم رمضان

١٣٧ ـ تجار التوابل فى مصر فى العصر المملوكى ،
د. محمد عبد الغنى الأشقر

١٣٨ ـ الاخوان المسلمون وجذور التطرف الدينى والارهاب فى مصر ،
السيد يوسف .

١٣٩ ـ موسوعة الغناء المصرى فى القرن العشرين ،
بقلم : محمد قابيل

١٤٠ ـ سياسة مصر فى البحر الاحمر فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ١٢٢٦ ـ ١٢٦٥ هـ/ ١٨١١ ـ ١٨٤٨ م ،
طارق عبد العاطى غنيم بيومى

١٤١ ـ وسائل الترفيه فى عصر سلاطين سلاطين المماليك فى مصر ،
لطفى أحمد نصار
١٤٢ ـ مذكراتى فى نصف قرن ، جـ ٤ ،
أحمد شفيق باشا
١٤٣ ـ دبلوماسية البطالمة فى القرنين الثانى والأول ق.م. ،
د. منيرة الهمشرى
١٤٤ ـ كشوف مصر الأفريقية فى عهد الخديوى اسماعيل ( ١٨٦٣ ـ ١٨٧٩ )
عبد العليم خلاف
١٤٥ ـ النظام الادارى والاقتصادى فى مصر فى عهد دقلديانوس ( ٢٨٤ ـ ٣٠٥ م )
د. منيرة الهمشرى
١٤٦ ـ المرأة فى مصر المملوكية ،
د. أحمد عبد الرازق
١٤٧ ـ حسن البنا ،
متى .. كيف .. لماذا ؟
د. رفعت السعيد
١٤٨ ـ القديس مرقس وتأسيس كنيسة الاسكندرية ،
تأليف : د. سمير فوزى ، ترجمة: نسيم مجلى
١٤٩ ـ العلاقات المصرية الحجازية فى القرن الثامن‌عشر ،
حسام محمد عبد المعطى
١٥٠ ـ تاريخ الموسيقى المصرية ( أصولها وتطورها )
د. سمير يحيى الجمال

١٥١ ـ جمال الدين الأفغانى والثورة الشاملة ،
السيد يوسف
١٥٢ ـ الطبقات الشعبية فى القاهرة المملوكية ( ٦٤٨ ـ ٩٢٣ هـ/ ١٢٥٠ ـ ١٥١٧ م ) ،
د. محاسن محمد الوقاد
١٥٣ ـ الحروب الصليبية ( المقدمات السياسية ) ،
د. علية عبد السميع الجنزورى
١٥٤ ـ هجمات الروم البحرية على شواطىء مصر الاسلامية فى العصور الوسطى ،
د. علية عبد السميع الجنزورى
١٥٥ ـ عصر محمد على ونهضة مصر فى القرن التاسع عشر ( ١٨٠٥ ـ ١٨٨٢ ) ،
د. عبد الحميد البطريق
١٥٦ ـ تاريخ الطب والصيدلة المصرية جـ ٣ ( فى العصر الاسلامى ) ،
د. سمير يحيى الجمال
١٥٧ ـ تاريخ الطب والصيدلة المصرية فى العصر الاسلامى الحديث جـ ١
د. سمير يحيى الجمال
١٥٨ ـ نائب السلطنة المملوكية فى مصر ( من ٦٤٨ ـ ٩٢٣ هـ/١٢٥٧ ـ ١٥١٧ م )
د. محمد عبد الغنى الأشقر
١٥٩ ـ حزب الوفد ( ١٩٣٦ ـ ١٩٥٢ ) جـ ١ ،
د. محمد فريد حشيش

١٦٠ ـ حزب الوفد ( ١٩٣٦ ـ ١٩٥٢ ) ج ٢ ،
د. محمد فريد حشيش

١٦١ ـ السيف والنار فى السودان ،
تأليف : سلاطين باشا

١٦٢ ـ السياسة المصرية تجاه السودان (١٩٣٦ ـ ١٩٥٣ )
د. تمام همام تمام

١٦٣ ـ مصر والحملة الفرنسية ،:
المستشار/محمد سعيد العشماوى

١٦٤ ـ الحدود المصرية السودانية عبر التاريخ ،
( أعمال ندوة لجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلى للثقافة بالاشتراك مع معهد البحوث والدراسات الافريقية بجامعة القاهرة ٢٠ ـ ٢١ ديسمبر عام ١٩٩٧ ) ،
اعداد : أ. د. عبدالعظيم رمضان

١٦٥ ـ التعليم والتغير الاجتماعى فى مصر فى القرن التاسع عشر ،
سامى سليمان محمد السهم

١٦٦ ـ مذكرات معتقل سياسى صفحة من تاريخ مصر ،
السيد يوسف

١٦٧ ـ الحركة العلمية والأدبية فى الفسطاط منذ الفتح العربى الى نهاية الدولة الاخشيدية ،
د. سعفى على محمد

١٦٨ ـ مؤرخون مصريون من عصر الموسوعات ،
يسرى عبد الغنى

١٦٩ ـ مدن مصر الصناعية فى العصر الاسلامى الى نهاية عصر الفاطميين ( ٢١ ـ ٥٦٧هـ/٦٤٢ ـ ١١٧١م )
د. صفى على محمد عبد الله

١٧٠ ـ القرية المصرية فى عصر سلاطين المماليك ( ٦٤٨ ـ ٩٢٣ هـ/ ١٢٥٠ ـ ١٥١٧ م ) ،
مجدى عبد الرشيد بحر

١٧١ ـ تاريخ الطائفة الأرمنية فى مصر القرن التاسع عشر ،
محمد رفعت

١٧٢ ـ تاريخ اهل الذمة فى مصر الاسلامية ( من الفتح العربى الى نهاية العصر الفاطمى ج ١ ) ،
د. فاطمة مصطفى عامر

١٧٣ ـ تاريخ اهل الذمة فى مصر الاسلامية ( من الفتح العربى الى نهاية العصر الفاطمى ج ٢ ) ،
د. فاطمة مصطفى عامر

١٧٤ ـ مصر وليبيا فيما بين القرن السابع والقرن الرابع ق.م ،
د. أحمد عبد الحليم دراز

١٧٥ ـ محمد توفيق نسيم باشا ودوره فى الحياة السياسية ،
عادل ابراهيم الطويل

١٧٦ ـ الملاحة النيلية فى مصر العثمانية ( ١٥١٧ ـ ١٧٩٨ م ) ،
د. عبد الحميد حامد سليمان

١٧٧ ـ سياسة مصر العسكرية ـ ازاء حروب الشرق الاوسط ،
لواء دكتور/ صلاح سالم

١٧٨ ـ العلاقات التجارية بين مصر وبلاد الشام الكبرى فى القرن الثامن عشر ،
د. سحر على حنفى

١٧٩ ـ دور الحامية العثمانية فى تاريخ مصر ( ١٥٦٤ ـ ١٦٠٩ م ) ،
د. طلعت سعد السيد العبد

١٨٠ ـ الحقيقة التاريخية حول قرار تاميم شركة قناة السويس ،
د. عبد العظيم رمضان

١٨١ ـ الحروب الصليبية الثالثة ( صلاح الدين وريتشارد جـ ١ )
ترجمة وتحقيق وتعليق : أ. د. حسن حبشى

١٨٢ ـ الحروب الصليبية الثالثة ( صلاح الدين وريتشارد جـ ٢ )
ترجمة وتحقيق وتعليق : أ. د. حسن حبشى

١٨٣ ـ شاهد على العصر ،
مذكرات محمد لطفى جمعة

١٨٤ ـ المنوفية فى القرن الثامن عشر ،
ياسر عبد المنعم محاريق

١٨٥ ـ تاريخ مدينة الخرطوم تحت الحكم المصرى ( ١٨٢٠ ـ ١٨٨٥م )
د. أحمد أحمد سيد أحمد

١٨٦ ـ العقائد الدينية فى مصر المملوكية بين الاسلام والتصوف ،
د. أحمد صبحى منصور

١٨٧ ـ نيابة حلب فى عصر سلاطين المماليك ( ١٢٥٠ ـ ١٥١٧ م/ ٦٤٨ ـ ٩٢٣ هـ ) جـ ١ ،
د. عادل عبد الحافظ حمزة

١٨٨ ـ نيابة حلب فى عصر سلاطين المماليك ( ١٢٥٠ ـ ١٥١٧ م/ ٦٤٨ ـ ٩٢٣ هـ ) جـ ٢ ،
د. عادل عبد الحافظ حمزة

١٨٩ ـ يهود مصر منذ عصر الفراعنة ،
عرفه عبده على

١٩٠ ـ العلاقات السياسية بين مصر والعراق ( ١٩٥٠ ـ ١٩٦٣ م ) ،
عبد الحميد عبد الجليل احمد شلبى

١٩١ ـ اليهود فى مصر جـ ١ ،
د. محسن على شومان

١٩٢ ـ اليهود فى مصر جـ ٢ ،
د. محسن على شومان

١٩٣ ـ الامام محمد عبده ،
د. عبد الله محمود شحاته

رقم الايداع ٨٤٨٦/٢٠٠٠

الترقيم الدولى I.S.B.N. 977 — 01 — 6686 — 3

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب
فـــرع الصـــحافة

هذا الكتاب يتحدث عن منهج الإمام محمد عبده فى تفسير القرآن الكريم، الذى كان يتخذه أداة لمحاربة الأفكار الرجعية والتخلف فى فهم الدين، ويدعو فيه إلى الرجوع بالدين إلى منابعه الأولى.

وقد قسم الدكتور عبدالله شحاته كتابه إلى ثلاثة أبواب: الباب الأول، وقد تحدث فيه عن حياة الشيخ محمد عبده، أما الباب الثاني فقد تناول فيه منهج الشيخ محمد عبده فى تفسير القرآن الكريم، مقارنا بمناهج المفسرين السابقين، أما الباب الثالث والأخير، فقد تحدث فيه عن تلامذة الإمام محمد عبده فى التفسير.

والكتاب على هذا النحو يقدم جانبا مهما من جر
الشيخ محمد عبده، ويرسم صورة قد لا يحيط المؤرخون.






٤٠٠ قرش

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب